المحتفي المحتاه المارسيان المحتاه المحتاه المارسيان المحتاه المحتاء المحتاه المحتاه المحتاه المحتاه المحتاه المحتاه المحتاه المحتاه ال

تألیف دکنور امحارید (مَعْبدی

القسيم الأول النول النول

منتزم الطبيع والمشر محكية الآداب ومطبعتها بالجاميرة ١٩٣٧٧ ٢٤ ميدان الأوبرا - ت، ٩٢٠٨٦٨ المطبع تمالستموذ جبيبة د سكة السابورك بالحلمية، الجديدة

أبشتتم التدالرمن أتزهنيم

مقدمت

مكانة المرأة فى القديم والحديث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى 1 له .

وبعيد:

كان للمرأة فى الجاهلية مكانة مرموقة ، ومنزلة عالية لا تدانى ، والدليل على هذا ما توارثناه من شدر الشعراء ونثر الأدباء الذى ، يتغنى بالمرأة ولا يفتأ عن ذكرها والإشادة بها فى غدوه ورواحه ، وبمساه ومصبحه ، وذكرها يصاحبه حيثها حلّ وأينها ذهب ، ونراه حتى فى أشد ويلات الحرب ، ومنازلة الاعداء مذكرها ولا ينساها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى فوددت تقبيــــل الرماح لأنها لمت كبارق ثغرك المتبسم

ويما يدل على عظم منزلتها أنها دقت حتى تسنمت عرش المملكة ، فقد دوى التاريخ أن كثيرات منهن وصلن إلى الملك والرئاسة ومنهن (ذنوبيا) ملكة (تدمر) التى كانت تنادى بـ (جان دارك) الصحراء ، والتى يقول فيها المستشرق و وادنكتون ، أنها من أصل عربى من بنى السميدع ، وقد خضمت لها القبائل ، وضرب بها المثل فى العزة والسكيرياء ؛ فقيل أعز من د الزباء » .

و نقراً فى القرآن السكريم سيرة « بلقيس » العظيمة وما كان لها من التجربة وحنكة الرأى والمنزلة الديمو قراطية فى قومها إذ كانت تستشيرهم فى كل معضلة و تأخذ رأيهم فى كل أمر (أفتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) (1)

⁽١) سورة الهل الآية ٢٢.

إننا نقرأ هذه الآيات فنزداد إكباراً وإجلالا وتقديراً للمرأة وما وصلت إليه من مركز مرموق لدرجة أنها كانت تستشاد فى الرأى ، ويرجع إليها إذا حزب القوم أمر ؛ فقد روى أن عمرة ابنة عامر الظرب كانت تقوم بالنيابة عن أبيها فى أمود الفتاوى ، وكانت تقرع العصا إذا رأنه سها ، وفى هذا يقول قائلهم:

لدى الحـكم قبل اليوم ما تقرع العصا وما عــــلم الإنسان إلا ليعلما (١)

وإن المرأة منذ فجر التاريخ حتى اليوم قد برهنت على ذكاه عظيم ، ودقة إحساس تستثير الإعجاب ، ولقد ظهرت - كما أسلفنا - في ميادين النشاط الفكرى شاعرة فياضة بالوحى الإلهى ، وناثرة قديرة على يقاظ أنبل عو اطفنا الإنسانية ، واستطاعت أن تكون دئيسة وحاكمة وقائدة جيوش وسياسسية عنك ... كل شيء قد برزت فيه وساوت فيه الرجل ، وفاقته أحيانا وتركت للناس فيه أحدوثة باقية وذكراً خالداً (٢٠) . ويروى التاديخ أن النساء قد اشتركن فعلا في حومة الوغى بعزيمة نادرة وشجاعة فائقة في بعض الغزوات ، كذروة أحد ، بلكن يلقين بفلذات أكبادهن في المعركة ، وخسير شاهد على هذا الخنساء ، فقد ضحت بأولادها الاربعة في سبيل نصرة الإسلام .

وإذا لم تشترك النساء بالأعمال الفعلية فى الحرب فقد كن يقمن بالأعمال الهامة للمحاربين ، فيقدمن المحاربين الماء والزاد والسلاح ، ويجندن من أنفسهن عيوناً للجبش فيرقبن المؤخرة والجوانب لثلا يباغتهم العدو ، ومن أهم أعمالهن تضميد الجراح ، فهن الطبيبات بالودائة ، والأواسى الملائى يعالجن المرضى ، ويرفعن الروح المعنوية فى القتال بما يؤدين من خدمات جليلة وتضحيات نبيلة ـ ويرجع سر مهارة المرأة العربية فى الطب إلى تنقلهن مع

⁽١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٩

⁽٧) تحت المصباح الأخضر: ص ٦٥ توفيق الحكيم (مكتبة الآداب)

الرجال فى الحروب، وبين المتخاصمين، وعنايتهم بشئون الاطفال؛ الامر الذى جعلمن يعرفن الحالات المرضية، وفقهمن فى طبيعة الظواهر والتغييرات التى تصيب الإنسان، وعلى العموم فإن جميع الافعال والاعمال الخاصة بحياة السلم ورخاء الإنسانية كانت حيناً من الدهر وفى جذور التاريخ الإنساني من أعمال الحقل النسائي (١).

عما سبق يتضح دور المرأة فى الحياة الجاهلية ومدى ما كان لها من الحقوق فلقد صورها الشعراء فى صورة كريمة تليق بمكانها، وكانت أول شيء يبدأون به قصائدهم، وبراعة استهلال يزينون بها أدبهم وشعرهم، ومن الذين تغنوا بالمرأة (طرفة بن العبد) فلقد قد مها على أنها مناظرة للرجل (ت)، وتحدث إليها الشعراء في إكبار وإجلال وتقدير، يسبغين عليها حلل النبل والفضل، ويضفون عليها سمات الذكاء والنجابة، وكان لها حقوق، وعليها واجبات، ومن أهم حقوقها على الرجل أن يحميها ويمنع عنها الصيم ويشعرها بأنها تعيش فى حمى حقيق فتجد فيه كفايتها وترى فيه ملجأها وحماها الحصين، ولم يكن الرجل حقيق فتجد فيه كفايتها وترى فيه ملجأها وحماها الحصين، ولم يكن الرجل ليحمى أهله فقط؛ فالبيت عند العربي يتسع حتى يشمل القبيلة، ومن هنا، ليحمى أهله فقط؛ فالبيت عند العربي يتسع حتى يشمل القبيلة، ومن هنا، افتخر الشعراء بأنهم يشركون جارانهم في طعامهم وما يذبحون أو يأكلون، يقول حاتم:

وإنى لاخزى أن ترى لى بطنة وجارات ببتى طاويات ونحف

فهو يشرك جاراته فى زاده، ويعطيهن من الحقوق ما يعطيها أهله، وهو يحميهن ضد المغيرين، كما يدفع عنهن الجوع والمسغبة، وكانت هذه الحماية تتضاعف إذا انقطع عنها المعين أو لم يكن لها بعل:

⁽١) د/على الماشي ، المرأة في الشعر الجاهلي . ص ٧٥٠

⁽٢) براجع ديوان طرفة: ص ١٤.

وما تشتکینی جادة غیر أنی إذا غاب عنی بعلما الا أذورها سیبلنما خسیری ویرجع بعلما إلیها ولم یقصد علی ستورها(۱)

كما يغض طرفه ويمنعه من النظر إلى النساء الأجنبيات عنه وبخاصة الجادات :

وأغض طرفي إن بدت لي جادة حتى يوارى جادتي مثواها

وأماواجبات المرأة ؛ فلم يمكن العرب يرهقون نساءهم وفتياتهم بالأعمال والواجبات كما يفعل غيرهم من الشعوب الأخرى كاليونان والفرس ، وكانت تختلف حالة المرأة باختلاف الأسرة التي تعيش فيها ، فنساء الأسرة الراقية قل أن يقمن بالأعمال المنزلية وغيرها ، وكن يعتمدن على الإماء والحسم ، أما في الطبقات الوسطى والدنيا فكن يقمن بأنفسهن بالأعمال المنزلية . وفي جميع الأسر (عالية ومتوسطة ودنيا) كانت أعمال البيت كلها مسئولة مسئولية كاملة من المرأة .

ولما جاء الإسلام الحنيف ارتقى بالمرأة وبلغ بها أوج السكال ، ورفع من شأنها حتى تسنمت ذروة العلا ، ونظم حقوق المرأة وواجباتها وجعل لما دستوراً تلزم به ولا تحيد عنه ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن دزجة والله عزيز حكيم ، (٢) والدرجة هذه هي ما عناها القرآن الكريم بقوله : « الرجال قوامون على إلنساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، (٦) .

ووصى الرسول ﷺ بالمرأة خيراً وكرد التوصية بها في غير حديث ،

⁽١) شعراء النصرانية ص ١٣٠.

⁽٢) سورة البقرة: ٢٢٤ . (٣) سورة النساء: ٢٤ .

وقرر الإسلام لها نصيباً مفروضاً : ووللنساء نصيب بما ترك الوالدر. والآقربون بما قل منه أوكثر نصيباً مفروضاً ، (۱)

وإذا قارنا بين المرأة العربية وأختها فى الآمم الآخرى رأينا البون شاسعاً بينهما ؛ فنى ظلال الشظم اليهودية التى قامت على ما يقتضيه نظام الآمة الحربية من خضوع المرأة للرجل والرغبة فى النسل ، نرى المرأة تسبى وتباع ، وتوريّث ، واللّا ماء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق وأن يقتلوهن (٢) .

و بعض الأديان ترى أن المرأة هابطة المسكانة ، وأنها خلقت للرجل ، فني دسالة (بو اس) إلى أهل (كورنثوس) : « أديد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، (٣) .

وقد أثار المجتمعون فى بحمع (ماكون ٥٨١م) دقضية ما إذا كان للرأة نفس، وهل تعد من البشر، وبعد جدال طويل كان الجواب: أن لها نفساً وأنها بشر، ولحنه كان بأكثرية قليلة وإنكانت الفكرة الفالبة عليم أن المرأة خالية من الروح الناجية ما عدا السيدة مريم (٤).

وفى الفرس لم تنل المرأة حظاً عالياً من الاحترام والنقدير ، فللفادسي أن يتصرف فى المرأة كما يتصرف فى السلمة ، بل لفد كار له أن يحكم عليها بالموت (٥٠) ، وكان قدماء الفرس يبيحون للرجل أن يتزوج بننه ، وأخته

⁽١) سورة النساء الآية:

⁽٢) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون

⁽٣) الإصحاح ٢:١١ (٤) المرأة في الشمر الجاهلي ﴿

⁽٥) تحرير المرأة : ٢٣ صبح الأعشى ١٣ ـ ٢٩٥ وقصة الحضارة الفارسية ٩١

الشقيقة أو غير الشقيقة ــ كما كانوا يبيحون الأمهات ويعتبرون ولأدة الذكور ثروة ثمينة، ويرون ولادة البنات عارآ يجلب اللوعة والحسرة (١).

أما المرأة فى نظر اليونان والرومان ، فقد انحطت مكانتها حتى بلغت الحصيص الأوهد ، والدرك الأسفل ، فكانوا يعدونها للمتعة ، وعليها أن تطأطى و داسها فى ذلة وخشوع للرجل ، وكان ذوجها يملك مالها ويقيم عليها وصيا قبل موته ، وأبوها هو الذى يختاد لها ذوجها ، فإذا تزوجت ملكها زوجها (٢) .

ومن هذا كان الفرق شاسعاً بين المرأة بن ، وكبيراً ما بين المنزلتين ، فبينما رأينا المرأة العربية تبلع السياكين (٢) وتهز الخافقين ، إذا بأختها في الائم الانخرى ترسف في أغلال القيود ، وتهوى إلى قاع الحضيض : هذي "مشر قة وذاك مغرب شتان بين مشرق ومغرب

ولو أطلقنا لقلمنا العنان في هذه المقارنة بينهما لصاقت علينا صفحات هـذا الكتاب، ولمـا اتسع المقام لإلقاء الأضواء على هـذا الموضوع، ولطفت مقـدمة الكتاب على جوهر البحث ... فلندع هـذا إلى مقامه، ولـكل مقام مقال.

والله ولى التوفيق .

د . محمد بدر معبدی

⁽١) أنظر المرأة في الشمر الجاهلي ٧٥ .

⁽٢) افظر حضارة العرب لجوستاف: ٤٩٤.

⁽٣) السياكان: نجمان معروفان.

⁽٤) الخافقان : الشرق والفرب .

تمهيد

لا أدرى لماذا غفل علماء الآدب والشعر عن تسجيل تراث المرأة الآدبى والشعرى ، وقصّر المفكرون والمؤدخون فى إبراذه إلى حيز الوجود ، انسد فراغاً كبيراً فى المكتبة الآدبية ، ونصيف إلى التراث الإنساني تراثاً تليداً وطريفاً ما أحوجنا إليهما فى حياننا الآدبية والشعرية .

إن فى المرأة قدرات خلاقة وحيوية ربما لا نجدها فى الرجل؛ فقد منحتها قدرة الله الرقة والعذوبة، وقد اقتضت وظيفة الأمومة أن تكون المرأة أكثر حساسية من الرجل وأسرع استجابة للمؤثرات العاطفية والوجدانية.

وكثيراً ما تهدى عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهندى إليها بمقله وتفكيره المجرد ، فالمرأة هي الواحة الخضراء في صحراء الحياة ، والمرأة قصيدة الدهر ، وأغرودة الآبد .

والناظر فيما ترامى إلينا من الأدب على بعد الزمن سواه فى الجاهلية أو الإسلام وما بعدهما، يرى عقداً نظيماً يتلألا فى جبين الأدب والشعر دلالا وروعة وبهاء، فالمرأة هى الوحى الذى يلتى فى خلد الأدباء والشعراء صوراً منتزعة من رؤى الأحلام، يبعثها فى أفتنتهم نسيما عليلا وفكراً رائماً يتهادى على أسلات اللسان برداً وسلاماً، يطمئن إليه القلب ويرتاح الخاطر، فالمرأة خرة الأدب، ورحيقه يرشفه الأديب والشاعر فشوة غامرة، وما يفتبه منها إلا وفى قه لحن سماوى يتذوقه القادى. وقال أن تجد أدباً رفيماً بجرداً عن ذكرها . ففيه من دوحها حلاوة ، ومن دلالها نغمة ، ومن سحرها دقة ،

ومن فتور عينيها هينمة . ولقد سجل التاديخ لبعض النساء العربيات مآثر ونبوغاً فى فرات زمنية متقطعة فى العفل والعلم والادب ، لحفلت كتب التاديخ والادب الادببات والشاعرات العربيات فى شى العصود والازمنة .

ولم تقتصر العناية بالأدب على الرجال وحدهم فقد نبخ من النساء عدد كبير ضربن بسهم وافر فى الأدب، وكن أمثلة تحتذى فى قوة البيان وفصاحة اللسان ، وقوة العارضة . ومنهن – على سبيل المثال لا الحصر – الناقدة الاديبة أم جندب امرأة إمام الشعراء «امرى القيس بن حجر الفقد كانت أديبة نابهة يقد إليها الشعراء والأدباء، فتدلى برأيها السديد ونظرها الثاقب فى شعرهم ، ومنهن الحنساء فقد كانت خطيبة مؤثرة ، وشاعرة بارعة و لعل سبب فى شعرهم ، ومنهن الحنساء فقد كانت خطيبة مؤثرة ، وشاعرة بارعة و لعل سبب قوتها الادبية و تأثيرها برجع إلى أنها مرت بتجارب و بأحداث كثيرة مختلفة ، انعكس أثرها على نفسها فصقل أسلوبها وأضاف إليه الحنسكة والتجربة والصلابة وشدة الاسر .

وقدكانت السيدة عائشة زوج الرسول عَلَيْكِيْنَ من أفصح أهل زمانها وأحفظهم للحديث، فقد دوت عن الرسول السكريم ألفين ومائتين وعشرة من الأحاديث ، ودوى عنها الرواة من الرجال والنساء ، ولها خطب حماسية دائمة ، كما كانت من أفقه الناس وأكثرهم حفظاً للشعر والآدب حتى قيل إنه لم يوجد أحد أعلم منها في فقه أو شعر ،

أما السيدة عائشة بنت عثمان بن عفان ، فقد رثت والدها بعد استشهاده رئاء بليغاً مؤثراً ، يدل على تضلعها فى الأدبو تمليكها ناصية الفصاحة والبلاغة .

ولا ينسى الآدب عائشة بنت طلحة ، فقد كانت مضرب الآمثال فى النبوغ فى الأدب والحسكمة وعلم النجوم ، وقد دخلت على هشام ذات يوم ، فقال لها : إِنَّمَ الْمُوْدَكُ؟ فقالت : حبست السهاء المطر ومنع السلطان الحق ، فقال لهما :

سأعر فلك حقك، ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية فقال: إن عائشة عندى فاسمروا معى الليلة ، فحضروا فما تذكروا شيئاً فى أخباد العرب وأشدادهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أناد إلا سمته ، فقال لهما هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت و أخذتها عن خالى عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة .

ومن شهيرات النساء في العصر الأموى: أم البنين ذوجة الحليفة الوليد ابن عبد الملك، وقد عرفت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد يستشيرها في مهام الدولة.

ومن شهيرات النساء في العصر العباسي والأندلسي: أم جعفر زبيدة بنت جعفرالمنصور العباسي، وعلية بنت المهدى، والعباسة، وو لادة بنت المستكفى، وحمدة بنت زياد، وابني كاتبة المستنصر، والأديبة الأشبيلية الفذة مريم بنت أبي يعقوب التي اتخذت من بيتها محفلا لمدادسة الأدب، وندوة للأدباء حتى غدت موضع الأنظار وموضع التجلة والاحترام، وتسابق الأمراء والوذراء إلى تكريمها ونيل مودتها.

أما الشمر فحد عنه ولا حرج ... فقد كان للنساء ميدان واسع في الشعر البليغ الرصين الذي يختلف عن شعر الرجال في ابتعاده عن الغزل المكشوف والمجون والحزر والهجاء، والمدح الرخيص . وكان وحيه عندهن ما عرفت به المرأة من عاطفة صادقة . وأدوع ذلك الشعر في الرثاء ، فإنهن وإن كن قد شاركن في جميع أبواب الشعر إلا أن باب الرثاء قد حلقن فيه لائه هو المجال الفسيح الذي تنطلق فيه عواطف المرأة لائه نوع من النواح والبكاء، وسلاح المرأة دائماً دموعها ، وهي أول شيء تلجأ إليه إذا حزبها أمر أو الم بها مكروه ...

هذا ما أردت أن أقدمه لكنابى و أدب النساء فى الجاهلية والإسسلام، وقد قسمت هذا القسم إلى ثلاثة أبواب:

الياب الأول: ويشمل الادب في العصر الجاهلي.

والثانى : يشمل الأدب في عصر صدر الإسلام وبني أمية .

والثالث: ويشمل الأدب الموكد أو المحدث. ويدخل تحته الأدب في العصر العباسي والاندلسي. ونأمل أن نكون وفقنا فيها هدفنا إليه من إظهار وأدب المرأف إلى حيز الوجود حتى يننفع الناس بهذا الكنز الثمين، والدر الدفين الذي اختنى عن الانظار حقباً من الزمان.

وما ترفيق إلا بالله عليه تركلت وإليه أنيب ٢٠

د . عمد بدر معبدی

أولا – فى العصر الجاهلي

لقد عرفت المرأة فى شتى عصور الآدب العربى أديبة ونافدة وشاعرة ، وأن هناك درراً غوالى المرأة العربية ما زالت ولا تزال وستظل تزهى بها مدى الآيام والشهود والحقب والدهور ، يضاف إلى ذلك ما اختبأ فى بطون الكتب المجهولة ، وما خنى فى خزائن الكتب التى عفا عليها الزمن وامتدت إليها يد التدمير والإفناء فى عهد محاكم التفتيش ـ وأيام التتر والمغول وغيرها من الحقب المختلفة .

لقد كانت المرأة العربية وما تكاد تسامى فى ارتياد شعاب القول ، وعجم أعواده وكشف فنو نه وشؤونه ، ودرك مواطن القوة والضعف فيه فاغتمرت حومة البيان قائلة ناقدة : فإن نقدت فنقد القائل الحكيم ، أو قالت فقول البليغ العليم ، واشد ما أخذت على فحول الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتأنقوا فيه ، ولها من دقة النقد ولطف الماخذ ، ونفاذ الإدرك ، وحسن البديهة ما جعل لها فى شتات مواقعها الرأى القاطع والسكلمة الفاصلة (١٠) .

وقد دووا أن امرأ القيس ناذع علقمة بن عبدة الفحل الشعر فقال علقمة: د للملك الضايل ، (۲): قد حاكمت بيني وبينك امرأتك ، أم جندب ، قال امرق القيس: قد دضيت - فقالت لهما: 'قولا شعراً على دوى واحد وقافية واحدة صفا فيه الخيل ، فقال امرق القيس:

خليلي ممرًا بي على أم جندب لنقض لبانات الفؤاد المعدّب

⁽١) المرأة المربية ج١: دار الكتب المصرية ١٧٢ الطبعة الأولى ١٩٢١.

⁽٢) المراد بالملك الصليل: امرؤ القيس.

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب ولم يك حقاً كل هــذا التجنب وأنشــداها فغلبيت علقمة ، فقال لهــا زوجها : بأى شيء غلبتيه؟ قالت لانك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق درة ولازجر منه وقع أهوج متعب^(۱) فجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك وذجرك وأتعبته بحهدك وقال علقمة :

فرك على آثارهن بحماصب وعيبة شؤبوب من الشد ملهب فأدركهن ثانياً من عنانه يمسر كدر السرائح المتحلب فلم يضرب فرسمه بسوط ولم يمره ولم يتحبه بزجر ، وفى رواية أن المرأ القيس قال لام جندب: بم فضلته هلى قالت : فرس ابن عبدة أجود من فرسك زجرت وضربت وحركت ساقيك ، وابن عبدة لم يصنع ما فعلت ، فغضب من قولها وطلقها وخلف عليها علقمة (٢) .

وكذلك فعلت الخنساء فى نقدها لشعر حسان كما سنشير إليه فى ترجمتها. وقد نبغ من النساء فى العصر الجاهلى نساء كثيرات ، وكن أمثلة تحتذى فى قوة البيان وفصاحة اللسان ، وشاركت المرأة الجاهلية فى جميع ضروب القول فإذا تحدثت فإنما تنثر الدر من فيها ، حكيمة – وناقدة وخطيبة وموجهة فلكت شغاف الافئدة واستولت على الوجدان والقلوب .

ولقد وصف النبي ﷺ رجالًا م أمس الناس به ، وأطولهم لزاماً له

⁽۱) ذكر صاحب كتاب المرأة العربية (مهذب) بدلا من (متعب) وكلاهما بمعنى واحد .

⁽٢) كتاب الأفاني ج ٧: ١٢١ : ١٢٢ (ساسي) .

و أماؤهم قلباً منه ، وهم ملوك القول وفرسان البيان فلم يبلغ واحدد من وصفه ما بلغته امرأة أعرابية مثل (أم معبد) .

ولئن اعتز دجال العرب بقوم منهم ، ضربوا الأمثال ونشروا مطارف المحكمة وكشفوا قناع الحقيقة فإن لنسائهم أن يعتززن بفريق منهن لايقل عن أولئك شأناً ، ومن هؤلاء أمامة بنت الحارث ، وهند بنت الحس الآيادية ، والشعثاء السكاهنة ، والزبراء ، والعجفاء بنت علقمة ، والجمانة بنت قيس ، وعصام الكندية ، وحدام بنت الريان وغيرهن من الاديبات والناثرات ، ولو تتبعنا ذكرهن وأخبادهن لصاق بهن هذا الكنيب الصئيل ، والأمل ولو تتبعنا ذكرهن وأخبادهن لصاق بهن هذا الكنيب الصئيل ، والأمل إن شاء الله أول نفرد لاديبات وخطيبات العرب وناقداتهن سفراً خاصاً مطولا لو امتدت بنا الآيام ، وصدقت الاحلام .

الفظك الاقلة

الوصـــايا

أسلوب الوصية

أسلوب الوصية في هذه الحقية كان يجنح إلى السجم تارة وإلى الاندواج تارة أخرى، وكان السجع محبباً إليهن ، وذلك للاستمانة به على النأثير في الوصية ، ولما يقتضيه المقام من تأنق في القول ، وربما كان شيوع السجع راجماً إلى مافيه من نفم متعادل ، ورنة موسيقية ، فهو أعمق أثراً في النفس، وأحلى إيقاعاً في الآذن ، والاذن أحد طريقين تنفذ فيها الموصية إلى نفوس سامعيها ، وربما لان السجع أشد مقاومة لعوامل الضياع من غيره لقربه من الشعر : فهو أسهل حفظاً ، وأكثر بالذهن لصوقاً . ومع السجع نرى تقصير الجمل الشعر : فهو أسهل حفظاً ، وأكثر بالذهن لصوقاً . ومع السجع نرى تقصير الجمل أثره في هذا ، على أرب تقصير الجمل في المواعظ والوصية شيء تستدعيه طبيعة أثره في هذا ، على أرب تقصير الجمل في المواعظ والوصية شيء تستدعيه طبيعة الموضوع حتى يتاح الموصى أن يتنفس وأن يستريح وأن يتدبر مايقول ، وحتى يتيسر للسامع أن يتابعه ويفهم عنه ؛ إذ لو جاءت الجمل مفرطة الطول يتيسر للسامع أن يتابعه ويفهم عنه ؛ إذ لو جاءت الجمل مفرطة القصر لضاق بها السامع وتخلف عنها وجهد في تتبعها ولو جاءت بالغة القصر لوقفت به فجاة دون ما يتوقع كمانما تعثر فكره وزل (١) .

كما نلاحظ الترادف أحياناً والتنوع فىالعبارات المعنى الواحد. وفى الترادف والتنويع تغيير يبعث على نشاط السامع ولذته و نلاحظ قلة تعمقهن فى استخراج

⁽١) الخطابة لأرسطو . وراجع الخطابة في صدر الإسلام ج ١ ٧٧

المعانى البعيدة ، وفى استقصاء الأفكار العويصة التى تحتاج كد خاطر ودرس علم ، وأنهن كثيراً ما يستخدمن الكنايات القريبة المنال ، وميلهن فى الوصايا إلى سوق الحسكم والامثلة الحكيمة ايكون ذلك أدعى إلى قبول الوصية والإسراع إلى تطبيقها .

* * *

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس (١) :

أى بنية ، إنك فادقت الجو الذي منه خرجت ، وخلافت العش الذي فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملسكه عليك رقيباً ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكا⁽¹⁾ ، يا بنية احملي عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه فيك على قبيح ، ولايشم منك إلا أطيب ربح ، والسكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والنعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهة ، والنعهد لوقت طعامه ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن الندبير ، ولا تفشى له شراً ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره ،

⁽۱) من ربات الفصاحة والبلاغة والرأى والعقل خطب الحارث بن عمرو ملك كندة ابنتها أم اياس بنت عوف بن محلم الشيبانى فزوجها أبوها منه فقالت أمامة لابنتها دإن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبوبها ، وشدة حاجتهما إليها كنيس أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال ، (بجمع الأمثال ٢ : ١٤٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٢٧ .

⁽٢) وشيكا : أي سريع الإجابة) .

لم تأمنى غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم اتنى من ذلك الفرح إن كان ترحاً، والا كتتاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من النقصير والثانية من التكدير، وكونى أشدما تكونين له إعظاماً، يكن أشد ما يكون لك إكراماً، وأشد ما تكونينله موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلى أنك لن تصلى إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك،، اه.

والوصية المذكودة دستور المرأة العاقلة التي تحرص على سمادة عشها ويبتها، وقد صدرت من أم مجرّبة محنكة حلبت الدهر أشطره، وحرصت كل الحرص، على أن تحقق السعادة ـ والرفاه لابنتها، وتبين لها ما يجب عليها نحو ذوجها لتدوم السعادة الزوجية، وتتحقق السكينة والطمأنينة.

وقد جاءت الوصية مسجوعة إذ هو الطابع الذى كان يسود ذلك المصر. والوصية قلائد من الذهب جاءت عفو الخاطر ودون تسكلف أو صناعة متعمدة، كما زخرت الوصية بالتشبيهات والاستعارات بما أكسب النص دوعة وجمالا، كما عمدت أم إياس إلى التنويع فى الاسلوب والخطاب فرة تجد النداء فى قولها : أى بنية ، يتبعه الخبر المؤكد فى قولها وإنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وأحيانا تجد الأمر فى قولها : دفكونى له أمة يكن لك عبداً، واحفظى له خصالا عشراً يكن لك ذخراً ، كما نجد الخبر يتبعه النهى المؤكد فى نحو قولها : دفلا تفشى له سراً ، ولا تمصى له أمراً ، كما نجد أسلوب الشرط فى نحو قولها : دفلا تفشى له سراً ، ولا تمصى له أمراً ، كما نجد أسلوب الشرط فى قولها : ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والا كتتاب إن كان فرحاً ، وهذا التنويع فى الاسلوب والخطاب له أثره فى التشويق واستثارة المواطف ولفت الاذهار ، وتنبيه المخاطب إلى ما يقال ، وما يجب أن يأخذ أو يعمل به .

وحبدًا لو حفظت فتياتنا هذه الوصية وطبقنها فى بيوتهن دون حساسية ، إذا لرأينا السعد يرفرف على بيوتهن ، فهو نص حيكم من أم أفنتها تجارب السنين أرادت أن تضمن لابنتها الحناء فى بيتها الجديد ، فوضح لها الحياة التى لم تألفها من قبل ، ثم تنتقل إلى سرد ما يتوجب على المرأة نحو زوجها فتوصيها بعشر خصال جامعة ، خلاصتها : القناعة ، والطاعة ، والاعتناء بالمظاهر اعتناء لا يخرب عن الحد المطلوب المعتدل ، والنظافة ، وحسن التدبير ، والمحافظة على السر ، ومراعاة حالة الزوج النفسية توفيراً لكرامتها واجتلاباً لهناءتها(١) .

ووصفت أعرابية كرم الآخلاق عند أمها فقالت :

ديا أمه ، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجراء ، وفى كتبان الشكر جحود لما وجب من الحق ، ودخول فى كفر النعم ، فقالت لها أمها :

أى بنية : أطبت الثناء وقمت بالجراء ولم إلدى للذم موضعاً ، إنى وجدت من عقل لم يعجل بذم ولا ثناء إلا بعد اختبار ، فقالت: يا أمه : ما مدحت حتى اختبار ، فقالت: يا أمه : ما مدحت حتى اختبار ، ولا وصفت حتى عرفت . قال الزوج : دما وفيتك حقك ، ولا شكرتك إلا بفضاك ، ولا أتيت إلا بطيب حسبك وكريم نسبك ، والله أسأل أن يمتعنى بما وهب منك ،

وهذا حديث امرأة عاقلة تعترف بفضل بعلما ، وتشيد بخلاله السكريمة ، بعد أن عجمت عوده ، وسبرت غوره ، كما يدل حديثها على الاحترام المتبادل بينها وبين زوجها ، وما أحرى فتياتنا أن يسلكن هذا السبيل ، وييممن وجوههن شطر هذا الدرب ، حتى يسعد الزوجان ، ويعيشا عيشة داضية .

⁽۱) انظر الأدب الجاهلي من تأليني بالاشتراك مع الدكتور عبد الله العشري ، مطبعة المنار ــ الرياض ١٩٧٨ .

وما أدوع نصيحة الجمانة (١) بنت قيس بن زهير لجدها الربيع:
كان قيس بن زهير العبسى قد اشترى من مكة ددعاً حسنة ، قسمى ذات
الفضول وورد بها إلى قومه فرآها همه الربيع بن زياد ، وكان سيد بنى زياد
فأخذها منه غصباً ، فقالت الجمانة بنت قيس لاببها دعنى أناظر جدى فإن صلح
الامر بينسكما ، وإلا كنت من وراء رأيك ، فأذن لها فأتت الربيع فقالت :

د إذا كان قيس أبى، فإنك يا ربيع جدى، وما يجب له من حق الأبوة على إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى، والرأى الصحيح تبعثه العناية، ويتجلى عن محضه النصيحة، إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه، وأجد مكافأته إباك سوء عرمه، والمعادض منتصر، والبادىء أظلم، وليس قيس عن يخوقف بالوعيد، ولا يردعه التهديد، فلا تركن إلى منابذته، فالحزم فى متادكته، والحرب متلفة للعباد، ذهابة بالطارف والتلاد(٢) والسلم أرخى للبال وأبق لانفس الرجال، وبحق أفول لقد صدعت بحكم، وما يدفع قولى إلا عير ذى فهم، مم أنشدت تقول :

أبى لا يرى أن أيترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى فرأى أبى رأى البخيــــل بمــاله وشيمة جــدى شيمة الخاتف الأبى

وقد لاحظنا فى أسلوب الجمانة الأديبة أنها حسّاسة فى استخدام الألفاظ فاستهلت حديثها باستعطاف جدها ، واستدرار حنانه ، فأثارت فى جدها حنان الآب الكبير الحانى على بنيه وبنانه ، وقد كانت مقدمة وصيتها براعة استهلال وصلت بها إلى أعلى سويداء قابه ، وكانت منطقية بارعة فى مناظرتها لجدها

⁽۱) الجمانة بنت قيس بن زهير العبسى، شاعرة من شواعر العرب نعنلا عن أنها خطيبة لماحة وأديبة من أديبات العربراجع بلاغات النساء لطيفور ص١٢٩. . (٢) الطارف والتلاد: الحديث والقديم.

فحذرته من الظلم وعاقبته ، وأن المعادض منتصر والْبادىء أظلم ، وتستطيع أن تفول إن مناظرتها كانت عبارة عن مقدمات وتتائج ، أفحمت بها جدها و دفعته إلى الرضوخ إلى منطق الحق والإصاخة إلى صوت العدل .

ونلاحظ أن مناصحتها ومناظرتها خلت من السجع خروجاً على القاعدة المالوقة والعادة المتبعة فى ذلك العصر ، وذلك أن الموقف موقف مناظرة ومجادلة ، والوقت ليس وقت صنعة أو ذخرفة ، وإنما يحتاج إلى إبراذ حقائق ناصعة تقنع الحصم بالبرهان والدليل .

القطالاالعالي

الوصــف

الوصف عندالعرب أكبر الفنون والأفراض التي تكلموا فيها ، وتفننوا في الإبداع في وصف كل ما يقع تحت حسهم ، ويراه ناظرهم ، وتزخر به بيئتهم ، فوصفوا من الحيوان الإبل وافتنوا في ذلك بما لم تفقهم فيه أمة في وصف نفيس لديها ، ومن أبلغ وصاف الإبل: طرفة بن العبد .

كما وصفوا الحيل فى ضروب خلقها وأحوال سيرها ومن أشهرهم فى ذلك امرة القبس وأبو دؤاد الإيادى ، ووصفوا هنسه أيضاً كواسر السبباع ، وأوابد الوحوش ، وجوادح الطيور وصوادحها ، وخشاش الادض وهوامها ، ووصفوا هر النبات ضروبه وشياته ، ومن الساء نجومها وكواكبها ، وسحائبها ، وبروقها وأنواءها وأمطادها ، ومن الارض سهلها وجبلها ، ومرابعها ومصايفها ، وخاصة الاطلال والديار والدمن ، وتعفية الرياح والامطاد لآثارها ، وشبوها أحيانا برقم الكتب وصحائف الرهبان ، وبالوشم على ظاهر اليد ، وبالثوب الحلق أو المرقم ونحو ذلك .

وصفوا أجوال الإنسان من ظمن وإقامة ، وقنال ونزال ومبارزة . كما وصفوا جماء المرأة وأخلاقها وطباعها ، والبارعات في هذا الفن : عصام الكندية وهند وجمعة بننا الخس ، ونلاحظ أن وصفهن مستمد من البيئة وتشبيها تهن مستوحاة مما يقع تحت ناظرهن ، وتدرك حواسهن فجاء وصفا طبعيا غير متكلف ، وكما يمليه الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ، ويتجلى ذلك كما سيأتى فى قول (عمام) تصف جمال أم إياس درايت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك

كأذناب الخيل المصفورة ، فالتشبيهات مأخوذة من بيئتهن وما يشاهدنه فى الصحراء من خيل ، وإبل ، وديار وأطلال ، وغناء الحمائم ، ولمع البروق ، وهبوب النسيم إلى غير ذلك ، وقد جاء وصفهن فطرياً ــ كما قدمنا ــ خالياً من المبالغة المتعمدة الني تخرجه عرب حد المألوف والمعقول ، فلم يتعمدن فى وصفهن جناساً ، ولم يتكلفن طباقاً ، ولم يقصدن إلى تورية ، وما وقع ذلك من المحسنات ، على قلنه ، فإنما كان عفواً لا تعمد فيه ، خلابعضاً من سجم المكمان (١).

كما نلاحظ أن أسلوب الوصف عند المرأة يجنح إلى التفصيل ، والتحليل الذى قد يخنى على العين العابرة ، والإسهاب فى ذكر أوصاف الموصوف كلما سنحت لهما الفرصة ، وفى هذا الميدان استطاعت المرأة أن تظهر من الإبداع فى الوصف والقدرة على تفصيل أوصاف الموصوف بما قصر عنه باع الأديب الوصاف فى بعض الأحيار . وحينها نقرأ وصف المرأة ندرك مدى دقة وصفها ؛ و بلوغها أوج البلاغة التى يعجز عن بلوغها الواصفون ؛ ويقف دون إدراكها المترسلون .

* * *

وصف عصام الكندية لأم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني :

لما بلغ الحارث بن عرو ملك كندة جمال أم إياس بنت عوف بن محائم الشيبانى وكالها وقوة عقلها ، أراد أن يتزوجها فدعا امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف ، فضت حتى انتهت إلى أمها أمامة بنت الحارث فأعلمتها ماقدمت له فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت : أى بنية ، هذه خالتك أتت إليك لتنظر بعض شأنك ، فلا تسترى عنها شيئا أرادت أن تنظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيها استنطقنك فيه . فدخلت عصام عليها فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط ، بهجة وحسناً وجمالا ، فإذا هى أكل الناس عقلا وأفصحهم لساناً . فخرجت من عندها وحسناً وجمالا ، فإذا هى أكل الناس عقلا وأفصحهم لساناً . فخرجت من عندها

⁽١) الوسيط : ٢٠

ومى تقول: « ترك الحداع من كشف القناع، فذهبت مثلاً ، ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها: « ما وراءك يا عصام؟ ، فذهبت مثلا ، قالت : « صرح الخض عن الزبد ، فذهبت مثلا ، قال : أخريني ، قالت : أخبرك حقاً وصدقاً : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك ، كأذناب الخيل المصفودة ، إن أدسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوابل(١) وحاجبين كأنهما مخطا بقلم ، أو سودا بحمم (٢) قد تقوسا على عين الظبية العبرَرة (١) التي لم يَرْعَمُ اللَّهِ مَا يُدْعَرُهُ مِنْ مُعْرِهُ السَّفِ لَاصَةُولَ، بينهما أنف كحد السيف للصقول، لم يخذِـس به قصر (٥) ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان (١) . فى بياض محسكالجمان (٧) مشقّ فيه فمكالخاتم : لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ذوات أ^رشر (^{۸)}، وأسناري تبدو كالدرر ، وديق كالخميس له نشر الروض بالسحر يتقلب نيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر وجواب حاضر ، تلتق دونه شفتان حراوانكالورد ، يجلبان ريقاكالشهد ، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة ، دكب في صدر كصدر تمثال دمية (١) ، يتصل ما عضدان متلثان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراهان ليس فيهما عظم 'يحس ، ولا عرق يُجس، ركبت فيهما كفان، دقيق قصبهما، تعقد إن شدّت منهما الأنامل وتركب الفصوص في حفر المفاصل ، وقد تربع في صدرها حقــّان ، كأنهما ر مَّا تتان ، يخرقان علمها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى كطى القباطي (١٠) المدبحة ،

⁽١) المطر الشديد الضخم العطر . (٢) الحم : الفحم .

⁽٣) العبررة : الرقيقة البشرة الناصعة البياض .

⁽٤) تقصد الرماة من الصيادين . (٥) لم يخنس : لم يتأخر .

⁽٦) الأرجوان: صبغ أحمر . (٧) الجمان: اللؤلؤ .

 ⁽A) التحزيز الذي فيها .
 (A) التحزيز الذي فيها .

⁽١٠) القباطي: ثياب كتان بيض كانت تعمل في مصر .

كسى عكناً (١) كالفراطيس المدرجة (٢) تحيط الله العُسكة السرة من السرة كسنه عكناً (١) العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهى إلى خصر لولارحة الله لا نبتر ، تحتها كفل (٤) يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص (٥) رمل لبّده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفسّاوان (١) كأنهما نضيد الجمان ، تحتهما ساقان خدلتان كالبردي (٧) وشيئاً بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان كذو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حل ما فوقهما ، فأما سوى ذلك فتركت أن أصفه غير أنه أحسن ما وصف واصف بنظم أو نثر . فأدسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها (٨) .

ف أبدع وصف عصام الكندية ، وما أرق حديثها ، وما أجمل التشبيهات الجمانية التي تتخلل القطعة ، إن القطعة كما وصفتها عصام أبلغ ما وصفه واصف بغظم أو نثر ، وقد حشدت عصام في هذه الخطبة حشداً من العبارات القوية الرنانة ، والالفاظ الضخمة والتشبيهات والاستعارات ، والتمثيل والصور ، فجاءت قطعة أدبية دائمة محكمة الصلابة والاسر .

وقد جرت كعادة عصرها فى استخدام صنعة السجع فى غير ما تكف ولا تطبع أو تصنع ، وأضفت على العروس أبهى آيات الصفات الخلشية والخلشية التى ينشدها الرجل فى المرأة ، من جبهة كالمرآة الصقيلة وشعر حالك كالليل ، وحاجب كأنما خط بقلم ، وعين كعين الظبية الرقيقة ، وأنف كحد

⁽١) المكن جمع عكنة (كفرصة) وهي ما انطوى وتثني من لهم البطن سمنا .

⁽٢) المدرجة : المطوية . (٣) المدهن : قارورة الدهن .

⁽٤) كفل: عجر. (٥) الدعص: الكثيب من الرمل الجتمع.

 ⁽٦) اللفاء: الضخمة الفخذين.
 (٧) خدلة: ضخمة ، البردى : ورق البردى .

^{. (}٨) المقد الفريد ٣ـــ٥٣٥ ، وبجمع الأمثال ٣ ــ١٤٣ ، وجمهرة الأمثال

٧ ــ ٢٧ . ، نقلا عن كتاب جمهرة خطب العرب ج ١٤٤ .

السيف الصفيل، ووجنات حمراء كالأدجوان، وفم كالخاتم، لذيذ الابتسام، وأسنان كاللؤلؤ وريق كالخر، نشره يملأ الدنيا مسكا وعطراً إلى غير ذلك من الصفات الخلقية، وقد بلغت الغاية، وأدبت على النهاية، فى وصفها خصر للرأة بالمضمور والنحول لدرجة أنه من شدة نحوله وضموره يكاد ينبتر، وما أجمل الاستعادة فى قولها: يخرقان عليها ثيابها، وقولها: تحته كفل يقعدها إذا نهضت، وينهضها إذا قعدت، ثم تتعجب فى آخر القطعة كيف تطبق قدماها اللنان كذو وينهضها إذا قعدت، ثم تتعجب فى آخر القطعة كيف تطبق قدماها اللنان كذو اللسان حمل هذا الشيء الثقيل وتسير به، وأظن أن هذه الصفات التي ساقتها عصام، ربحا تنطبق على ماكان مألوفاً ومرغوباً من المرأة فى عصرها (من غلظ الفخذين وامتلاء الذراعين والساقين، وبطن ملى على محكمناً وتثنى من غلظ الفخذين وامتلاء الذراعين والساقين، وبطن ملى كسى محكمناً وتثنى من خلط البطن سمناً).

أما في عصرنا الحالى فالمرغوب في الفتاة ، القد الرشيق الذي يشبه القباطي المدبجة والفراطيس المدرجة (كاحكت ذلك عصام) والبطن الذي تبرأ من الشحم ، وليس الذي يتثني من لحم البطن سمناً وقد وفقت عصام إلى حد ما في وصف أوصاف المرأة الجسدية والخلفية ، أما الصفات الخلقية والنفسية فأوجزتها في كلمات معدودات: لسان ذو فصاحة ، وبيان يحركه عقل وافر وجواب حاضر ، وكأنما تشير إلى قول الشاعر :

لسار الفتي نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلا صــورة اللحم والدم

وبهذا اكثملت الصورة الخلقية والخلقية التي رسمتها عصام لأم إياس (العروس) فجاء لوحة فنية رائمة تخلب العقول وتأسر القلوب، فلا غرو إذا سادع الحارث بن عمرو إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها (١).

⁽۱) فى بجمع الأمثال وجمهرة الأمثال أن الذي تزوج أم إياس هو الحارث أن عمرو والحارث هذا هوجد امرىء القيس وذكرصاحب العقد الفريد أن الذي

ومن حديث وصف المرأة أيضاً :

أن جمعة (١) وهند (٢) ابنتا الخس وامتا سوق عكاظ فاجتمعتا بين يدى القلمس الكنانى. فقال لهما: إنى سائلكا لاعم أيكا أبسط لساناً وأظهر بياناً وأحسن الصفة إتفاناً ، قالتا سلنا عما بدا لك ، فستجد عندنا عقولا ذكية وألسنة قوية وصفة جلية ، قال القلس: أى ذكور الخيل أحب إليك يا جمعة ؟

إذا الله جازى منعا بوفائه فجازاك عنى ياقلبس بالكرم

المرأة العربية ج 1 : ١٧٨ . انظر البيان والتبين ـــ نسخة خطية من ٨٨ ـــ . ٩

ے تزوجها هو عمرو بن حجر . وأمها ولدت له الحارثبن عموو جد امرى القيس غير أننا نلاحظ أنه قال في مقدمة هذا الوصف : , ثم أقبلت عصام إلى الحارث فقال لها : ما وراءك يا عصام ؟ ، فيفهم منه أن الذي تزوجها هو الحارث بن عمرو . يرجع إلى كتاب العقد الفريد ٦ / ٨٣ ، كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ،

⁽١) جمعة شاعرة من شواعر العرب وأديبة من أديبات العصر الجاهلي وكانت تتردد دائمًا على سوق عكاظ فتعرض شِعرها ونثرها على الفلس الكناني .

⁽٢) كما كافت أختها هند شاعرة وخطيبة ذات فصاحة وبلاغة وحكمة ، وراجع أعلام النساء ج ١: ٢٠٦ و ج ٢: ٢٣١ ، طبعة بيروت مؤسسة الرسالة) وقد اختلف العلماء والمؤرخون فى نسب هند وجعة ، فمن قائل إنهما أختان وإنهما ابنتا الحس الإيادى ، ومن قائل إن هندا هى إبنة الحس ، وأما جمعة فإبنة حابس ، وهما جميعاً حكيمتان يضرب بهما المثل فى جلال الحسكمة وحسن البيان وفيهما يقول الجاحظ: من أهل الدهاء ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب والسكلام الصحيح والأمثال السائرة والخارج العجيبة هند بنت الحس وهى الورقاء وجمعة بنت حابس والقلس سيد من سادات كنانة ، وحكيم من حكاتها وكاهن من كهان العرب ، ومما عرف عنه أنه كان ينسأ الشمور فيحل حرامها ويحرم حلالها وفيه تقول هند بنت الحس :

قالت أحب المنسوب جداء (١)، الأسيل خده (٣)، السريع شده (٩)، الطويل مدّ ه(٤)، الشديد هده (٩)، الجيل قده .

ثم قالت هند: هذا فرس خليق إن طلب لم يلحق ، وإن جودى لم يسبق ، وإن مودى لم يسبق ، وغيره أحب إلى منه . قال القلس . فقولى :

قالت: أحب الوثيق الخلق (٢) الكريم العرق ، الكثير السبق، الشديد الداق (٧) ، يمر من البرق .

قال القلس:

فأى إناث الخيل أحب إليك يا جمعة ؟ قالت : أحب كل حيية الفؤاد، سبوح جواد، سلسة القياد، شديدة الاعتباد، في الدفع والاشتداد، ذات هياب وثماد (^).

قال القلس كيف تسمعين ياهند ؟

قالت : هذه فرس ما حاجها خليق ألا ً يفوته أم ، ولا يهوله ذعر ، إذا شاء كر ، وإذا هاب فر ، وغيرها أحب إلى منها .

قال: فقولى: قالت: أحب الشديد أسرها (٩)، البعيد صبرها، القليل

⁽١) أى الذى ينهى نسبه إلى جواد كريم وكانت العرب تعتز بأنساب خيلها وتحفظها كما تحفظ أنساب الرجل ، راجع أنساب الخيل .

⁽٢) الأسيل خده أي أنه إطويل مسترسل.

 ⁽٣) شده : أى سريع عدوه .
 (٤) مده ، المد : بسط الجسم وارتفاعه .

⁽٥) هده : هد الفرس ضرب الأرض بحو افره .

⁽٦) السكويم العرق ، ألمحسكم التسكوين .

⁽٧) الذلق : ذلق كل شيء حدته ومضاؤه .

 ⁽A) الهياب : النشاط في الأرض ، والثماد الحفر في الأرض .

⁽٩) الاسر : قوة الجسم وإحكام الخلق .

فترها ، الجيل قدرها ، السريع مرها ، المخوف كرها .

قال القلمس: كلتاكما محسنة . فأى ذكور الخيل أبغض إليك يا جمعة؟ قالت: أبغض كل بليد ، وادم الوديد (١) ذا ركال شديد (٣) لا ينجيك هادباً ، ولا تظفر به طالباً ، ولا يسترك شاهداً ولا غائباً .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : هذا فرس إمساكه بلاء ، وعلاجه عناء ، ودكو به شفاء ، وغيره أبغض إلى منه .

قال فقولى: قالت هند: أبغض السريع البُسهر (٣)، البطىء الحصر (٤) السُّسكيت الطفر (٥). قال القلس: كلنا كما محمنة.

فأى النساء أحب إليك يا جمعة : قالت أحب الفريرة (٦) العذراء الرعبوبة العيطاء (٧) الممكورة ، اللغاء (٨)، ذات الجمال والبهاء ، والستر والحياء، البضة (٩) الرخصة كأنه فضة بيضاء .

قال القلمس : كيف تسممين يا هند ؟

قالت: وصفت جادية ، هى حاجة الفتى ، ونهية الرضا ، وغيرها أحب إلى منها ، قال نقولى: قالت أحبكل مشبعة الخلخال ، ذات شكل ودلال ، وظرف وبها. وجمال .

⁽١) الوريد: عرق في العنق . (٢) الركال: ضربك الفرس برجلك ليعدو.

⁽٣) البهر: انقطاع النفس. (٤) الحصر: الانحباس عن السير.

⁽٥) السكيت الطفر : الفرس العاشر من خيل السباق وهو آخر خيل الحلمية .

⁽٦) الغروة: الطيبة الفلب.

الرعبو بة: الفتاة البيضاء الحاوة العيطاء: طويلة العنق.

⁽٨) الممكورة : الممتلئة الساةين في بياض و لين ، واللفاء السمينة الطويلة .

⁽٩) البضة الرخصة ، المرأة الليثة الممتلئة ,

قال القلمس : كلتاكما محسنة فأى النساء أبغض إليك يا جمعة ؟

قالت أبغض كل سلفع بذية (١) جاهلة غبية حريصة دنية ، غير كريمة ولاسرية (٢) ، ولا ستيرة ولا حبية ، قال : كيف تسممين يا هند ؟ قالت : وصفت أمرأة صاحبها خليق ألا تصلح له حال ، ولا ينعم له بال ولا ينتمر له مال وغيرها أبغض إلى منها ، قال فقولى : قالت أبغض المتجرفة الشوها (٣) ، المنفوخة الكبداء (٩) المينف ص الوقصا (٥) الحيشة الزلاد (١) التي إن ولدت لم تنجب ، وإن زجرت لم تعتب ، وإن تركت طفقت تصخب .

قال القلمس : كلتا كما محسنة ، فأى الرجال أحب إليك يا جمعة ؟

قالت: الحر النجيب، السرى القريب، السمح الحسيب، الفطن الأريب، المسقع الخطيب، الشجاع المهيب.

قال القلحس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت: وصفت رجلا شجاعاً ، سيداً جواداً ينهض إلى الخير صاعداً ، ويسرك غائباً وشاهداً ، وغيره أحب إلى منه ، قال فقولى : قالت أحب الرحب النداع ، الطويل الباع ، السخي النفاع ، المنبع الدفاع، الدكام مَدَى المناع ، البطل الشجاع الذي يحل باليفاع (٨) ويهين في الحمد المتاع .

⁽١) السَّلْفَعَ من النساء: الشديدة الصخب السيئة الخلق.

⁽٢) السرية: الشريفة. (٣) المتجرفة: الصديدة الحرال -

⁽٤) المنفوخة : المتسعة البطن ، والكبداء المرأة الضخمة الوسط البطيئة المثى .

⁽ه) المنفص: المرأة البديئة القليلة الحياء، القليلة الجسم الكشيرة الحركة، والسكشيرة الاختيال والمنفص والوقصاء: القصيرة العنق.

⁽٦) الحمشة : القليلة اللحم ، الدقيقة الساق والزلاء : الخفيفة الوركين .

⁽٧) الدهمي : الكريم •

⁽٨) اليفاع : المرتفع من الأرض وإنما يجلبها حتى يرى السائرون فاره فيسرعون إلية لكرمه ونجدته .

قال: كلتاكما محسنة ، فأى الرجال أبغض إليك يا جمعة ؟ قالت: ابغض السآلة اللئيم ، البغيض الزنيم (١) الأشوه الدميم ، الظاهر العصوم (٢) الضعيف الحيزوم (٣) قال: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: ذكرت رجلا خطره صغير ، وخطبه يسير ، وعيبه كثير وأنت ببغضه جدير ، وغيره أبغض إلى منه .

قال فقولى : قالت : أبغض الضعيف النخاع (؛) ، القصير الباع ، الآحق المضياع الذى لا يكرم ولا يطاع ، فقال أحسنتها ، وأجملتها فبادك الله فيكما ، ووصلهما وحباهما(٥) .

وقد وفقت الأديبتان أيما توفيق في وصف الخيل ذكودها وإنائها ، وأحبها وأبغضها وصفاً يقصر عنه الخيال معددتين مآثر ومكادم الحيسل في غدواته وروحاته وكيف أنه في سبقه كأنه يمر من البرق في خفة ونشاط وحدة ومضاء ، كما حددا من الفرس المتبلد ، المنتفخ الوديد الذي لا يسير إلا بعد ركل شديد ، كما أنه لا يسر صاحباً ، ولا ينجى هادباً ، ولا يترك شاهداً ولا غانباً .

كما وفقت الآديبتان في وصف النساء أحبهن وأبغضهن إلى القلوب في لوحة فنية بادعة ترسم صورة ناطقة لما يجب أن اكون عليه المرأة خلقاً وخلقاً ،

⁽١) والزنيم : الشرير .

⁽٢) المصوم: بقايا الخضاب.

⁽٣) الحيزوم : الصدر أو وسطه وضعفه كناية عن الحق وضيق الأفق .

⁽٤) تريد بالضميف النخاع : الماجر الذي لا يستطيع حولا ولا طولا .

⁽ه) راجع كتاب بلاغات النساء ص ٥٨ : ٣٢ ، بغداد ١٣٦١ هـ ، وانظر المرأة العربية ج ١ ص ١٧٨ : ١٨٨ الطبعة الأولى ١٩٢١ م .

وقد قدمت انا فى باب وصف النساء طاقة مونقة فينانة فى رياض الآدب ، وجدولا فياضاً فى بحار الحركمة الهادفة فى طراز جزل متين وأسلوب خلاب رصين يمجز عن وصفه المنشئون ويقصر عن بلوغه المكتاب والمنرسلون.

* * *

وفى دواية أخرى ذكر صاحب كتاب الأمالى أن رجلا أتى هند بنت الخسر() الإبادية يستشيرها في امرأة يتزوجها ، فقالت :

انظر رمكاء جسيمة (٢) أو بيضاء وسيمة في بيت جد، أو بيت حد، أو بيت عز، قال : ما تركت من النساء شيئاً ؟ قالت بلى : « شر النساء تركت : السويداء الممراض (٢) والحيراء المحياض (٤) السكثيرة المظاظ (٥) وقيل لها أى النساء أسواً ؟ قالت : « التي تقعد بالفذاء و تملاً الإناء و تمذق (٢) ما في السقاء ، قيل : فأى النساء أفضل ؟ قالت : التي إذا مشت أغيرت (٧) وإذا نطقت صرصرت (٨) متوركة جارية في بطنها جارية تتبعها جارية ، قيل : فأى الفلمان أفضل ؟ قالت : الاسوق الاعنق (٢) الذي إن شب كأنه أحمق ، قيل فأى الفلمان أفسل ؟ (١٠) قالت : الاويقص القصير العضد (١١) العظيم الحاوية (١٢) ، الاغيبر الفشاء الذي يطبع أمه ، و بعصي عمه ، (١٢)

⁽١) انظر ترجمها السابقة ص ٧٠ .

⁽٢) الرمكاء : السمراء والرُّمكة كحمرة لون الرماد .

⁽٣) الممراض التي تمرض كثيراً . (٤) المكثيرة الحيض .

⁽٥) المظاظ ، منازعتها و مشادتها زوجها . (٦) تمذق: تمرج .

 $^{(\}vee)$ أغبرت : أثارت الغبار في مشيتها (\vee) صرصرت : أحدث صوتها (\vee)

⁽٩) الأسوق: الطويلاالساق، والأعنق الطويلالمنق. (١٠) الأفسل:الارذل.

⁽١١) الأويقص: تصفير أوقص وهو من يدنو رأسه منصدره.

⁽١٢) الحاوية : المعدة . (١٣) أنظر الأمالي ج ٢ : ٢٠٠٠ .

وقيل لها أى الرجال أحب إليك ؟ قالت : السهل النجيب ، السمع الحسيب الندب الآريب (١) السيد المهيب ، قيل لها : فهل بق من الرجال أفضل من هذا ؟ قالت بلى الآهيف الهفواف (١) الآنف العياف ، المفيد المتلاف ، الذي يخيف ولا يخاف ، قيل لها فأى الرجال أبغض إليك ؟ قالت الآوره النشوم (١) الوكل السئوم ، الضعيف الحيزوم اللئيم الملوم ، قيل لها فهل بق أحد شر من هذا ؟ قالت نعم : الآحق النزاع الضائع المضاع الذي لا يهاب ولا يطاع . قالوا : قالت نعم : الآحق البك ؟ قالت : البيضاء العطرة ، كأنها ليلة قرة . قبل : فأى النساء أبغض إليك ؟ قالت : المنفص القصيرة التي إن استنطقتها سكتت فأى النساء أبغض إليك ؟ قالت : المنفص القصيرة التي إن استنطقتها سكتت وإن سكتت عنها نطقت (١) .

وقال لهما أبوها يوماً : أى المال خير؟ قالت : النخل الراسخات في الوحدل ، المطعهات في المحل . قال وأى شيء؟ قالت د الصأن قرية لا وباء بها ، تنتجها د خالا (٢) وتحلبها علالات وتجدر الهاجد فالا (٧) ولا أدى مثلها مالات قال : فالإبل مالك تؤخرينها ؟ قالت إ هي أذ كاد الرجال ، وإدقاء الدماء ، ومهور النساء ، قال : فأى الرجال خير؟ قالت :

خـــيد الرجال المرهقون كما خير تلاع البلاد أوطؤها (١٨

⁽١) الندب : الخفيف في الحاجة والظريف والنجيب .

⁽٢) المراد به رقة الخاصرة ونحولها . (٣) الأوره: الأحق .

⁽ع) ذيل الأمالي: ١٧٠.

⁽٥) الرخال : جمع رخل كحمل وكتف وهو الآثي من أولاد الصأن .

⁽٦) علالاً يقال عالمت الناقة وهي أن تحلب أول النهار ووسطه وآخره ، والاسم علال ككتاب .

⁽٧) الجفال: الكثير من الصوف.

⁽٨) المرهق : الرجل الذي يغشاه الناس .

قال أيهم ؟ قالت: الذي يُسأل ولايسأل، ويضيف ولايضاف، ويصلح ولا يصلح، قال: فأى الرجال شر؟ قالت: د الشطيط النطيط النطيط الذي معه سُويط (٢) الذي يقول أدركوني من عبد بني فلان فإني قاتله أو قافلى، قال فأى الذساء خير ؟ قالت التي في بطنها غلام، ويجلس على وركها غلام، ويمشي وراءها غلام، قال فأى الجال خير ؟ قالت السّبنحل الرّبحل (٣) الراحلة الفحل قال: أرأيتك الجدع (٢) ، قالت: لا يضرب، ولا يدع، قال: أرأيتك الثني (١) قالت: يضرب وضرابه أني (٢) قال أدايتك السّد س (٧) قالت: ذاك الميرس (٨).

وقيل لها أى الخيل أحب إليك؟ قالت: ذو الميعة الصنيع^(٩)، السليط التسليع^(١) الآيد الضليع ^(١١) الملهب السريع. فقيدل لها أى الغيوث أحب إليك؟ قالت ذو الهيدب المنبعق ^(١٢)، الأضخم المؤتلق ^(١٣)، الصخب المنبثق ^(١٢)، وقيل لها ما مائة من المعر؟ قالت: مويل يشف الفقر من ورائه،

⁽١) الثطيط الذي لا لحية له، والنطيط كثير المكلام يأتى بالخطأ والصواب من غير معرفة.

⁽٢) سريط: تصفير سوط. (٣) السُّبَحُلُ الربحل: البعير الضخم.

⁽٤) أرأيتك: أخبرني، الجذع: البعير يكون في السنة الخامسة.

⁽ه) الثنيُّ : البعير يكون في السآدسة وألتي ثنيته · (٦) والصواب أنَّ : أي بطيء

السدس: البعير إذا كان في الثامنة.
 العرس: الأسد.

⁽٩) تقرل ماع إلفرس يميع إذا جرى، وصنعة الفرس: حسن القيام عليه والصنيع ذلك الفرس. (١٠) السليط: الشديد، والتليع: الطويل العنق.

⁽١١) الآيد: القوى ، والصليع وصف من صلعُ كفضع صلاعة ، وهى القوة وشدة الآصلاع . (١٢) الهيدب : السحاب المتدلى والمنبعق : الملي. بالمطر .

⁽١٣) المؤتلق من اثتلق البرق إذا لمع .

⁽١٤) والصخب: شدة الصوت. المنبثق: المتفجر

مال الضعيف ، وحرفة العاجز ، قيل فما مائة من الضأن ؟ قالت : د قرية لا حمى بها ، قيل : فسا مائة من الإبل ؟ قالت : بخ (١) جمال ومال ، ومنى الرجال ، قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له و لا يوجد ، قيل فما مائة من الحمير ؟ قالت عازبة الليل (٢) لا لبن فيحلب و لا صوف فيجز ، إن ربط عيرها) أهلى (٢) وإن ترك ولى ، وقيل لها : من أعظم الناس في حينك ؟ قالت : من كانت لى إليه حاجة . (سرح العيون ١٨٤)

وقالت هند: وأخبث الذكاب ذئب الفضا⁽³⁾ وأخبث الأفاعى أفعى الجدب، وأسرع الظباء ظباء الحلــّب (⁰⁾ وأشد الرجال الأعجف^(٢)، وأجمل النساء الفخمة الأسيلة ^(٧)، وأقبح النساء الجهمة القفِرة ^(٨) وآكل الدواب

⁽۱) بخ كقد أى عظم الآمر ، وبخسم تقال وحدها و تسكرر بخ بخ الأول منون مكسور ، والثانى مسكن ، ويقال فى الافراد بخ ساكنة الحاء وبخ مكسورة وبخ منونة مضمومة ، ويقال بخ بخ مسكنين وبخ بخ منونين مكسورين وبخ بخ مكسورين مشددين منونين وهى تقال عند الرضا والإعجاب بالشى.

⁽٢) يقال جمل عاذب أى لا يروح على الحمى من الفروب رهو الغيبة والذهاب وقولها (خرى المجلس أى بما تحدثه من النهيق المزعج) .

⁽٣) الإدلاء: أي أخرج قضيبه ليبول ، العير : الحمار .

⁽٤) الغضا : شجر له جمر يبق طويلا .

⁽٥) الحلب: نبت ، قال حمزة : العرب تسمى ضروبا من البهائم بضروب من المراعى تنسبها إليها فيقولون : ظبى الحلب وتيس الربلة (نبات شديد الحضرة) وشيطان الحاطة (والحاطة كسحابة . شجر شبيه بالتين وهو أحب شجر إلى الحيات).

 ⁽٦) العجف با لتحريك ذهاب السمن .

⁽٨) الجهمة مؤنث الجهم : الوجه الغليظ المجتمع السميج والقفرة : القليلة القـَـفـَـر وهو الشعر .

الرَّ غوب (١) وأطيب اللحم عوَّذ ه (٢)، وأغلظ المواطىء الحصى على الصفا، وشر المسال مالا يذكى ولا يزكشًى (٢) وخير المسال سكة مأبورة (٤) أو مهرة مأمودة (٠).

وقد جاءت الحة وهند، مسجوعة محكمة الصنعة فى السجع وهى تشبه أسلوب السكاهنات إلى حد بعيد ، ولعل هند قعمدت السجع فى هذا المقام إذ رأته ضرورياً يساعدها على تحقيق غرضها المنشود وهو إعجاب السامعين بها ، لأن السجع رنيناً موسيقياً ، ووقعاً جميلا مؤثراً فى النفس ، تجتذب موسيقاه قلوب السامعين ، وتمتلك عواطفهم وتخدر وعيهم ، وتحدثهم بما تزعم أنها عالمة به ومحيطة بمعرفته إحاطة السوار بالمعصم ، فيسمع الناس قولها ويذعنون إليه مصدقين بما يقول غير متبصرين فى نقد ما يسمعون و تقصى معانيه .

كما نلاحظ أنها تميل إلى الغموض والغرابة ، ولعلما تعمدت فى ذلك أيضاً ليذهب الناس فى كلامها مذاهب متشعبة ، وطرائق مختلفة ، وفى هذا ما يضنى على مكانتها الاجتماعية الاحترام والتقدير والإكبار والإجلال ، وهذا ما يهر المرأة ويرضى غرورها :

خـــدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء والنقد الذى يوجه إلى هند أنها ركزت على الماديات أكثر من المعنويات

⁽١) الرغوب: كل مرضعة . (٢) العوذ ما عاز باللحم من العظم .

⁽٣) ذکی کرضی نا وزاد کرکا یزکو . وذکی تذکیة : سمـن

⁽٤) المأبورة : المستصلحة من أبرت النخل إذا لقحته وأصلحته .

⁽٥) مأمورة : أى كثيرة الولد .

والرواية هنـا (في معرض حديث هند وجمعة ابنتي الحس غير الرواية التي أوردنا فيا مضي عن كتاب بلاغات النساء ، وأثبتناها إتماماً للفائدة) .

وأهتمت بالمظهر دون الجوهر لأن المرأة بطبيعتها مواهة بالزينة وبالمظهر الخلاب وتغرها الغلواهر وإن ساء المخبر فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة ، فنى وصفها المرأة مثلا ركزت على ما تتمتع به المرأة من محاسن جسدية ، وصفات أنثوية كأن تكون بيضاء أو سمراء ومن بيت مشهود له بالمجد ، وأسوأ امرأة عندها هى السويداء الممراض ، والحيراء المحياض الخ .

وكنا نتوقع أن تهتم بالمعنوبات أكثر من هذا كأن تكون المرأة المختارة عنكة واعية ، وعلى قدر كبير من الدراية والمعرفة كفاطمة بنت مر الحثه مية ، والشفاء بنت عبد الله أبن عبد شمس القرشية العدوية وغيرهما ، ولسكن يبدو أن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضى ذلك ، فلم تكن هناك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ولم تكن ثمة حاجة تستدعى أن يتعلم النساء وأن تتثقف الفتيات لأن الحركم الغالب على الناس شيوع الأمية .

ومثل هذا يقال فى وصفها للمال والجمال والخيل والذئاب والظباء ، فكلها أوصاف مستوحاة من البيئة العربية ، وهى وإنكانت بادعة إلا أنها لم تكن تبلغ دقة الوصافين الحضريين فضلاعن الأدباء الذين عاشوا معهن فى البيئة نفسها فإنهم حلقوا فى هذا الفن د وجالوا فى الوصف جولات فوصفوا الطبيعة الناطقة والطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية والمتحركة ، (١).

ويما يجرى مجرى هذا الوصف قول ماوية امرأة حاتم:

أصابتنا سنة " اقشعر"ت (٢) لها الأدض ، واغبر" أفق السياء ، وراحت الإبل حُـد با تحدا ببر" (٢) ، وضنت المراضع على أولادها فــا تبض (٤)

 ⁽١) المرأة في الشعر: ١٦٤.
 (٢) المرأة في الشعر: ١٦٤.

⁽٣) الحدب: جمع أحدب، وهو ما دخل صدره وخرج ظهره، وإنما تظهر الإبل كذلك إذا اشتد بها الجوع لا محال المراعى . والحدا بير: جمع حديار _ بكسر الحاء _ وهى الناقة الضامرة أو ال ذهب سنامها . (٤) تبض: تسيل .

بقطرة ، وحلقت السنة (١) المال ، وأيقنا بالهلاك . فوالله إنا لني ليلة صنبر (٩) بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاغي (٩) صبيتنا جوعاً ، عبد الله وعدى وسفانة . فقام حائم إلى الصبيين ، وقت أنا إلى الصبية . وأقبل يمللي بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تهو رت (٤) النجوم ، إذا شيء قد رفع كسر البيت (٥) ثم عاد . فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جادتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتعاوون عُوا الذناب ، فما وجدت معو لا إلا عليك يا أبا عدى " . فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإيام ا فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنائبها أربعة ، كأنها نمامة حولها رئالها (١) . فقام حاتم إلى فرسه فوجاً (٧) لبسته بمدية فحر " مكشطه عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة ، فقال لها : شأنك ا فاجتمعنا على المحم المشوى نأكل . ثم جعل يمشى فى الحي يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول هبنوا أيها القوم ، عليكم بالناد ، فاجتمعوا ، والتفع فى ناحية ينظر إلينا . فوالله أيها القوم ، عليكم بالناد ، فاجتمعوا ، والتفع فى ناحية ينظر إلينا . فوالله من الفرس إلاعظم وحافر . فأنشأ حائم يقول :

مهلاً أواد أقلت اللوم والعذكل ولا تقولى لشيء فات ما فعللا ولا تقولى لشيء فات ما فعللا ولا تقولى لمال كنت مهلسهل والجبلا يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى فى ماله سبيلا()

⁽١) التحليق: وجع يصيب الحلق وتلك كناية بديعة عن الفقر والمسغبة ، تقول: أن المــال من إبل وخيل ومال انقطع صوته .

⁽٢) ليلة صنبر باردة شديدة الربح . ﴿ ﴿ ﴿ ﴾ تَضَاغُوا : تَصَابِحُوا .

⁽٤) تهورت: انحدرت إلى المغرب.

⁽o) السكسر: الشقة السفلي من الحباء.

 ⁽٦) الرئال - جمع رأل - أولاد النمام . (٧) وجاً : قطع .

⁽٨) ان نافية بممنى ما والمزعة القطعة من اللحم .

⁽٩) العقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ والميداني .

وأمرأة حاتم تُصور لَنا في هذه الباقة النثرية كرم هذه العائلة الحاتمية فقد ضربت المثل الأعلى في الجود والكرم (لأن الكرم وإن اشتهر به العربي إلا أنه في دأبي كان كرماً محدوداً بدليل أنه لم يشتهر به في الجزيرة العربية كلها إلا حاتم وعائلته) .

فلقد كانت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي من أسخى النساء وأقراهن للضيف وكانت لا تمسك شيئاً تمليكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا علمها ومنموها مالها ، ومكثت دهراً لا تنال شيئاً بمـا تمليكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم الحاجة وارعوت أعطوها صرمة من إبلها فجامتها امرأة من هوازن تسألها ، فقالت لما دونك هذه الصرمة فخنيها فقد والله مسى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلا شيئاً ثم أنشدت :

لممرى إنى عضني الجرع عضة فقولا لهذا اللائمى اليوم اعفني فاذا عسيتم أن تقولوا لاختكم سوى عذلكم أوعذل من كان صانعا وماذا ترون اليوم إلا طبيعة

فآليت ألا "أمنع الدهر جائماً فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا فكيف بتركى ياابن أم الطبائما

وكانت سفانة بنت ابنها حاتم كجدتها وأبيها فى الجود، وكان أبوها يعطمها الصرمة من الإبل فتهجها كلها ؛ فقال لها أبوها ، يا بنية : • إن الغويين إذا اجتمعا في المال أثلفاء فإما أن أعطى وتمسكى، وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله لا أمسك أبداً ، فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً ، قالت : فلا نتجاور فقاسمها ماله وتباينا^(٢).

⁽١) ذيل الأمالي ٢٣ رانظر المرأة العربية والمرأة في الشعر الجاهلي ٣٦٢ .

⁽٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

و نأخذ من الابيات التي تمثل بها حاتم :

مهلا نواد أفــــلي اللوم والعذلا (الأبيات)

أن المرأة العربية كانت ضنينة بمال زوجها حريصة عليه وليس من الصواب أن يدعى الرجل أنها لامته على الكرم وأنه خالفها . ليتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم نفسه، لأن هذا التخيل منقصة له ، إذا كان الشعراء صادقين في تصويرهم للوم النساء على الجود، وربما كان هذا منهن حرصاً على مال الزوج وربما كان بخلا، وهذا لا ينني أن بعضهن كريمات وإن كن قليلا .

ولعل السر فى تفوق الرجال على النساء فى السكرم أرف الرجل أكثر اختلاطاً بالمجتمع من المرأة ، وأكثر تعادفاً بالناس منها ، وتضطره الظروف فى بعض الاحيان إلى السفر والترحال – بحكم عمله – رقد تبهره بعض أياد يقوم بها نحوه بعض الناس لتكريمه ، وهنا لا بد أن يشكر هذه الآيادى بضرب أمثلة أكثر كرماً وأريحية ، أما المرأة فهى قليلة الاحتكاك إذ هى متفرغة لبيتها الذى تود أن تدعمه بكل ما أو تيت من ثروة و ترى إنفاق شيء منها فى الكرم يهدد بيتها ويفلس ميزانيتها . كما عرفت المرأة بحسن التدبير ورعاية المال من قديم الزمان ، والرجل قد يغفل عن كل هذه الأمور أحياناً فلا يهمه إلا إرضاء إخوانه والظهور أمامهم بمظهر حاتم الطائى .

* * *

ولما فارق رسول الله عَيْظِيْنَةِ مكه مهاجراً إلى المدينة ، وخرج معه صاحبه أبو بكر ودائده عبيدالله بن أدّ يقط ، فمروا على خيمة أم معبد – وكانت امرأة بر ذة كلمة تحشي بفناء السكعبة ، ثم تستى وتطعم – فسألوها لحساً وتمراً ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك . وكان القوم مر ملين مُسننين (١)

⁽١) مسنتين : أي أصابهم القحط.

فنظر رسول الله على إلى شاة فى كسر الحيمة ، فقال : ما هذا يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، قال : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك . قال : أتأذ نين لى أن أحل بها . قالت : بأن وأى أنت نعم ، إن رأيت بها من خلب فاحلبها . فدعا رسول الله على الله ودعا بها من خلب فاحلبها . فدعا رسول الله على الله وديات ، ودعا بها أن ير بص (٢٠) لما فى شاتها . فتشاجست (١) عليه وديات واجترات ، ودعا بها أه ي بص وسق الراه هل ، فحلب فيه ثابة أيرا بص أله السلمال (١) ثم سقاها حتى رووا ، فشر بوا أصحابه حتى رووا . ثم شرب آخرهم ، وقال : ساق القوم آخرهم ، فشر بوا جميعا علمال (١) بعد نهل . ثم أداضوا (١) . ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدم جميعا علمال (١) بعد نهل . ثم أداضوا (١) . ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدم زوجها أبو معبد يسوق أعنوا حسيلا عجافاً (١) هزالا مخيم قال الم معبد ، فقال ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أبن هذا ياأم معبد ، والشاة عاذ بة حيال ، ولاحلوبة فى البيت ؟ فقالت : لاوالله ، إنه (مر بنا) دجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت قال : صفيه لى يا أم معبد . فقالت :

رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج (٩) الوجه ، حسن الخلق ، لم تعسبه

⁽١) تثاجت : سالت . (٢) يربص الرهط : يكفيهم أمدا

⁽٣) الثمال _ بكسر الثاء _ جمع ثمالة _ بضمها _ ما يعلو اللبن من الرغوة

⁽٤) إذا استقى الإنسان مرتين فالأولى النهل والثانية العلل .

⁽٥) أدامنوا أي شربوا مرة أخرى .

⁽٦) حيلا: جمع حائل وهي التي انقطعت عن الحمل، وعجاف: جمع عجفة ــ بكسر الجم ــ وهي المهزولة.

 ⁽٧) قلة المنح كناية عن الضعف والهزال .

⁽٨) النقا : جمع نقاوة ــ بضم النون ــ وهى المختار من كل شيء .

⁽٩) وجه أبلج وضاء أغر .

قال أبر معبد : هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر، ولو كنت وافقته لالتمست صبته ؛ ولأفملن إن وجدت إلى ذلك سبيلاء. والمقطوعة النثرية السابقة تعد وثيقة أدبية وتاريخية ، صورت لنا صفة

⁽١) الثجلة: ضخامة في البطن.

⁽٢) الصفلة : دقة الجسم وشدة نحوله .

⁽٣) الدعيج : شدة سو أد العين في شدة بياضها .

⁽٤) الوطف: غزارة أشفار العين وطولمها .

⁽٥) الصحل: شبيه بالبحة في الصوت وألا يكون حاداً .

⁽٦) سطع المنق طولهما في جمال .

⁽٧) أصل الحور أن تسود العين كلها ولا يكون ذلك إلا فى البقر والظباء ثم استعير لمين الإنسان إذا غلب سوادها على بياضها .

⁽٨) الآثرن : المقرون الحاجبين .

⁽٩) النور : القليل الدى لا يعبأ به من القول .

⁽۱۰) المحفود الذي يخدمه أصحابة ويعظمونه ويبادرون إلى طاعته والمحشود الذي يحف به من معه .

الرسول والمستخد الحلقية والحلقية كأننا نراه ونشاهده، كا تروى لنا حدثاً بارزاً مهما من أحداث الهجرة النبوية المباركة، وتنقل إلينا عبر الآيام والقرون حميجزة خارقة من المعجزات العظيمة الى اختص الله بها نبيه محمداً والمستخد وأيده بها ، كما تقدم لنا جانباً مضيئاً من أخلاق الرسول الكريم ومعاملته لأصحابه والناس، بدت لنا واضحة جلية . فياضربه _ في المقطوعة _ من المثلةدا ثمة وإبناد جم وكرم في العطاء، وكيف أنه والفناء وما يروى عطشهم ، ويبل وصحابته ، رغم جهدهم واحتياجهم للسقاء والفذاء وما يروى عطشهم ، ويبل أوامهم ، ويسد رمقهم — وكيف أنه لم يفكر في نفسه أولا — كما يفعل القادة الأنانيون ، بل فكر في المرأة المضيفة أولا . إذ أنها صاحبة البيت ، وصاحبة الشاة ، ثم فكر في المرأة المضيفة أولا . إذ أنها صاحبة البيت ، وصاحبة الشاة ، ثم فكر في المرأة المضيفة أولا . إذ أنها صاحبة البيت ، وصاحبة الشاة ، ثم فكر في عمابته ، وأخيراً ستى نفسه ، وساق لنا أدباً رفيعاً غوذجاً في الإيثاد وهو قوله : «ساقي القوم آخرهم شرباً ،

كما نلاحظ جانباً اجتماعياً هاماً في آخر القطعة ، فلم يرد الإناء فادغاً __ كما يفعل بعض البخلاء حينها يأكلون ويشربون ثم يتركون أو يردون الإناء خارى الوفاض __ بل ضرب مثلا أعلى فى السكرم والسهاحة ، فدعا بالإناء ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء ليغادرالمنزل وقد امتلات رحباته بالخير العميم ، والفيض السكثير ، ثم اكتملت جوانب الخسيد بمبايعته التاريخية لام معبد وإسلامها ، وهذا الجانب يبين مدى أهمية المرأة فى المجتمع ومشادكتها فى أمر حيوى سجله القرآن .

* 0 *

ووجه رسول الله عَلَيْكُمْ إلى طيء فريقاً من جنده يقدمهم على عليه السلام . ففرع عدى بن حاتم الطائى وكان من أشد الناس عداء لرسول الله عَلَيْكُمْ الله الشام ، فصبّح على القوم ، واستاق خيلهم ونعَـمَـهم ود جلم ونسام إلى الشام ، فصبّح على القوم ، واستاق خيلهم ونعَـمَـهم ود جلم ونسام إلى رسول الله . فلما عرض عليه الاسرى نهضت من بين القوم سفّانة بنت حاتم فقالت :

ياكمد ، ملك الوالد ، وغاب الوافد . فإن رأيت أن تـخلسي عني و لانشمت في أحياء المرب 1 فإن أن سيد قومه ، يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ويحمى الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكئل (١) ، ويمين على نواتب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائباً . أنا بنت حاتم الطائى . فقال الني ﷺ : ياجارية ، هذه صفات المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً الرحم: عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الاخلاق. وقال فيها: ارحموا عزيزاً ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بينجهال . وامتنَّ عليها رسول الله بقومها فأطلقهم تكريماً لها ولا بيها . فاستأذنته في الدعاء له . فأذن لها . وقال لاصحاله : اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله ببر"ك مواقعه ، ولاجعل لكإلى لثم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم ، إلا وجعلك سبباً فقالت له: يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تعشلقك حيائله ، فإنى قد دأيت هَدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصالا تعجبنى : رأيته يحب الفقير ، ويفك الاسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه . فإن يكن نبياً فسللسابق فضله ؛ وإن يكن ملـكا قلن تزال في عر الين . فقدم عدى إلى رسول الله ﷺ ؛ وأسلمت سفًّا فه (١٠) .

وكانت جرأة سفانة وشجاعتها سبباً لنجائها ونجاة قومها ، كما أن جرأتها كانت سبباً في استدراد عطف الرسول الأمر الذي ساقها وأخاها إلى نور الإسلام الوضاء ، ولو أنها جبنت ولم تنطق ببنت شفة لتمرضت للهلاك هي وقومها ولما حظيت بشرف الإسلام .

كما تبين لنا هذه المارحة الأدبية صفات العربي السكريم متجلية في شخصية حاتم الطائي، وكيف أنه يتصف بسمات كريمة يذعو إليها الإسلام كما أخبر

⁽١) السكل العائل واليتيم (٢) الأغانى ج ١٦ ص٩٥ و إنسان العيون ج ٢ ص٢٨٥

ذلك الرسول الكريم وَ الله في الله و الله الاسير ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ويحمى الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويحمل الضعيف ويعين على مصائب الدهر ، .

كما تمبر المقطوعة عن شخصية سفانة الاجتماعية وما تتمبر به من نظرات ثاقبة ، ولمحات نفاذة ، وقدرة أدبية على صوغ أسلوب الاستعطاف الذى ملك قلب الرسول ، واستولى على وجدانه .

ولا تقل هذه المقطوعة عن سابقتها فى الآهمية الآدبية التاريخية فهى تصور شجاعة المرأة العربية فى العصر الجاهلي وتقدم مثلا رائعا لجسادتها وجرأتها فهى تقتحم معضلات الآمور فى إقدام فريد ، وعزم وطيد ولا غرو فى ذلك ولا عجب فهى ابنة حاتم الطائى .

ويروى لنا الآفاني موقفاً تاديخياً يدل على شجاعة المرأة العربية ومدى قوتها وصبرها .

«كان عمرو بن هند قد أقسم ليحرقن من بنى حنظلة مائة فأحرق ثمانية وتسعين ثم أقبل وأفد من البراجم فأكل به تسعة وتسعين، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ فقالت : ما أنا بأعجمية ، ولا ولدتنى العجم ، قال فن زوجك ؟ قالت هوذة بن جرول قال أين هو ؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعرف مكانه حال بينى وبينك ، فقال أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لضرفتك عن النار ، فقالت : أما والله الذى أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض مهادك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلت إلا نساه أعاليها ثدى ، وأسافاها حلى ، قال : اقذفوها فى النار ، فالنفتت فقالت : ألا فتى يكون مكان عبوز ، فلها أبطئوا عليها قالت : د صادت الفتيان حماً فأحرقت (١) » .

⁽١) الأغاني ١٩ / ١٧٩ وراجع بحمع الأمثال ١ ــ ٢٦٠ .

ولما قتل جساس من مرة كليب بن ربيعة ، وقفت جليلة بنت مرة في المناحة وقفة تذيب الصخر ــ وكانت أخت القاتل وزوج القتيل ــ فقال نساء الحيي لآخت كليب: أخرجي جليلة عن مأتمك ، فإن في قيامها شماتة وعاراً علينًا عند العرب . فقالت لها : يا هذه ، اخرجي من مأتمنًا ، فأنت أخت والرنا، وشقيقة قاتلنا . فخرجت وهي تجر أعطانها . فلقمها أبوها ممرَّة، فقال لما : ما وراءك يا جليلة ؟فقالت : ثُنكل العدد ، وحزن الآبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل . وبين ذلك غرس الاحقاد وتفتت الاكباد. فيقال لها: أو يكف ذلك كرم الصفح ، وإغلاء الديات ؟ فقالت : أمنية مخدوع ورب السكمية : أ بالبُدن (١) تدع لك تغلب دم ربها ؟

قالوا: ولما دحلت جليلة البكرية الشيبانية قالت أخت كليب: رحلة المعتدى، وفراقالشامت ! ويل غداً لآل مرة ، من الكرَّة بعد الكرَّة ا فبلغ جليلة قولها فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وتركُّثِ ويتر ها . أسمد الله جدًّ أختى"، أفلا قالت "نفشرة الحياء، وخوف الأعداء؟ ثم أنشأت تقول :

> يا ابنــة الأقوام إن لمت فلا تعجــــلى باللوم حتى تسألى فإذا أنت تبينت الذى يوجب اللوم فلومي واعذلي إن تكن أخت امرى ليمت على شفق منها عليه فافعلى جلَّ المندي فعل جساس فيا حسرتي عما انجلي أو ينجلي أختها فانفقأت لم أحفــــل

لو بمین فیکریت عینی سوی

⁽١) البدن : جمع بدنة ــ بفتح الباء والهدال ــ الناقة أو البقرة تهدى إلى مكة ثم أطلقت على كل عظيم جسم من الإبل والبقر .

تحمل الام أذى ما تعتلى (١) سة ف بيتى جميعاً من على (١) وانثنى فى هـــدم بيتى الاول رمية المصمى به المستأصل (١) خصنى الدهر بر رز معضيل من ورائى ولظى هستقبلى من ورائى ليوم ينجلل إنما يبكى ليوم ينجلل دكركى ثادى ثكل المشكل درراً منه دى من أكل (١) واهل الله أرت برتاح لى

وحديث جليلة يصور لنا نظام المجتمع الجاهلي وماكان يسوده من عداء وصفائن وثارات، وأنهكان مجتمعاً يثور لاتفه الاسباب، و وبغضب لادنى الاسباب، ويغضب لآدنى الاشياء، كما تصور لنا قوة شخصية المرأة العربية ومدى تأثيرها في قومها ، فهي تستطيع أن تعلن الحرب بكامة واحدة، وأن تنهيها بإيماءة موحية .

فإن إشارة واحدة قذقت بها امرأة فأصابت موطن الحس من الرجال،

⁽۲۰۱) يقال اعتلت الأم أى نهضت بحملها تقول إن العين تحمل أذى أختها كما تحمل الأم راضية أذى حملها ، أما هى فما عساها تعمل وقد أصيب عيناها معاً . وروى فى هذا البيت : أذى ما تعتلى وما بين يديك أوجه وأمثل

٣) الكشب: القرب، وأصمى الرمية إذا أنفذها .

⁽٤) الأكحل: عرق في النداع إذا نزف لا يرقأ .

فهاجت لها الحرب أربعين عاماً لم يدر فيها ضرع ، ولم يكتهل بين أثنائها فتي ، وقد حدث : أن البسوس ابنة منقذ _ خالة جساس بن مرة سيد بني بكر _ نزل بها ضيف من ذوبها يدعى سعداً ، فأفسحت دارها له ، وأناخت بحظيرتها ناقته ، فما كاد يطمئن بالرجل مقامه حتى انطلقت ناقته ترعى ، وقادها حينها إلى حمى لكليب بن ربيعة صهر جساس وفتى العرب وسيد تغلب ، ولم يكن لاحد غير جساس أن برعي إبله حمى كليب، فلما بصر بها كليب غريبة بين إبله، أنفذ سهمه في ضرعها ، فانطلقت تعدو وهي تشخب دماً ولمنا حتى نزلت بفناء البسوس، فلما استبانت ما بها صاحت وأعولت واندفعت تقول:

> لممرك لو أصبحت فى دار منقذ ولكنني أصبحت في دار غربة فيأسمد لا تغرد بنفسك وادتحل

لما ضم سعد وهو جاد لابياتى متى يمد فيها الدئب يمد على شاتى فإنك في قوم عن الجاد أموات ودونك أذوادى فإنى عنهـــم لراحـلة لا يفقدورت بنياتي

وقد سمع جساس المك السكلمة الآخيرة فأصابت الوتر الحساس من قلبه ، وقال : « أَسَكُنَّى أَيْتِهَا المرأة فليقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك ، وما ذال يتوقع غرة من كليب حتى أنيء بانفراده فاعتقل رمحه وخرج للقائه ، فلما أبصره طعنه ودق صلبه وأبي عليه المساء أن يباخه ، ومن أجل ذلك قامت حرب البسوس وفيها استمرالقتل أدبعين عاماً حتى كاد يلحقهما الدثور في أثرها وما عصفت بها إلا حكمة واحدة كانت خليقاً بها أن تذهب لحينها لولا أرب نسجتها امرأة وحاكتها على امرأة ، كما يتبين منها الظلم الصارخ الذي يوقعه المجتمع الجاهلي على امرأة مثل جليلة البكرية ، فما ذنبها ، وماذا جنته حتى ينبذها المجتمع الجاهلي ويناصبها العداء؟ إن مثل هذه المرأة كانت جدرة بالإشفاق والرعابة بدلاً من الزراية والاحتقار، والكنه المجتمع الجاهلي . ولما صدع سحد بن أبي وقاص جيش الفرس بالقادسية ، أتنه حرقة بنت النعان بن المنذر في حفدة من قومها وجواريها وهن في زيها ، علمهن المسوح والمفطعات السود مترهبات - تطلب صلة . فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد . فقال : أيكن حرقة ؟ قالت : هأنذا . قال : أنت حرقة ؟ قالت : بنعم ، فما تكرادك في استفهامي ؟ ثم قالت : إن قال : أنت حرقة ؟ قالت : بنعم ، فما تكرادك في استفهامي ؟ ثم قالت : إن الدنيا داد زوال لا تدوم على أهلها انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا ؛ كنا ملوك هذا المصر ، يجي لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى الإمرة ، وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر فشق ورمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر فشق عصانا ، وشت شملنا . وكذلك الدهر يا سعد ، إنه ليس يأتي قوماً بمسرة ، إلا ويعقبهم بحسرة ، ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والآمر أمرنا إذا نحن فيهم سموقة نتنصّف فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا وتصرف

وحدثوا أن عمرو بن معديكرب – وكان من قصاد النعبان وزواره – دخل عليها وهي بين يدى سعد . فلما نظر إليها قال : أنت حُسر قة ؟ قالت : نعم . قال : فما دهمك ، فذهب بجودات شيمك ؟ أين تتابع نعمك ، وسطوات نقمك ؟ فقالت : يا عمرو ، إن للدهر عَثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد منعة ، وتذلهم بعد عز . إن هذا الأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم نشكره قالوا : فاما انصرفت من لدن سعد لقيها نساء

القادسية ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهى ، و إنما يكرم الكريم الكريم (١) .

وحرقة فى درتها الأدبية الحسكيمة بدت حكيمة لامعة من حكيمات العرب اللائى حلبن الدهر أشطره، فألقت علينا أمثلة رائعة من الحسكة لا يقدد على حسن صوغها إلا البليغ ، يتجلى ذلك فى عبارات رائقة ، وأسلوب سهل كقولها : الزمان لايأتى بمسرة إلا ويعقبها بحسرة ، إن للدهر لعثرات ، تعشر بالملوك .

وقد جاءت هذه الحــكم صدى لصفاء فطرتها ، وكثرة تجاربها ، وقدرتها على استخلاص العبرة ، كما تدلنا على وافر عقلها ، وتوقد ذكائها ، وثاقب فــكرها .

ونلاحظ أن حرقة تبدو وكأنها فيلسوفة أخلافية فى حكمها ، فقد مرجت الحسكمة بالفلسفة ، وربطت بينها وبين الروح والأخلاق بما يعطى لحسكمها قيمة فلسفية ، وقيمة دوحية وخلقية ، كما تعطى محاورتها مع عمرو قيمة تاريخية ، وقيمة اجتماعية فضلا عن القيم الأدبية والبيانية التي انتثرت بين غضون كلماتها .

* * *

ولما قتل الحارث بن ظالم المرسى خالد بن جعفر العامرى ، لحق بحاجب بن ذرارة التميمي يعتصم به من بني عامر ، فاتبعه رجال منهم ، حى إذاكانوا ببعض الطريق ، عثروا بامرأة تميمية تجنى السكماة ، فتعرفوا منها أمر الحارث ، ومكانه من حاجب ، ثم احتجزوها عندهم . فترقبت حتى أنست غرقة من القوم فأفلت . وانطلقت تعدو إلى حاجب . فأخذت تحدثه حديث القوم . فقال لها : أخبريني أي و و يدبرون بأعجاز أي و و و الظباء ، و يدبرون بأعجاز النساء . قال : أولتك بنو عامر . قال : فدثيني من في القوم ؟ قالت : رأيتهم النساء . قال : أولتك بنو عامر . قال : فدثيني من في القوم ؟ قالت : رأيتهم

⁽١) خزانة الأدب ج٣ ص١٨١ --١٨٢

يغدون على شيخ كبير لا ينظر بمآ قيه حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال ؛ ذلك الأحوص بن جعفر . قالت ؛ ورأيت شاباً شديد الحلق ، كأن شعر ساعديه حلق الدّرع يعذم أ(١) القوم بلسانه عدم الفرس العضوض . قال : ذلك عتبة بن بشير بن خالد ، قالت : ورأيت كهلا إذا أقبل ومعه فتيان يشرف القوم إليه ، فإذا نطق أنصتوا . قال : ذلك عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه ذكر عة ويزيد . قالت : ورأيت شاباً طويلاحسناً إذا تمكم بكلمة أنصتوا لها . ثم يؤلون (٢) إليه كما تؤل الشّول كا قالت وقال (١) إلى فحلها . قال : ذلك عامر بن مالك . قالوا : وجاء القوم ف كانوا كما قالت وقال (١) .

ومن حديث المرأة التيمية التي وصفت قومها يتبين انها مدى حذق العرب في الوصف ، ومهادتهم في معرفة الرجل من وصفه ، فكانوا يستدلون بهيئة الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، كما كانوا يعرفون رجال القبيلة ونساءها من وصفهم ، وقد نبغ في ذلك من العرب من لا يحضي عدده ، ولهم في ذلك نوادر شي منها ما يقال من أرب أولاد نزار ذهبوا إلى الأفعى الجرهمي ليحكم بينهم في ميراث أبهم ، وبينها هم في الطريق إذ دأى مضر كلا قد دعى ، فقال : إن البعير الذي رعى هذا أعور ، فقال ربيعة : هو أزور ، وقال إباد هو أبتر ، وقال أنمار هو شرود ، وبعد قليل لقيهم رجل ينشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا ، فتعلق بهم وذهبوا إلى الأفعى الجرهمي بنشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا ، فتعلق بهم وذهبوا إلى الأفعى الجرهمي فقال : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً دون آخر فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة رأيت إحدى يديه ثابتة الآثر والآخرى فاسدته فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة رأيت إحدى يديه ثابتة الآثر والآخرى فاسدته

⁽١) العذم : عض الفرش وهي استعارته لحدة اللسان .

 ⁽٢) أل ف مشيه: أسرع.

⁽٣) الشول : جمع شائلة ، وهي ما أتي عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر .

⁽٤) الأغاني ١٠ / ١٨

فعرفت أنه أزور ، وقال إباد رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ، وقال أنماد رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوزه إلى غيره فعرفت أنه شرود ، فقال الجرهمى لصاحب البعير أطلبه من غيرهم ، ثم قال لهم أنحتاجون إلى وأنتم كما أرى؟! وهكذا فالقطعة أثر أدبى عظيم يدل على قوة الخيال والحافظة والذكاء عند العرب فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب ، والاعمى والبصير والاحق والكيس (۱) .

* * *

وحداً ابو بكر بن دريد قال (٢) : كان قبيل من أقيال حمير مُسنع الولد دهراً ، ثم ولدت له بنت . فبنى لها قصراً منيعاً بعيداً عن الناس . ووكل بها نساء من بنات الآقيسال يخدُمنها ويؤدبها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت احسن منشأ وأتمه فى عقلها وكالها . فلما مات أبوها ملسّكها أهل بخلاقها (٢) . فاصطنعت النسوة اللاتى ربّينها وأحسنت إليهن . وكانت تشاورهن ، ولاتقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوماً : يا بنت السكرام ، لو تزوّجت اتم لك الملك افقالت : وما الزوج ؟ فأخذت كل واحدة تصف العذب الهن من صفات زوجها . فقالت ؛ أمهلنني أفظر فيها قلمن . فاحتجبت عنهن سبعاً ، ثم دعتهن ، فقالت : قد نظرت فيها قلمن فوجدتني ألملسّكة رقسى ، وأ بشه باطلى وحتى . فقالت : قد نظرت فيها قلمن فوجدتني ألملسّكة رقسى ، وأ بشه باطلى وحتى . فإن كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغديتي ، وإن كان غير فإن كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغديتي ، وإن كان غير خلك فقد طالت شقوتى . على أنه لا ينبغي إلا أن يكون كفؤاً كريماً ، يسود غشيرته ، ويررب (٤) فصيلته ، لا أتقنع به عاراً في حياتى ، ولا أرفع به شناراً عشيرته ، ويررب (٤) فصيلته ، لا أتقنع به عاراً في حياتى ، ولا أرفع به شناراً

⁽١) الوسيط ص ٤١ (٢) القيل : الملك من ملوك حمير ,

⁽٣) المخلاف : الكورة أو الإقليم وهو لليمن خاصة .

⁽٤) يرب فصيلته يحفظها ويرعاها ويربيها .

لقومى بعد وفانى. فعلميكنه فابغِينه ، وتفرقن في الاحياء ، فأيتكن أتنني بما أحب فلما أجزل الحباء ، وعلى لما الوفاء . فخرجن فيما وجهتهن له ـــ وكنِّ بنات مقاول ذوات عُقل ورأى - لجاءتها إحدامن ـ وهي عمـُـرَّطة بنت ذُرعة أبن ذي تخنفر - فقالت : قد أصبت البغية . فقالت : صفيه ، ولا تسمُّسيه ، فقالت : غيث في الحِدُل (١) ، يُمال في الْأَنْ ل (٢) ، مفيد مبيد . يصلح الناثر ، وينعش العائر ، ويغمر الندئ ، ويقتاد الآبي ، عر ضه وافر ، وحستيمه باهر ، غضُّ الشياب ؛ طاهر الأثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت : سبرة من عوال بن شداد بن الهمال . ثم خلت بالثانية . فقالت : أصبت من بغيتك شيئاً؟ قالت: أدم . قالت: صفيه ؛ ولا نسميه . قالت : ممصامِص ٣٠٠ النسب ، كريم الحسب ، كامل الآدب ، غزير العطايا ، مأنوف السجايا ، مُمقتبلُ الشباب ، خصيب الجناب . أمره ماض ، وعشيره داض . قالت : ومن هو ؟ قالت يعلى ن هُر "ال بن ذي جد أن . ثم خلت مالثالثة فقالت : ما عندك ؟ قالت : وجدته كثير الفوائد، عظيم المرافد (؛) يعطى قبل السؤال، وينيل قبل أرب يستنال . فىالعشيرةمعظيم ، وفىالندى مكرم، جمُّ الفواضل، كثيرالنوافل(٥٠٠. بذ ال أموال ، محقق آمال ، كربم أعمام وأخوال . قالت : ومن هو ؟ قالت : رَ وَ احـة بن مُحمير بن مضحى بن ذى ُعلاهِلة . فاختارت إعـلى بن كَارَّال

⁽١) المحل : الجدب والقحط.

⁽٢) الثمال: الغيباث، والآزل: الضيق والشدة.

⁽٣) المصامص الخالص من كل شيء وهو مصامص في قومه إذا كان زاكى الحسب خالصاً فهم .

⁽٤) المرافد : جمع مرفد ــ بفتح الميم وضمها ــ المعرفة .

⁽ه) النوافل ـ جمع نافلة ـ ما زيد على العطاء .

فُتْرُوجته ، فَأَحَتَجَبَتَ عَن نَسَامُهَا شَهِراً . ثَمْ بَرْتَ لَهُن فَأَجَرَلَتَ لَهُن الحَيَاءُ . وأعظمت لين العطاء (١) . .

* * *

وفى كلام النسوة الذى دواه أبو بكر بن دديد نرى صورة فنية من الصفات التى ترغبها المرأة العربية فى الزوج وهو أن يكون سيداً فى قومه ذا حسب ونسب، جواداً كريماً مكتمل الفتوة، حسن السيرة إلى غير ذلك من السجايا والطبائع التى تعتز بها القبيلة وتفتخر بها. فهى لوحة فنية تظهر فها آمال الزوجة وأحلامها فى الزوج:

١ - فالزوج الشاب أثير مستحب لآنه أدنى إلى الزوجة سناً وأشبه بها خلقاً وميلا.

٢ - وأن يكون الزوج حسن السيرة حدبا على الزوجة رقيقاً ، وأن الزوجة لترجو أرب يكون زوجها مرحاً لتجد الانس في قربه والراحة في عشرته .

٣ – وأن يكون الزوج متحلياً بالفضائل من كرم وشجاعة وأنفة فهى تؤثره مسهاحاً حتى تحقق آمالها وتعيش فىحياة ناعمة، وتريده شجاعاً ليكفل لها الشهرة والسيادة والامان والطمأنينة (٢).

وبهذه الباقة السابقة ينتهى حديث الوصف النسائى وإذا أردنا أن نتكلم في الوصف ونستطرد في الحديث عنه لضاق بنا هذا الكثاب ، فالوصف غرض واسع النواحى بعيد ما بين الأطراف ، وقلما يلم الناثر أو الشاعر بأطرافها جميماً فضلا عن الإجادة فيها ، ولكل من الأدباء الوصافين فن

⁽۱) آمالي القالي ج ۱ ص ۸۰ - ۸۲ .

⁽٢) د . الحوفي : ١٧١ .

أو فنون من الوصف الستائر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ، وذلك بحسب البيئة التي تفلب فيها ، والظروف التي اكتنفته واتصلت بإحساسه ، وتفاهلت آثادها في مجرى حياته ، فكان يمتثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ، ويفيض لتذكرها شعوده فلا ينتظر من الأديب أو الشاعر إلا أربي يجيد في الناحية التي هيأته لها نفسه ، فجلتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ، ومصدر إحساسه ومثار آماله وآلامه (1).

(١) الوصف في شعر المتنبي ـــ المتولى قاسم ١٩٣٩

الفيظنكالتالك

أدب الكواهن

وكان السكاهنات فى أدبهن بملن إلى استخدام السجع ، والتكلف فى صوغ عباداته ، وكثيراً ما يمترج أدبهن بالمثل والحسكمة مع عدم تعمقهن فى استخراج الممانى البعيدة ، واستقصاء الأفسكاد الدقيقة التى تحتاج إلى كد خاطر أو درس علم ، ونظراً لأن أدب السكمانة من الأدب الحاص ، فسكان التأنيق مقصوداً فى انتقاء الألفاظ المناسبة الوزن ، المتشابهة فى النغم والجسر س ، وإن كن فى بعض الاحيان يعمدن فى تأدية المعنى إلى ألفاظ تطابقه ، حسباً يتفق ، وكما يكون . مع قصر فى الجل ، أو توسيط فيها ، كما نلاحظ أنهن يستخدمن الكذاية القريبة المنال (كطابع النثر الادبى فى هذه الحقبة) .

ولأن أدب الكهانة من الأدب الخاص كما أسلفنا ، فسكانت لغة الكهانة تنبثق من شعور بالتفوق والأفضلية والسمو الروحى على من يستصبحون بهديها ، فهى فى نظر أصحابها ونظر من يدينون بها لغة "خاصة " محتارة ، لها سند من قرة علوية "ملهمة ، تتخذ منها أداة لفض أختام الغيوب ، وهتك أستارها ، ومن ثم كان لا بد أن تستدين بما تستدين به (كدية الزاد) من التأثير فى النفوس الضعيفة المستسلمة ، لتشكل تفكيرها ، وتخد تعقلها ، وتلهيها عن تبيين التدليس والتلبيس ؛ وتسوقها إلى الإذعان والقبول ؛ مستغلة تشوقها إلى معرفة أسرار الغد ، ومطالعة صحف المجهول ، لذلك تراها تعتمد على المواربة والرمن والإبهام والاسستغلاق مرة ، وعلى الفسم والطنين على المواربة والرمن والإبهام والاستغلاق مرة ، وعلى الفسم والطنين

والجلجلة والتهويل والإغراب أخرى، حتى تنحقق الغاية المقصودة منها (١).

والذي يبدو أن أكثر ماجاءنا عنهم مخترع مصنوع ، ولكن مجيئه على هذه الصورة بعينها ؛ دليل على أنهم هكذا كانوا ينطقون ، وهكذا كانوا يخطبون ، وإلا لما انفقت دوايات الرواة ، ومن قد نحلوهم بعض الأقوال والخطب ، على أمهم كانوا يسجعون هذا السجع ، وإذا صح أن هذا السجع مصنوع ، فهو لا ينفى أن الأصل مصنوع أيضاً ، لأن من أراد محاكاة شيء أفرغ جهده وحذقه في مجيئه على شاكلته ،

وحسبك دليلا على ماكان للـكمان من سجع عرفوا به ما جا. فى الآثر : أن النبى عَلَيْكَالِيَّةِ قضى بدية فى جنين ، فقال أحدهم : يا رسول الله كيف أندي من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل .

فأنكر عليه الرسول وَلَيْكِيْنَةِ هذا الاسلوب ، قائلا : « أُسَـّجُهُما كسجم الجاهلية ، وفي رواية أخرى « أسجماً كسجم الكمان ، فجعل السجم مختصاً بالكمان بمقتضى الإضافة ، كما يقول ان خلدون .

ومعنى هذا أنه كان للكمان سجع ، وأن صورة هذا السجع كانت معروفة في صدر الإسلام^(۲).

وإنما بغض هـذا السجع ـ فوق التكلّف والتعسّف ـ أن الـكمان الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يَدّعون السكمانه، وأن مع كل واحد منهم ريئسي من الجن ، كانو يتسكمنون ويحكمون بالاسجاع.

⁽٢) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ ص ٧٩.

ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قرطبة ، والأقرع بن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، وربيعة بن حذار كانوا يحمكون وينفرون بالأسجاع فوق النهى .

والاستكراه فى ذلك لقرب عهد العرب بالجاهلية ولبقيتها فيهم، وفى صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم.

وقد كان الحطباء تنسكام عند الخلفاء الراشدين ، فتسكون فى تلك الخطب الجاع كثيرة ، فلم ينهدو المنهم أحداً .

* * *

ومن الأديبات الكواهن: الشعثاء، وطريفة الخير التي تكهنت بسيل العكرم، وخراب سد مأرب، والزبراء، وكاهنة ذى الخككصة التي تكهنت علمة في بطن رقية بنت مجشم، وسلمي الهمدانية، والعجفاء بنت علقمة والعُفَديداء.

وإليك أمثلة من أدبهن :

خطب الكواهن

والسكاهنات الخطيبات كما أسلفنا يتناولن فى حديثهن موضوعات عديدة ، وكلما مستوحاة من البيئة الجاهلية ومستقاة من جوها .

فنى حمديث الشعثاء السكاهنه يتبين فيها شخصية المرأة العربية واضحة كل الوضوح ، وأن لها ذاتينها المحترمة ورأيها المقدد ، فسكان يؤخذ رأيها فى الزواج ، ولا ترغم على اختياد شخص معين مهما كانت الظروف .

كما تدل على أن هناك فى الجاهليات نساء محنكات مجربات يرجع إليهن فى معضلات الأمور (كعثمة بنت مطرود البجلية فقد كانت ذات عقل ورأى مستمع) وكيف أن مخالفة هؤلاء النسوة المجربات الناصحات يورث الحيرة ويعقب الندامة ، وقد تجلى لنا ذلك الآمر جلياً فى مخالفة خود أختها عثمة وضربها بنصائحها عرض الحائط بما هرضها إلى فشلها فى حياتها الزوجية ، وأخذها أسيرة ذليلة ، وقد اعترفت خود بذنبها وبكت بكاء مرأ وأنشجت نشيجاً محزناً ، فلما سئلت عن ذلك قالت : إنما أبكى على عصيانى أختى وتركى قولها : وترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل ، فقد اهتمت خود بلظهر البراق ، والمنظر الزائف ، ولم تنظر إلى شرف الجوهر ، وطهر الممدن فدكان مصيرها كما قال الشاعر :

ترى الرجيل النحيف فتزدريه وفى أثوابه أسيد هصور ويحجبيك الطير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير وقد رجعت فى آخر الأمر إلى منطق العقل فاختادت أبا نواس مع سوء

خلقته ، لأنها نظرت حيثة إلى المخبر وضربت صفحاً عن المظهر وقبلت الرجل الذي يحميها ويدافع عن قبيلتها ، وهذه هي الروح التيكانت تسود تطلعات المرأة العربية الرجل القوى الذي يذود عن المسيرة وسحمي القبيلة .

ونراها فى نشدانها هذا صادقة فى وصفها تجيب نداء العقل وتتريث فى الاستجابه لنداء العاطفة .

* * *

وكانت عثمة بنت عطرود البجاية ذات عقبل ورأى تمستمع في قومها ، وكانت لهما أخت يقال لها : خود ، وكانت ذات جمال و ميسم (۱) وعقبل ، فعطب سبعة إخوة غلمة من بطن الآزاد خودا إلى أبيها ، فأنوه وعليهم الحلل اليانية ، وتحتهم النجازب الفكره (۲) ، فقالوا : نحر بنو مالك بن مخفيسلة : ذى النسخيين ، فقال لهم : انزلوا على الما ، فنزلوا ليلتهم ، ثم أصبحوا غادين في الحلل والهيئة ، ومعهم ربيبة (۱) لهم يقال لها الشسمة ا : الكاهنة (۱) فرقوا في الحل وحرب أبوها ، فجلسوا إليه ، فرقوا أبوها ، فغالوا : بلغنا أن لك بننا ، ونحن كما ترى شباب ، وكانا بمنع فرحب مهم ، فغالوا : بلغنا أن لك بننا ، ونحن كما ترى شباب ، وكانا بمنع الجانب ، ويمنح الراغب ، فقال أبوها : كلم خياد ، فأفيموا نرى رأينا ، الجانب ، ويمنح الراغب ، فقال أبوها : كلم خياد ، فأفيموا نرى رأينا ، شم دخل على ابنته ، فقال : ما ترين ، فقد أناكي هؤلاء القوم ؟ فغالت :

⁽١) الميسم والوسامة: أثر الحسن .

⁽٢) النجائب: جمع نجيب، وهو اليمير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين، والفره: (كقفل وركع وكتب) جمع فارة ، وهو من الدواب الجيد السير النشيط الحفيف .

⁽٣) الربيبة : الحاضنة .

⁽٤) الوصيد : الفناء (بالكسر) والعتبة .

د أنكرحنى على قدرى ، ولا تشطط فى مهرى ، فإن تخطرتنى أحلامهم ، لا تخطئنى أجسامهم ، لعلى أصيب ولدا ، وأكثر عددا ، فحرج أبوها ، فقال : أخبرونى عن أفضلكم .

قالت دبيبتهم الشعثاء الـكاهنة: « اسمع أخبرك عنهم : هم إخوة ، وكلهم أسوة (١١) .

أما الكبير فمالك من تجرىء فاتك ، "يتعب السَّسَنا بِك (٢) ، ويستصفر المهالك . وأما الذي يَليه فالغمشر ، بحر من غير (٣) ، يُقصر دونه الفخر ، بحر في صقر .

وأما الذي يليه فعلقمة ، صليبُ المديجمة (°) ، مَنيع المشتمة (٦) ، قليل الجشجمة (٧) .

وأما الذى يليه فعارِم ، سيُّد أعم (^) ، جلد صارم ، أبي حازم ، جيشُه غانِم ، وجارُه سالم .

وأما الذي يليه فنواب ، سَريعُ الجواب ، عتيد الصواب(١) ، كريم

⁽١) الأسوة : القدرة .

⁽٢) السنابك: جمع سنبك كةنفذ، وهو طرف الحافر، أى أنه يجهد الخيل في حومة الوغي.

⁽٣) الغمر : معظم البحر ، والـكريم : الواسع الخلق .

⁽٤) النهد: الأسد، والكريم.

⁽هُ) من عجم العود إذا عضه أيعرف صلابته من خوره.

⁽٣) المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه فى حرز من أن يشتم ويسب عرضه ، لحسن فعله وكرم خلقه . (٧) الجمجمة : إخفاء الشيء في الصدر .

⁽٨) نعم كسمع ونصر وضرب فهو ناعم: أى ذو تنعم وترفه.

⁽٩) العتيد: الحاضر المهيأ.

النصاب(١) ، كلينت الغاب .

وأما الذى يليه ، فدارك ، بذول ُ لِما يملك ، عَزوبُ (٢) عما يترك ، ^ريفنى و ميهاك .

و أما الذي يليه ، فجندل ، اقر نه مجدّل (۳) ، مقل (۶) لما يحمّل ، يعطى ويبذل ، وعن عدوه لا يَنكُل (۰) .

فشاورت اختها فيهم ، فقالت أختها عثمة : « ترى الفتيان كالفخل ، وما يدريك بالدخل ، اسمعى منى كلمة : إن شرّ الفريبة يعلن ، وخيرها 'يدفن ، السكحى فى قومك ، ولا تغر'د ك الاجسام ، فلم تقبل منها ، وبعثت إلى أبيها : أنكحنى مدركا ، فأنكحها أبوها على مائة ناقة و رُعاتها ، وحملها مدرك ، فلم تلبث عنده إلا قليلا ، حتى صبّحهم فوارس من بنى مالك بن كنانة ، فاقتتلوا ساعة ، ثم إن زوجها وإخوته و بنى عامر انكشفوا ، فسبّوها فيمن سبّوا ، فبينها هى تسير ، بكت ، فقالوا : ما يبكيك ، أعلى فراق دوجك ؟ قالت : قبتح الله جمالا " لا نفع معه ، أبكى على عصيانى أختى ، وقولها :

ترى الفتيان كالنخل وما يدريك بالدخــل

وأخبرتهم كيف خطبوها ، فقال لها رجل منهم يكنى أبا نواس ، شاب أسود أفو وهم المنطرب الحلق : أثر ضين بي ، على أن أمنعك من ذئاب العرب؟

⁽١) النصاب: الأصل . (Y) بعيد -

⁽٣) جدله: صرعه على الجدالة (كسحابة) وهي الأرض.

 ⁽٤) حامل . (٥) نسكل عنه كضرب و نصر وعلم : نسكس وجن .

⁽٦) الأفوه: وصف من الفوه بالتحريك ، وهو سعة الفم .

فقالت لأصحابه: أكذلك هو؟ قالوا: نعم، إنه مع ما ترَين ليمنَـع الحليلة(٢)، وتتـقيه القبيلة، قالت: هذا أجمل جمال، وأكمل كمال، قد رضيت به، فزوجوها منه.

(بحم الأمثال الميداني ١ : ١٩)

* * *

قال عبد الملك بن عبد الله بن بدرون فى شرح قصيدة الوزير عبد الجيد ابن عبدون ، التي قالها فى رثاء دولة بنى الافطس بالاندلس :

كان أول من خرج من البين في أول تمزيقهم ، عمرو بن عامر : مُن يقياء (٢) ، وكان سبب خروجه ، أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال الها وطريفة الخير ، وكانت رأت في منامها أرب سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، شم صعقت ، فأحرقت كل ما وقمت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعاً شديداً ، وهي تقول :

د ما رأيت اليوم ، أزال عنى النوم ، رأيت غيما رَعدَ وَ برَق (٣) طويلا ، ثم صَمق ، فما وقع على شيء إلا احترق ، .

فلما رأى ما داخلها من الفزع سكــّنها ، ثم إن عمراً دخل حديقة له ، ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فحرجت إليــه وخرج معها

⁽١) الزوجة .

⁽٢) لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ، ويمزقها بالعشى ، يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره .

⁽٣) رعدت السياء و برقت (كنصر) ، وأرعدت السياء وأبرقت ، وأنكر الأصمى ...

وصيف (١) لها اسمه سنان ، فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجيد منتصبات على أدجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن – وهى دواب تشبه البرابيع (٣) – فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرنى ، فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها عرو ، وثبت من الماء سلحفاة . فوقعت فى عارضها خليج الحديقة التى فيها عرو ، وثبت من الماء سلحفاة . فوقعت فى الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها ، فتحثو التراب على بطنها من بجنباته ، وتقذف بالبول قذفا ، فلما دأتها طريفة خلست إلى الادض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عرو وذلك حين انتصف النهاد ، في ساعة شديدة الحر ، فإذا الشجر يتكفها من غير ديح ، فلما رآها عرو استحيا منها ، وأمر الجاديتين بالتنحى ، يتكفها من غير ديح ، فلما رآها عرو استحيا منها ، وأمر الجاديتين بالتنحى ، ثم قال لها : يا طريفة ، فكهنت وقالت : « والنور والظلماء ، والادض والسهاء ، إن الشجر لها إلك ، وليعود ن الماء كما كان في الزمان السالك » .

قال عمرو: ومن خبَّدرك ِ بهذا؟ قالت: د أخبر تنى المناجد، بسنين شدائد، يقطع فيها الولد الوالد، .

قال: ما تقولين؟ قالت: وأقول قول النـَّـدُمانِ لهِمَا ، لقد رأيت سُلحهَا (٣) أُ، تَجِرُف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر من غير ديح يتكفأ ، .

⁽١) وصيف: أي خادم .

⁽٢) اليربوع : دويبة نحو الفارة لسكن ذنبه وأذناه أطول منها ، ورجلاه أطول من يديه عكس إلورافة .

⁽٣) يقال : سلحفاة وسلحفاء وسلحفا ، ويقال أيضاً سلحفا ساكنة اللام مفتوحة الحاء .

قال عمرو: وما ترَين ؟ قالت : «داهية دَهشياء ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة ، .

قال: وما هو؟ ويلك إقالت: وأجل ، إن فيه الويل ، وما لك فيه من قيل الرا) ، وإن الويل فيها يحى وبه السيل ، فألق عمر و نفسه عن فراشه ، وقال : ماهذا يا طريفة ؟ قالت : وهو تخطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ، قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت و إذهب إلى السد ، فإذا رأيت مجر ذا يكثر بيديه في السد الحفر ، ويقلس برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمر الغمر (") وأن قد وقع الأمر ، قال : وما هذا الذي تذكرين ؟ قالت : وعا من الغمر النه نول ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكس ، فبغيرك يا عمر و فليكن الثكل ، (")

فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون دجلا ، (كذا) فرجع إلى طريقة فأخبرها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمرأ عادني منه ألم وهاج لى من هوله بُرحُ السقم (١) من مجرد كفح ل خنزير الاجم أوكبش يصرم من أفاديق الفنم (٥)

⁽١) قال قيلا ؛ نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .

⁽٢) الغمر: الماء الكثير.

⁽٣) الشكل : كسبب وقفل الموت والهلاك . (٤) البرح : الشدة .

⁽ه) الآجم: جمع أجمة، وهى الشجر الكثير الملتف، والصرم: الجماعة والفرقة تجمع على فرق، وجمع الجمع أفاريق، وجمع جمع الجمع أفاريق، والجلاميد: جمع جلمود كمصفور الصخر.

^{(• -} أدب النساء)

يسحبُ صخراً من جلاميدالعرم لهُ مخاليبُ وأنيمابُ قضم (١) ما فاتهُ سحلاً من الصخر قصم (٢)

فقالت طريفة : وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر برجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الربح تملؤها من تراب البطحاء (٣) ، من سِهلة (٤) الوادى ورمله ، و قد علمت أن الجنان مظلّلة لا يدخلها شمس ولا ديح .

فأمر عمر بزجاجة فوضعها بين يديه ولم يمكث إلا قليلا حتى امتلات من تراب البطحاء، فأخبر عمرو طريفة بذلك، وقال لها: متى يكون مدلك السدّ ؟ قالت له : فيما بينك و بين سبع سنين. قال : فني أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله ، ولو علمه أحد لعلمته ، ولا تأتى على ليلة فيما بيني و بين سسبع السنين إلا ظننت الهلاك في غدها ، أو في مسائها ، شمر أى عمرو في نومه سيل العرم ، وقيل له : آية ذلك أن ترى الحصباء في سعف النخل ، فنظر إليها ، فوجد الحصباء في سعف النخل ، فنظر إليها ، فوجد الحصباء فيها قد ظهرت ، فعلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرّ ب ، فكتم ذلك وأخفاه ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب وأن وأن يخرج منها ذلك وأخفاه ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب وأن وأن يخرج منها

⁽۱) العرم: السد يعترض به الوادى (ومن معانيه أيضاً المطر الشديد، والجرذ، وواد جاء العبيل من قبله) .

⁽٢) سمله كننع: قشره ونحته ، وقصمه: كسره .

⁽٣) البطحاء والأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

⁽٤) السهلة بالكسر: تراب كالرمل.

⁽ه) مأرب: مدينة بالين ، وكانت فى الزمان الأول قاعدة التبايعة ، وهى مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء تحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ ، بإسم بانيها سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

هو وولده (۱) ، فخرج ، ثم أدسل الله تعالى على السد (۲) السيل فهدمه . (شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ص ۹۸)

* * *

(١) وقد خشى أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاه إذادعاه لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه ، وأن يفعل ذلك به في الملاً من الناس ، وإذا لطمه يرفع هو يده ويلطمه ، ثم صنع طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب أن عمراً صنع يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه . فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنة الذي أمره بما أمر ؛ فجعل يأمره بأمور فيتأنى عليه ، وينهاه فلا ينتهبي ، فرفع عمرو يده فلطمه على وجهه ، فلطمه ابنه ؛ وكان أسمه ملكا ، فصاح عمرو : واذلاه ، يوم فخر عمرو يهيجه صبى ويضرب وجهه، وحلف ليةتلنه، فلم يزالوا بعمرو أموالى حتى لا يرث منها بعدى شيئًا ، فقال الناس بعضهم لبعض: اغتنموا غضب عمرو، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى، فابتاع الناس منه كل أمواله التي بارض مارب ، و فشا بعض حديثه فيما بلغه من شأنَّ سيل العرم ، فقام ناس من الآزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك ، فأمسكوا أيديهم عن الشراء ، ولما الجُمَّمُعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولمَّا خرج عمرو مرب البن خرج لحزوجه منها بشر كشير ، فنزلوا أرض , عك ، فحار بتهم د عك ، . فارتحلوا عنها ، ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو بن عامر ، وتفرةوا على البلاد ، فمنهم من صار إلى الشام ، وهم أولاد , جفنة بن عمرو بن عامر، ومنهم من صار إلى يثرب ، وهم أبناء قيلة ﴿ الأوس والحزرج ، ، وأ بوهما حارثة أين تعلبة بن عمرو بن عامر ، وصارت وأزد الشراة ، إلى أرض الشراة ؛ وأزد عمان إلى عمان ، وصار ملك ابن فهم إلى العراق، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض البين طبيء ، فنزلت جبلي طبيء : أجأ وسلمي ، ونزلت ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامرَ تهامة ، وسموا خراعة ، لانخزاههم من إخوائهم ، وتمزقوا فى البلاد كل بمزق.

(٢) كان السد فيما يذكر قد بناه لقان الأكبر بن عاد ، وكان رصفه بالحجارة =

وقال أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني :

وسارت القبائل من أهل مأد ب حين خافو اسيل العرم ، وغليهم ممن يقياء ، ومعهم طريفة الـكاهنة ، فقالت لهم :

د لا تؤمُشُوا مكة حتى أقول ، وما كالمنى ما أقول إلا الحكيم المحسكم، وكب هجيع الأمم ، من عرب وعجم » .

قالوا الما: ما شأنك ياطريفة ؟ قالت: خذوا البدير الشَّدقم (١) ، فخصَّبوه الدم ، تـكن لـكم أرضُ جُـرهم (٢) ، جيران بيته المحرم » . (الأغاني ١٣ : ١٠٥)

* * *

ودوى الميداني في مجمع الأمثال قال :

ألفت طريفة السكاهنة إلى عمرو بن عامر الذى يقال له : د مزيقيا بن ماء السياء، ، وكانت قد رأت فى كهانتها (٣) أن سدًّ مأرب سيخرب ، وأنه

السد بالرصاص والحديد ويقال: إن الذي بناه كان من ملوك حمديًد، وذلك أن النب الماء كان يأتي ارض سبأ من الشحر وأودية البين، فردموا ردما بين أبين ، وحبسوا الماء، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض .

⁽١) الواسع الشدق .

⁽٢) وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو: أن افسحوا لنا فى بلادكم حتى نقيم قدر ما نستريح ، ونرسل رواداً إلى الشام وإلى الشرق ، فحيثما بلغنا أنه أمثل لحقنا به ، فأبت ذلك جرهم إباء شديدا ، وقالوا : لا ، والله ما نحب أن ينزلوا فيضيقوا علينا مرابعنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين الفريقين ، وانهزمت جرهم فلم يفلت منهم إلا الشريد.

⁽٣) كَهْنَ كَهَانَةُ بِالْفَتْحِ ، فَهُو كَاهْنِ ، وحرقته الديكهانة بالكسر .

سيأتى سيل العرم ، فيخر "ب الجنتين (1) ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه حتى أنتهوا إلى مكة ، فأقاموا بمكة وما حولها ، فأصابتهم الحمد ، وكانوا ببلد لايددون فيه ما الحمى ، فد عوا طريفة فشكوا إليها الذى أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابني الذى نشكون ، وهو مفر "ق بيننا . قالوا : فيما تأمرين ؟ قالت :

« من كان منسكم ذا هم بعيد ، و جمل شديد ، و مَن اد (٢) جديد ، فليلحق بقصر محمان المشيد(٣) ، فكانت أذذ عمان .

ثم قالت : منكان منسكم ذا جلد وقشر (٢) ، وصبر على أزَ مات الدهر ، فعليه بالار ال (٥) من بطن مر (٦) ، فكانت خزاعة .

ثم قالت : من كان منسكم يريد الراسيات فى الوحل ، المُطُمُّعِمَّات فى المحثل(٧) ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكانت الأوسُّ والخزرج .

ثم قالت : من كان منكم بريد الخر الخبر ، والملك والتأمير ، ويلبس الدّيباج والحرير ، فليلحق بِبُـصرى وغوير ، (وهما من أدض الشام) ، فسكان الدين سكنوها من آل جَفنة من غسان .

⁽۱) قال تعمالی : ولفد کان لسباً فی مسکمهم آیه مجنستان عن یمین و شمال ،

⁽٢) المزاد والمزايد: جمع مزادة ، وهي الراوية .

 ⁽٣) المشيد: المرفوع، قال مسلم بن الوليد في رثاء يزيد بن مزيد:
 أما هدت لمصرعه نزار بلى، وتقوض المجد المشيد

⁽٤) قسره على الأمر: قهره.

⁽٥) الأراك : القطعة من الأرض ، وموضع بعرفات ، وجبل .

⁽٦) بطن من: من بن أد بن طابخة .

⁽٧) المحل : الجدب والقحط .

ثم قالت: من كان منكم يريد الثياب الرَّقاق، والحيل العِناق، وكُنُونَ الاَرْفاق، والحيل العِناق، وكُنُونَ الاَرناق، والدَّم المهراق، فليلحق بأرض العراق، فكان الدَين سكنوها آل حجذيمة الاَرش، ومن كان بالحيرة وآل محرِّق (١) .

(بحمع الأمثال ١: ١٨٩)

و الاحظ من حديث طريفة الخير الآتى : أن العرب كانوا يعرفون علم الأحياء فهم يعرفون الحيوان وسلوكياته والرياح ونواجيها واتجاهاتها ، وما يستدل من هذه العلوم من نتائج تخبر عن حدوث أمر ما وهذا يتضح فى قولها : د لقد رأيت سلحها تجرف التراب جرفاً ، فدخلت الحديقة د فإذا الشجر من غير ديح يتكفا ، وقولها : د فإذا رأيت جرفاً يكثر بيديه فى السد الحفر فاعلم أن غمر الغمشر ، .

وقولها فى صفة الرياح دوإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح يملؤها من تراب البطحاء الخ، .

ومن هنا نرى أن الأمر ليس مرتبطاً بالسكهانة ، ولسكنه نتيجة مستنبطة من خلال دراسات عملية للبيئة وما تحتويه من جبال وأشجاد وغيرها يستدل بها على التوقعات المنتظرة ، وشبيه بهذه الأوصاف المذكورة ما يحدث في عصرنا الحديث من تحركات بعض الأشياء ، والهوات الحقيقة التي تحدث غالباً قبل الزلازل .

كما نلاحظ أن الحاكم في هذه الفترة كان يحترم رأى الـكاهنات ويقدسهن وفي هذا اعتراف عكانة الـكواهن ومنزلتهن العلمية في هذا الزمان .

⁽١) هو عمرو بن هند لأنه حرق مائة من بثى تميم .

حديث زبراء الكاهنة مع بنى رئام من قضاعة

كان ثلاثة أبطن من قضاعة مجتورين (١) بين الشّحر وحضرموت: بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رئام ، وكانت بنو رئام أقلهم عدداً ، وأشجعهم لفاء ، وكانت لما أمة من مولدات لفاء ، وكانت لما أمة من مولدات العرب ، تسمى زبراء ، وكان يدخل على خويلة أدبعون رجلا ، كام لها العرب ، تسمى زبراء ، وكان يدخل على خويلة أدبعون رجلا ، كام لها عور من ، بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما ، وكان بنو ناعب ، وبنو داهن متظاهرين على بنى رئام ، فاجتمع بنو رئام ذات يوم فى عرس لهم ، وهم سبعون رجلا ، كلهم شجاع بنيس (٢) ، فطعموا وأفبلوا على شرابهم ، وكانت زبراء كاهنة ، فقالت لخويلة : انطلق بنا إلى قومك أنذره ، فأفبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا إجلالا لها . فقالت ، فأفبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا إجلالا لها . فقالت ؛ مناه ، فاسمو ا ما تقول ، وشيجان الشنعاء ، فاسمو ا ما تقول ، قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

و اللوح ِ (٢) الخافق، والليل، الغاســـق، والصباح الشادق، والنجم الطادق، والمزن ِ الوادِق (٧)، إن شجر الوادى ليأدو خنشلا (٨)،

⁽١) أنداد : جمع زِند بالكسر ، وهو المثل والنظير .

⁽٢) الشجا: ما اعترض في الحلق من عظم و نحوه .

⁽٣) المؤيد : الداهية والأس العظيم .

⁽٤) اللوح بالضم والفتح (والضم أعلى) : الهواء بين السهاء والأرض .

⁽٥) غسق الليل كجلس: اشتدت ظلمته.

⁽٦) الطارق: في الأصل ، كل من أتى ليلا، ثم استعمل في النجوم اطلوعها ليلا .

⁽٧) المزن: السحاب أو أبيضه أو ذو الماء، والوادق من ودق المطر كوعد: قطر . (٨) أدوت له آدر أدوا إذا ختلته وخدعته (ودايت له، ودالت له أيضا) والختل: الخدع .

ويحرُمْق أنياباً عُمُصلا (١) ، وإن صخر الطوُّدِ لينذر تُمكلا (١) ، لا تُجدون عنه مَملاً (٦) . .

قوافقت قوماً أشادًى (٢) سكادى ، فقالوا : « رَبِيح ﴿ خَجُوجٍ ﴿ ﴿) ، بعيدة ۗ ما بين الفروج ، أتت زبراء ۖ بالآبلق النتوج (٢) ، ·

فقالت زبراء: «مهلایا بنی الآعرق ، والله إنی لاشمٌ ذفر (۷) الرجال تحت الحدید ، فقال لها فتی منهم یقال له محدیل بن منقذ : «یا خذاق (۸) ، والله ما تشمّین إلا ذفر ابطیبك ، فانصرفت عنهم ، وارتاب قوم من ذوی اسنانهم ، فانصرف منهم أد بعون رجلا ، و بق ثلاثون ، فرقدوا فی مشر بهم ، وطر قتهم بنو داهن و بنو ناعب ، فقتلوهم أجمین .

⁽١) حرق أنيابه: إذا حك بمضهما ببمض، والعرب تقول عند الفضب يغضبه الرجل على صاحبه: « هو يحرق على الأرم ، والأرم كسر: الأضراس ؛ والعصل: المعرجة جمع أعصل.

⁽٢) الطود: الجبل، والشكل: الفقد. (٣) المعل: المنجى.

⁽٤) الأشر محركة : المرح . (٥) الخجوج : السريعة المر .

⁽٣) الآبلق . وصف من البلق محركة ، وهو ارتفاع البياض في قوائم الفرس إلى الفخذين ، والآبلق لا يكون نتوجا ، والعرب تضرب هذا مثلا للشيء الذي لا ينال ، تقول وطلب الآبلق العقوق ، فلما فاته أراد بيض الآنوق ، والعقوق كصبور : الحامل ، والآنوق كصبور أيضاً : الذكر من الرخم ولا بيض له ، هذا قول بعض اللفويين . فالمعنى أنه طلب مالا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضاً ما لا يكون ولا يوجد ، وعامتهم يقولون : الآنوق الرخمة وهي تبيض في مكان ما لا يوصل فيه إلى بيضها إلا بعد عناه . فالمعنى أنه طلب مالا يقدر عليه ، فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله .

⁽v) الذفر: حدة الربح ، يكون في النتن والسبب.

⁽٨) خذان : كناية عما يخرج من الإنسان يقال : خذق ، ومزق ، وزرق .

وأقبلت خويلة مع الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، مم عمدت إلى خناصرهم ، فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة ، وألقتها في عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمر ضاوى بن سموة المهرى ، وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه ، فاستعدته على بني داهن و بني ناعب ، فخرج في تمنسر (۱) من قومه ، فطرقهم فأوجع فيهم .

وفى حديث الزبراء، نلاحظ أنه مع الاعتراف بمكانة السكواهن، واحترام رأيهن، إلا أن هناك بعضاً من العرب، كانوا يعتبرون ذلك من قبيل الدجل والشعوذة، وهذا ما نراه من موقف هذيل بن منقذ و والله ما تشمين إلا ذفر إبطيك، مفندا قول الزبراء: وإنى لاشم ذفر الرجل تحت الحديد، كما نلاحظ فى حديث الزبراء السكاهنة، مدى تأثير المرأة العربية، وأهميتها الاجتماعية فى قومها، وأنها بكلمة واحدة تثير الحرب الضروس، وهذا ما تشاهده فى موقف و خويلة، وأنها تعمد إلى خناصر القتلى و تننظم منها قلادة واحدة تلقيها فى عنقها، مم تذهب إلى ابن سموة المهرى فتقيم فى داره و تستعديه على دبى داهن، و و بنى ناعب، فأعلى الحرب عليهما، وأعد جيشاً من قومه وقاتلهم وأعمل فيهم القتل والتنسكيل.

⁽۱) المنسر من الحيل: ما بين الثلاثين إلى الآربمين، أو من الأربمين إلى الحسين، أو إلى المائة إلى المائةين، وقطعة من الجيش تمرقدام الجيش الحبير.

كاهنة ذى الخلصة تتكهن بما فى بطن رقية بنت جشم

زعوا أن رُقية بنت جشم بن معاوية ، ولدت نميراً وهِلالا وسـواءة ، ثم اعتاطت (١) فأتت كاهنة بذى الحلصّة (٢) ، فأرتها بطنها ، وقالت : إنى قد ولدت ، ثم اعتطت ، فنظرت إليها ومسَّت بطنها ، وقالت :

درُبُ قبائِلَ فِرَقِ ، ومجالِسَ خِلق ، ومُظعنُ (٣) مُحرِمُق(٤) ، فى بطنك زرق (٠٠) .

فلما مخضت (۱) بربیعة بن عامر (۷) ، قالت : إنی أعرف ضرطی بهلال ؛ و أی هو غلام ؛ كما أن هلالا كان غلاماً ، .

(بحم الأمثال ١: ٢٢١)

(١) اعتاطت المرأة: لم تحمل سنين من غير عقر .

⁽۲) ذو الخلصة محركة وبصمتين: بيت كان يدعى السكعبة اليمانية لخثم ، كان فيه صنم اسمه الخلصة .

⁽٣) الظمن والظمائن: جمع ظعينة، وهي الهودج سواء كان فيه امرأة أم لا، والمرأة ما دامت في الهودج، ويقال: الظعينة في الأصل وصف للمرأة في هودجها، ثم سميت بهذا الإسم، وإن كانت في بيتها، لأنها تصير مظمونة (أي يظمن بها زوجها، فهي فعيلة بمعنى مفعولة).

⁽٤) الحزق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة ، والحزية ، والحزيقة ، والحزاقة

⁽ بالفتح) : الجماعة ، والجُمع : حزائق وحزيق وحزق (بضمتين) .

⁽٥) أى وضع ، وأصل الورق : رمى الطائر بذرقه .

⁽٦) مخض كسبع ومنع وعنى: أخذها الطلق

⁽٧) هو : ربيعة بن عامر بن صمصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور أبن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ، ومن نسله بنوكلاب بن ربيعة أبن عامر ، وبنو جعفر بن كلاب بن ربيعة .

وفى حديث كاهنة ذى الخلصة ، أرى أن كلامها هذا لا يعد من قبيل السكهانة ، إذ أنه لا يعدو أن يكون من باب البشارة التي يسوقها النساء عادة فى مثل هذه المواقف ، والفرض منها إسعاد النساء ، بكلام محبب إلى قلوبهن ، وهو أسلوب من أساليب التفاؤل ، وتوقع الخير ، وهذا يحدث فى كل العصور لا فى العصر الجاهلي وحده .

كما أننا نلاحظف حديثها اعتزاز العرب بالولد فهو يحمل اسم القبيلة ، ويدافع عن ذمارها ، ومن ذريته يأتى المحامون والمدافعون عن بيضة العشيرة والقبيلة .

***** * *

رأى سلمي الهمدانية في حريم المرادى

كا نلاحظ أهمية مشورة المرأة فى المصر الجاهلي وأن الملوك كانوا ينزلون عند رأيها ومشورتها ويستنبرون براجح عقلها كما بدا واضحاً فى استرشاد عمرو ابن براقة برأى سلمى الهمدانية وبلغ من تأثير رأيها فيه أنه أفار على حريم المرادى وقاتله واستاق كل شيء له ، وكان كل شيء يسير بناء على توجيهات سلمى وإرشاداتها .

وكان أغاد رجل من دمراد ، يقال له د حريم ، على إبل عمرو بن بر اقة الهمدا في وخيل له ، فذهب بها ، فأنى عمرو بن سلمى الهمدانية ، وكانت بنت سيستدهم ، وعن دأيها كانوا يصدرون ، فأخبرها أن حريما المرادئ أغار على ابله وخيله ، فقالت : د والخفو والوميض (۱) ، والشفق كالإحريض (۲) ، والفلة و الحضيض (۱) ، إن حريماً لمنيع الخيرين ، سيد من يز (۱) ، ذومعقل حريز والفلة و الحضيض (۱) ، إن حريماً لمنيع الخيرين ، سيد من يز (۱) ، ذومعقل حريز

⁽١) الخفو: اللمعان الضعيف ، والوميض: أشد من الخفو .

⁽٢) الإحريض: العصفر. (٣) القلة: أعلى الرأس، والجبل،

وكل شيء، والحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل.

⁽٤) الناحية . (٥) مزير : فاضل ، من قولهم هذا أمرَ من هذا أى أفضل منه .

غير أنى أرى الحَمَّـة (١) سَتَظَفَرَ منهُ بعـــشَرَة ، بطيئة الجــبْرَة ، فاغِرْ ولا تُـنكع (٢) . .

فأخاد عمرو ، فاستاق كلَّ شيء له ، فأتى حريم بعد ذلك يطلب إلى عمرر أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع حريم . (الآمالي ٢ : ١٢٣)

تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية

كان العرب يفتخرون بالأنساب ، ويشيدور به بمآثر الآباء والأجداد متمثلين بقولهم :

إن الفتي من يقول كارب أبي اليس الفتي من يقول ها أنذاك

ونرى هذا أن المرأة العربية سلكت مسلكا آخر مغايراً لمساكان عليه الحال قبل ذلك ، فتقدم لنا العجفاء – فى حديثها الآتى – الرجال فى صورة عملية تسجيلية ، نرى من خلالها الخصال الطيبة والمسكارم المحمودة للرجال ، كأننا نراها ونلمسها ، تحفز على الخير ، وتحض على الفضائل فلم تعد الصورة بجرد فحر ومنافرة بلكرما يبعث على السكرم ، ومروءة ، تدفع إلى المروءة ، وصدقاً ينهى عن السكدب ، وفضائل خيرة تنهى عن الرذائل المشينة :

* وبضدها تتميز الأشياء *

⁽١) الحمة : القدر (محركة) ، وقيل : هي واحد الحمام (بالكسر) .

⁽٢) نسكمه عن الأمر (كنع) منعه ودفعه .

⁽٣) أى أنهم عكسوا قول الشاهر:

ليس الفتى من يقولكان أبي إن الفتى من يقول ها أنذا

وكان قد دوى أن العجفاء بنت علقمة السعدى ، وثلاث نسوة من قومها ، خرجن فاتعدن بروضة يتحدثن فيها ، فوافين بها ليلا فى قر زاهر، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة تمعشبة خصبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة ، ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحاً ولا أنضر .

ثم أفضن في الحديث ، فقلن : أي النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الحرود (١) الودود الولود ، قالت الآخرى : خيرهن ذات الفناء (٢) ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع ، النفوع غير المنوع ، قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لآهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة . قان : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحظي (٣) الرّضى ، غير الحظيل (٤) البطى . قالت الثانية : خيرهم السيد السكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم قالت النائة : خيرهم السخى ، الوفى الرّضى ، الذى لا يغير (١) الحررة ، ولا يتخذ الضرق . قالت الرابعة : وأبيكن ، إن في أبي لنعشتكن ، كرم الآخلاق ، والصدق عند التلاق ، والفلج (١) عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاذ بأبيها معجبة .

⁽١) الخرود ، والخريد ، والخريدة : الحيية الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت ، المتسترة .

⁽٢) الكفاية والمنفعة .

⁽٣) الحظي : ذر الحظوة والمكانة عند زوجه ، والحظية كذلك .

⁽٤) رجل حظل ككتف وشداد وصبور : مقتر ، يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفى بحمع الآمثال , غير الحظال ، ولا التبال ، والتبال بالتشديد من التبل (بفتح فسكون) وهو الحقد .

⁽٥) أغار امرأته : تزوج عليها .

⁽٦) الفوز والظفر .

وفى بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبي يكرم الجار ، وتمعظم الخطار (٢) ، ويعمل الأمور السكبار ، ويأفف من الصغار ، فقالت الثانية : إن أبي عظيم الخطر ، منيع الوزر (٤) ، ويأفف من الصغار ، فقالت الثانية : إن أبي عظيم الخطر ، منيع الوزر (٤) ، عزيز النسفر ، يحمد منه الورد والصسدر ، فقالت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان ، حديد الجنان ، رقوم (٥) الجفان ، كثير الأعوان ، يُروي السسنان عند العاسمان ، قالت الرابعة : إن أبي كريم النزال ، ممنيف المقال ، كثير النوال ، ممنيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال .

ثم تنافرن إلى كاهنة معهن في الحيى، فقلن لها: اسمعى ما قلناه ، واحكمى بيننا واعدلى ، ثم أعدن عليها قولهن ، فقالت لهن : دكل واحدة منكن ماددة (٢) ، بأبيها واجدة (٧) ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة ، ولسكن اسمعن قولى : خير النساء المبقية على بعلها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ، فهى تؤثر حظ نوجها على حظ تفسها ، فتلك الكريمة السكاملة ، وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سأله الرجل ، ألفاه قليل العلل ، كثير النفل (١) ، ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها معجية .

(بحمع الأمثال ٢ : ٥٥ وجمهرة الأمثال ٢ : ١٢٣)

⁽١) الخطار : جمع خطر كسبب وهو السبق يتراهن عليه .

⁽٢) العشار : جمع عشراء كمنفساء وحي من النوق التي مضي لحملها عشرة أشهر أثمانية .

⁽٣) الحوار بالضم وقد يكسر: ولد الناقة ساعة تضمه .

 ⁽٤) الوزر: الملجأ.
 (٥) الرذوم : القصمة الممتلئة تتصبب جوانبها .

⁽٦) ماردة: أي بلغت الغاية .

⁽٧) وجد به بالكسر : أحبه .

⁽٨) النفل : الهبة .

عفيراء الكاهنة تعبر عن رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مرأد بن عبدكلال قفلَ من غزوة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفد عليه زعماء المرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرته وهالته في حال منامه ، فلما انتبه أنسيها حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ادتياعه في نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوذرد حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر الـكمان ، فجمل يخلو بكاهن كاهن ِ . ثم يقول: أخبرني عما أديد أن أسألك عنه ، فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندي ، حتى لم يدع كاهناً علمهُ إلا كان إليه منذ ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أدقه ، وكانت أمة قد تكونت ، فقالت له : أبيت اللحن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الـكواهن من الجان ، ألطف وأظرف من أتباع الكمان ، فأمر بحشر الكواهن إليه ، وسألهن كما سأل الكهان ، فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه ، ولما يئس من طلبته سلاعنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد . فأوغل في طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرفعت له أبيات من تخر ًا (١) جبل ، وَكَانَ قد لفحه الهجير ، فعدل إلى الأبيات ، وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : انول بالرحب والسمة ، والأمن والدعة ، والجفئة المدعدعة (٢) ، والعلية المترعة (٣) ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب إعن الشمس ، وخفقت عليه

⁽١) أي في كينفه وستره .

⁽٢) الجفنة : القصعة ، والمدعدعة : الني ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص ما فيها ، ثم ملئت بعد ذلك .

⁽٣) العلبة: قدح عنجم مرجلود الإبلأو منخشب يحلب فيها ، والمترعة: المملوءة.

الأرواح (١) ، نام فلم يستيقظ حتى تصرّم الهجين ، فجاس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثله قواماً ولا جمالا ، فقالت : د أبيت اللعن أيها الملك الهمام 1 هل لك في الطعام ؟ ، فاشتد إشفاقه وعاف على نفسه لما رأى أنها عرفته ، وتصامّ عن كابتها ، فقالت له : د لا حدد ، فداك البشر ، فجد الاكبر ، وحظ أنه بك الأوفر ، ثم قرّ بت إليه ثريداً وقديداً وحيد الاكبر ، وحظ أنه الأوفر ، ثم قرّ بت إليه ثريداً وقديداً وحيد الاكبر وعلم تندُب عنه ، حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً وضريباً (٣) ، فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة ، فلأت عينيه حسناً ، وقلبه فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة ، فلأت عينيه حسناً ، وقلبه عفيراء ، من الذي دعو ته بالملك الهمام ؟ قالت : دم ثد العظيم الشأن ، عفيراء ، من الذي دعو ته بالملك الهمام ؟ قالت : دم ثد العظيم الشأن ، أعلمين والبكمان ، لمضيلة بعد عنها الجان ، ، فقال يا عفيراء : أحل أيها لملك ، إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث (٤) أحلام ، قال الملك : أصبت يا عفيراء ، فا تلك الرؤيا ؟ قالت : درأيت أعاصير (٥) ذوابع بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان واله عنان عاصير أن وابع بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع ، يقفوها نهر ثمتدافع ، وسمعت فيها أنت سامع ، دعاء ذي خرس (٥) ساطع ، يقفوها نهر ثمتدافع ، وسمعت فيها أنت سامع ، دعاء ذي خرس (٥) ساطع ، يقفوها نهر ثمتدافع ، وسمعت فيها أنت سامع ، دعاء ذي خرس (٥)

⁽١) الأرواح ، والرياح : جمع ديح .

⁽٢) القديد: اللحم المقدد، أو اقطع منه طولا، والحيس تمر يخلط بسمن وأقط، فيعجن شديداً ثم يندر منه نواه، والأقط شيء يتخذ من المخيض الغنمي والخيث: تمر يخلط بسمن.

⁽٣) الصريف: اللبن ساعة الحلب والضريب: اللبن يحلب من عدة لقاح في إناء .

⁽٤) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

⁽ه) الأعاصير: جمع إعصار وهو الريح التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء، أو التي فيها العصار بالكسر وهو الفيار الشديد.

صادع : هله والى المشارع (١) ، فروى جادع (١) . وغرق كادع (١) ، فقال الملك : أجل ، هذه رؤياى ، فما تأويلها يا عفيراء ؟ قالت : د الاعاصير الزوابع ، ملوك تبا بسع (٤) ، والنهر علم واسع ، والداعى نبي شافع ، والجارع ولى تابع ، والسكادع عدو منازع ، . فقال الملك : يا عفيراء ، أسلم هذا النبى أم حرب ؟ فقالت : د أقسم برافع السماء ، ومنزل الماء من العماء (٥) ، وإنه لمطرل الدماء (٦) ، ومنطق العقائل تطرق الإماء (٧) ، . فقال الملك : إلام يدعو يا عفيراء ؟ قالت : د إلى صلاه وصيام ، و صلة أدحام ، و كسر أصنام : يدعو يا عفيراء ؟ قالت : د إلى صلاه وصيام ، و صلة أدحام ، و كسر أصنام : وتعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و وتعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و تعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و تعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و تعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و تعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و تعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و تعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و تعطيل أذلام (٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومه و تعليد المنام المنام المنام المنام المنام و تعليد و تعليد المنام المنا

(٦ _ أدب اللساء)

⁽١) المشارع: جمع مشرعة وهي مورد الشاربة .

⁽٢) جارع: فاعل من جرح المساء كسمع ومنع إذا بلمه.

⁽٣) كارَع: فاعل من كرّع فى الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء . (٤) التبابع: جمع تبع كسكر: ملوك الين .

⁽٥) العاء: السحاب الكشيف.

⁽٦) انظر قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع , وإن دماء الجاهلية موضوعة ، .

⁽٧) العقائل: كرائم النساء جمع عقيلة ، والنطق: جمع نطاق ككتاب ، والنطاق والمنطقة : ما تشد به المرأة وسطها للمهنة ، ونطقها تنطيقا : ألبسها النطاق فتنطقت وانتطقت ، ومنطق النساء أى يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن للخدمة كالإماء .

⁽٨) الأزلام: جمع زلم ، كسبب: قداح كان العرب يستقسمون بها في الجاهلية (أى يظلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا من تجارة أو سفر أجالوا ثلاثة قداح (القداح جمع قدح بالكسر، وهو: السهم قبل أن يراش) وكانت عند أصنامهم ، أحدها مكتوب عليه: أمرنى ربي ، والثانى نهانى ربي ، والثانى عند أصنامهم . الواحد منهم حسب ما هو مكتوب .

فن أعضادُه (۱) ؟ قالت : أعضادُه غطاريف (۲) يَمَانُون ، طَائَرُهُم به ميمون ، يغزيهم فيغزون ، وثيدمُّتُ شُنَّ بهم الحزون ، وإلى نضره يمتزون ، وأطرق الملك يؤا من (۱) نفسه في خطبتها ، فقالت : «أبيت اللمن أيها الملك ! إن تابعى غيور ، ولامرى صبور ، وناكى مثبُّور ، والسكاسف بى ثبور (۱) ، فنهض الملك وجال في صهوة (۱) جواده ، وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقة كوماء . الملك وجال في صهوة (۱) جواده ، وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقة كوماء . (بلوغ الارب ۲۹۲)

ومن كلام عفيراء السكاهنة – نرى أن هناك من النساء في الجاهلية من تتصف بالشفاعة وصفاء الروح ، فقد تنبأت عفيراء بوجود النبي السكريم ووصفته بأنه مطل الدماء ، ومنطق القبائل نطق الإماء ، واعلما في تنبؤها هذا قد اطلعت على هذه الآخبار عن طريق اتصالها بالآخبار والرهبان والحنفاء كورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت وغيرهما .

كا يدل حديث عفيراً على وجود ما يسمى د بعلم تفسير الاحلام ، كعلم له قواعده وأصوله عند العرب وبخاصة الـكمان .

وأياً ماكان فإن أدب الكواهن موسوعة أدبية و تاريخية وعلمية ، قدمت لنا وصفاً نسجيلياً ، لعادات العرب وطبائعهم ، وأخلاقهم وعلومهم و ثقافاتهم في باقة مسجوعة موسيقية ترتاح لها النفس ، ويهفو لها القلب ،

⁽١) الأعضاد: الأنصار جمع عضد، والذبح معروف ، والمراد هنا إذا قطعوه وتركوا نصرته . (٢) الفطاريف : جمع غطريف وهو السيد الشريف . (٣) يسهل ، والحرون : جمع حزن كشمس وهو ما غلظ من الأرض .

 ⁽٤) يشاور . (٥) الثبور : الهلاك . (٦) الصهوة : مقعد الفارس .

النظالة التابيج

الحكمة والمثل

العرب – كغيرهم من الشعوب الشرقية عامة والسامية خاصة – شديد و الميل إلى إرسال الحكمة والمثل وهما على السانهم فى كل حال ، يدعمون بهما أقوالهم ، ويعللون بهما أعمالهم فيطلقونهما عند كل فرحة وترحة ، ويوردونهما فى جميع أحداثهم متضمنة تجاربهم ، وخبرتهم فى حياتهم ومجتمعهم ، فهى عندهم من ذخائر الدهر ، وحكم الزمان ، وثمار الشيخوخة المحدكة التى توجه الناس إلى الطريق الأقرم فى تنظيم شهونهم القبلية والحضرية

وللحكمة عند العرب مكانة عالية ، ومنزلة مرموقة وهى (وشى الـكلام ، وجوهر اللفظ وحلى المعانى) وهى أبقى من الشعر ، وأشرف من الحطابة لم يسر شيء مسيرها ، ولا عم عمومها حتى تيل دأستير من مثل ، .

وقال الشاعر:

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابز

وقد ضرب الله عن وجل الأمثال فى كتابه ، وضربها رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فى حديثه . قال الله تمالى : «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، (١) ومثل هذا كثير فى القرآن الكريم .

وجاء فى المناظرة التى جرت بين النعبان بن المنذر ، وكسرى أنو شروان فى شأن العرب :

⁽١) آخر سورة الحج .

دقال النعمار : وأما الآمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا" فضلتها .

قال كسرى : بماذا فضلتها ؟

قال النمان : بعزها ، ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها وحـكمة السنتها .

وأما حسكمة السنتهم فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالآشياء وضربهم والأمثال ، وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشيء من السنة الاجناس الحامة ومن ثم ترى أن الحسكمة والمثل من موضوعات فحر العرب لأنهما دليل الحصافة والفهم ، ولا عجب فى ذلك فإنهما فلسفة الحياة وعصادة خبرة الدهود وخلاصة نود العقل ، ونود اليقين ، بل إنهما عينا النفس العربية ومرآة ما يجول فيها ، وطريق الاستقامة إلى المثل العليا .

ومن زعماء الحسكة والمثل أكثم بن صيني وقل من جاداه من حكاء عصره في ضرب الأمثال وسوق الحكمة ، وكان في خطبه قليل د المجاز حسن الإبجاز ، حلو الألفاظ ، دقيق المعانى مو لعاً بالأمثال يقول : دحسبك من شر سماعة ، ، د الصمت حكم وقليل فاعله ، ، و زهير بن أبي سلمي المزنى ، وقد أكثر من الامثال والحسكم بما لم يفقه شاعر جاهلي ، وبما فتح به باب الحسكم والأمثال في الشعر العربي فحكان كلامه الدرب الذي سلسكة الشعراء لبلوغ الحسكمة ومن أمثلته :

ومن هاب أسسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم ومن يجعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذماً عليه وينسدم ولبيد بن دبيمة ، وهو بمن أبدعوا فى الحكم والامثال ، وقد ثبت فى

⁽١) الحسكم والأمثال ص ١٠ ، ١١ .

الصحيحين شهادة للنبي عَيْظِيْنُولُه بقوله : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

الاكل شيء ما خلا الله باطل .

وطرفة بن العبد الشاب الذي انهالت عليه المصائب فأنطقته بالحـكمة التي نثرها في ديوانه فـكانت مصبوغة بصبغة الوعى والحنك:

الحير خير وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد وأمية بن أبي الصلت الذي يمتاذ شعره بتضمنه دوائع الحكمة والمثل يقول: عطاؤك زين لامرى م قد حبوته بخير وماكل المطـا ميزين وليس بشين لامرى م بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وعدى بن زيد العبادى يقول من قصيدة نظمهافى السجن ووجهها إلى النعهان أب قابوس يتظلمن سجنه (وكان قد وشى بعض الحاقدين به إلى النعهان فسجنه): أيها الشامت المعير بالدهادات المسبرا الموفسور أم لديك العهاد الوثيق من الآيام بل أنت جاهل مفسرود من رأيت للنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير أين كسرى ، كسرى المداد أبوساسان أم أين قبله سابور

وأسلوب عدى ساذج لينته الحاضرة ، وجعلته ناعم الجرس دائع التشبيه والتصوير أحياناً ، وإنك لتشعر أرخ لغة الشاعر تتثاقل ولا تنقاد له ناصية القوافى ، و لهذا لم يعده العلماء الاقدمون حجة في الشعر (١) .

وقد شاركت المرأة الآديبة الرجال الآدباء فى ضرب الأمثال والحسكم ، وكن أمثلة رائعة فى هذا الفن ، ومنهن عثمة بنت مطرود البجلية ، والحمراء

⁽١) والحديد في الآدب العرب ج ه ص ٢٣٥٠

بنت ضمرة بن جابر وحبى بنت مالك العدوانية ، والعجفاء بنت علقمة السعدى والخنساء بنت عمرو بن الشريد ، والآمثلة التى أدسلتها المرأة العربية من الوجهة الآدبية والفنية تقوم على التشبيه والاستعارة والنثيل ، وهى لا تعدو الآمثال العربية الآخرى التى ساقها الحركاء – ووصلت صورة الحكلام فيها إلى الغاية القصوى فى البلاغة من حيث إيجاز اللفظ وصحة المعنى ، وحسن البيان ، ولطف الإشارة وإصابة الفرض ، وصدق التجربة ، وتجعل النفوس ترتاح لها وتنشط لحفظها ، ليسير مثونها ، وحسن وقعها ، وسهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تودث ما تتخلله من الكلام دواجاً ، وتسكسبه قبولا ، كما أنها مستقاة من حياة البداوة ، ومستوحاة من دمال الصحراء ، وطبيعة أرضها وسمائها وحيوانها ونباتها ، وعادات العرب وتقاليدهم وحروبهم وغزواتهم ، وحلهم وترسالهم وشجاعتهم وجودهم ، وعزهم وشرفهم وسائر أخلاقهم العربية ، فإن رأت ذوجها تخلف و بها العدو واعتكف فى منزله ، ثم اغتاظ من نظرها وإهجابها بالمقاتلين عن لقاء العدو واعتكف فى منزله ، ثم اغتاظ من نظرها وإهجابها بالمقاتلين الشجعان ، انطلقت قائلة :

فذهبت مثلا ، و إن سئلت ما ليس فى بيتها ، فلما عز عليها عطاؤه ، وقبل لها : أتبخلين ؟ انطلقت قائلة :

وقولها :

ترى الفتيان كالنخـل وما يدريك ما الدخل

. . .

وقد ظهرت فى العصر الجاهلى أديبات حكيمات اشتهرن بضرب المشل والحدكمة، فذهب كلامهن مثلا ذائعاً ' يتمثل به فى جميع المواقف ، والمرأة من طبيعتها تجنح دائماً إلى الحسكمة وعدم التسرع فى بعض الأمور ، وإنها

كثيراً ما تُهتدى عن طريق شُعورها و بصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله وتفسكيره المجرد(١).

وقد نبغ فى بحال الحسكمة نساء كثيرات ، ومنهن عثمة بنت مطرود البجلية والحراء بنت ضمرة ، وحيى بنت مالك العدوانية ، وعصام السكندية ، والعجفاء بنت علقمة السعدى ، د والحنساء بنت عمرو بن الشريد ، و د قذور ، بنت قيس بن خالد الشيبانى ، والامثلة الآتية : تبين مدى ما بلغت إليه المرأة من الدقة المتناهية في صوغ الامثال ، فجاءت أمثلة معبرة عن روح العصر الذي يعشن فيه كما تضمنت خلاصة تجاربهن في الحياة وصادت أمثلة خالدة تعبر عن أدبهن و نبوغهن :

(لا تعدم الحسنا، ذاماً ﴾ (٢) قالته شحيً بنت مالك العدوانية .

﴿ لا عتاب على الجندل ﴾ يضرب في الأمر إذا وقع لا مرد له .

وأصله ما حدثوا أن إحدى ملكات سبأ ، وفد إليها قوم يخطبونها . فقالت : ليصف كل رجل منكم نفسه ، وايصدق ، وليوجز . لاتقدم إن تقدمت ، أو أدّ ع إن تركت على علم . فتسكلم رجل منهم يقال له مددك ، فقال : إن أبي كان في الدر الباذخ ، والحسب الشامخ . وأنا شرس الخليقة ، غير رعديد عند الحقيقة (٢) ، قالت . ولا عتاب على الجندل ، . فأد سلتها مثلا . ثم تسكلم

⁽١) د سيكلوجية المرأة ، الدكنتور زكريا ابراهيم ، مكتبة مصر ــ الفجالة ص ٣٥

⁽٢) الدام: العيب.

⁽٧) الرعديد: الجبان المستطار القلب، والحقيقة: ما يحق على المرء أن يحميه، وقد يريدون بها اللواء.

آخر منهم يقال له صبيس ابن شرس. فقال: أنا في مال أ ثيب ، و همخلق غير خبيث ، وحسب غير عثيث ، أحسد و الفعل بالفعل ، وأجزى القرض بالفرض (١) . فقالت : د لا يسر ك غائباً ، من لا يسر ك شاهداً ، فأدسلتها مثلا . ثم تسكلم آخر منهم يقال له شماس بن عباس ، فقال : أنا شماس بن عباس ، معروف بالندى والباس ، حسن الخلق في سجية ، والعدل في قضية ، مالى غير محظور على القل والسكر ، وبالى (٢) غير محجوب على العسر واليسر . قالت : المحم يا مددك ، الخير متبع ، والشر عنور من فأرسلنها مثلا . ثم قالت : اسمع يا مددك ، وأما أنت يا شماس فقد حلات منى محل الأهوع (٣) من السكنانة ، والواسطة وأما أنت يا شماس فقد حللت منى محل الأهوع (٣) من السكنانة ، والواسطة من القلادة ، لدمائة خلقك ، وكرم طباعك ، «ثم اسع بخير أو دع » . فأرسلتها مثلا و تروجت شماساً .

﴿ لُو تُرِكُ القطا ليلا كنام ﴾

يضرب لمن حُسمل على مكروه من غير إرادته .

وأول من قاله د حدام بنت الريان ، . وذلك أن عاطس بن خلاج سار إلى أبيها فى حير وخثم وجعنى وهمدان . ولقيهم الريان فى أربعة عشر حياً من أحياء النمين ، فافتتلوا ثنالاً شديداً ، ثم تحاجزوا .

و إن الريان خرج تحت ليلته هو وأصحابه هُــر اباً ، فسادوا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا . فأصبح عاطس ، فغدا لقتالهم فإذا الارض منهم بلاقع ، فجرد

⁽۱) القرض : القطع ، والفرض : الحز ، يريد أنه لا يصبر على ضيم ، بل يجرى الشر بأشد منه . (۲) اليال : رخاء العيش .

⁽٣) الأهرع : خير السهام وأفضلها تدخره لشديدة .

حُيله . وحث فى الطلب ، فانتهوا إلى عسكر الريان ليلا ، فلما كانو ا قريباً منه ، أثادوا القطا ، فرت بأصحاب الريان ، فحرجت حذام بنت الريان إلى قومها فقالت :

أى إن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد أتاكم القوم . فلم يلتفتوا إلى قولها ، وأخلدوا إلى المضاجع لما نالهم من التعب . فقام ديسم بن طادق ، وقال بصوت عال :

إذا قالت حذام فصدَّ قوها فإن القول ما قالت حدام ِ وثار القوم ، فلجئوا إلى واد قريب منهم ، فانحازوا به ، حتى أصبحوا ، وامتنعوا منهم .

﴿ مَنْ عَنَى وَلَا كَالسَّـُمِدَانَ ﴾ يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله .

وأول من قال ذلك: والخنساء بنت عمرو بن الشريد، وذلك أنها أقبلت من الموسم - فى عكاظ - فوجدت الناس مجتمعين على هنسد بنت عتبة بن ربيعة وفعر جت عليها، وهى تنشدهم مرائى فى أهل دينها وفي منها قالت: على من تبكين ؟ قالت: أبسكى سادة مضوا . قالت : أنشدينى بعض ما قلت . فأنشدت هند أبياتا . فقالت الخنساء ومرعى ولا كالسعدان ، .

﴿ ما يه ولا كصدًا . ﴾

يضرب للرجلين لهيا فضل، ولكن أحدهما أفضل.

والمثل لقدور" بنت قيس بن خالد ذى الجدين الشيبانى . وكان من حديثها أن زُرارة بن عدس رأى ابنه لقيطاً يختال ، فقال له : كأنك أصبت ابنة قيس بن خالد ، ومائة من هجان المندر بن ماء السماء ! فحلف لقيط لا يمس الطيب ، ولايشرب الخر، حتى يصيب ذلك، فساد حتى أنى قيس بن خالد – وهر سيد ربيعة – وكانت عليه يمين لا يخطب إنسان إليه علانية إلا أصابه بسوه ويخطب إليه النيك لم أشنك ، وإن نظمب إليه لقيط فى مجلسه ، وقال : عرفت أنى إن أعالنك لم أشنك ، وإن أناجك لم أخدعك. فزوجه ابنته القذور ، وساق المهر عنه ، وهداها إليه من ليلته . فاحتمل بها إلى المنذر ، فأخبره بما قال أبوه . فأعطاه مائة من هجانه ، فرحل إلى أهله فقالت : ألق أبى وأودعه . فلما جاءته قال لها : يا بنية ، كونى أن يقتل ، فإن كان ذلك فلا تخمشي له وجها ، ولا تحلق شعرا . فقتل لقيط ، أن يقتل ، فإن كان ذلك فلا تخمشي له وجها ، ولا تحلق شعرا . فقتل لقيط ، فاحتملت إلى قومها ، فتزوجها بعده رجل منهم ، فجملت تمكش ذكر لقيط ، فقال لها : وأي شيء رأيت منه كان أحسن في عينك ؟ قالت : كل أموره وشرب ، فرجع إلى ولقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من وشرب ، فرجع إلى ولقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أطرافه ... فسكت عنها ، حتى إذا كان يوم دجن شرب ، وتطيب ، وركب ، وصرعمن الصيد ، وقال لها : كيف تركيف تركيف ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .. فقال لها : كيف تركيف ؟ والمرافه ... فشكت عنها ، حتى إذا كان يوم دجن شرب ، وقال لها : كيف تركيف ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .. فقال لها : كيف تركيف ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .. فقال لها : كيف تركيف ؟ ولا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .. فقال لها : كيف تركيف ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .. فقال لها : كيف تركيف ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .. فقال ها : كيف تركيف ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .. فقال ها : كيف تركيف كركيف كركيف

أسلوب الأمثال النسائية: يتسم أسلوب الأمثال بشدة الإيجاز، وهذا ما يميز صيغة الأمثلة كما تتميز بالفكرة الصائبة، وروعة التعبير، وهذا ما جعلما أسير على الزمن، كما قالوا قديماً وأسير من مثل، إذ أن إيجازها وجمالها يسمهلان استظهارها وذيوعها، وتمثل الناس بها في شتى أنحاء الدنيا.

كما فلاحظ أن الأمثال يكثر فيها الحذف والإيماء، وتنصف عموماً بمتانة

⁽١) الدجن: المطر الكثير.

ألسبك وجودة التقسيم مع الميل إلى النسق الإنشائى العالى من تقديم ألقيود على المقيدات والمسند على المسند إليه ، ومع أنها ليست إلا فقرات قصيرة يصعب الحدكم بها على النسق الإنشائى فى ذلك العهد ، فإننا نتعرف بها ما بلغته العربية منذ العهد النبوى أو ماقبله من التطور فى بناء الجمل ، وتركيب الألفاظ ويمكن استخدامها للحكم على ما نقل لنا من آثار ذلك العهد البعيد (١) .

كما نلاحظ أن الامثلة مبنية على الاستعارة التصريحية قد شبهت فيه حالة المضرب بحالة المورد إذ يعبر عن حالة المضرب بالعبارة التي قيلت في حالة المورد على سبيل الاستعارة التصريحية النمثيلية إلا إذا كان المثل صيغة تفضيل فيكون ضرب المثل تشبها عاديا .

والأمثلة النسائية السابقة كاما ترتبط بحادثة أو قصية ، وقعت وهى _ كما قدمنا أولا _ تعبر عن خلاصات لتجارب صدرت في أكثرها عن ذكاء ودقة ملاحظة ونفاذ بصيرة ، كما فلاحظ ارتباطها بالبيئة العربية ، وأنها صدى لها وتعبر عنها تعبيراً فطرياً صادقاً ، لا تسكلف فيه ولا تصنع إذ هو إحساس الامة وشعورها وقلبها النابض ، ولذلك قيل (المثل صوت الشعب) .

وأغراض الأمثلة التي قالت فيها المرأة العربية متشعبة وكثيرة فمنها ما يتصل هالحرب كقول الحمراء بنت ضمرة: دصارت الفتيان حماً ، وقول حذام بنت الريان: دلو ترك القطا ليلا إلنام، ومنها ما يكون فى مقام المفاضلة كقول قذود بنت قيس دماء ولا كصداء ، ، دومرعى ولا كالسعدان ، ومنها ما يضرب فى افتخار الرجل بعشيرته وقومه كقول العجفاء: دكل فتاة بأبها معجبة ،

ومنها ما يمثل النهىءن صفة مذمومة أو ممدوحة كقولها : «أغيرة وجبنا» و دينى يبخل لا أنا ، و دلا تأمنى الأحمق وفي يده سكين ، و درمتنى بدائها

⁽١) تطور الأساليب النثرية: ٩٣٠

وانسلت، ومنها ما يمثل منهج خاصاً أو اتجاهات معينة أو أغراض أخرى تفهم من السياق المتقدم، هذا وتتخذ الامثلة فى الدراسات الحديثة مفاتيح لمعرفة طبيعة الشعب واتجاهاته وميوله العميقة المستقرة فى نفوس أبنائه ،(١).

وما من ريب في أن هذه الأمثال تستحوذ على ضروب من الجمال الفني يرجم بعضها إلى اختيار ألفاظها وصيفها ويرجع بعضها الآخر إلى ما تعتمد عليه من تصوير أو سجع وتوقيع، وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأمثال الجاهلية تحتوى في بعض جوانبها آثاراً من الصنعة ، ولعل ذلك ما جعل الفاراني يقول : إنها من أبلغ الحكمة ، ويقول ابن المقفع أنها آنق للسمع بينها يقول النظام أنها د نهاية البلاغة ، لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكفاية ، وطبيعي أن تظهر الصنعة في بعض الأمثال الجاهلية ، فقد كان العرب حينتذ مشخوفين بالبيان والبلاغة وصور القرآن الكريم هذا الجانب فيهم ، فقال جل شأنه د ولتعرفهم في لحن القول ، وقال : د وإن يقولوا تسمع لقولهم » وقال : د ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، .

وفى جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الملحة فى استهالتهم الأسماع بجهال منطقهم وخلابة السنتهم، وقد دفعتهم تلك الرغبة دفعاً إلى تحسين كلامهم وتحبير الفاظهم حتى فى أمثالهم، وهيأ لذلك أن كثيراً من بلغائهم وفصحائهم أسهموا فى صناعة هذه الأمثال ؛ فسكان طبعياً أن تظهر فيها خصائصهم الفنية التى يستظهرونها فى بيانهم وتدبيج عبادانهم حين ينظمون أو يخطبون .

⁽١) النصوص المقررة ١ / ١٤٥ ــ الأهرام ــ القاهرة .

⁽٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٦ .

सिधिसिध

النثر في العصر الإسلامي وعصر بني أمية

كان المرأة العربية فى صدر الإسلام وبنى أمية نشاط ملحوظ، ونبه شأنها فى النثر ونقده ، وكان للنساء دور هام فى تحميس المفاتلين فى الحروب والغزوات بخطيهن الرنانة ، وألفاظهن الصخمة المجلجلة ، وكأن خطبهن فى النحميس سحر بابل ، يقذفن بالخطب الحارة ، كالفحول تهدر فى الشقاشق مثل : عكرشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى الهمدانية .

كاكان لغيرهن في مواقع أخرى مواقع مشهودة ، وخطب وأقوال مشهودة ، فقد شهدت أسماء بنت أبي بكر اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام ، وابنهاعبد الله بن الزبير ، وكان موقفها من ابنها ، ونصحها له بالقتال حتى الموت في حربه مع الحجاج بمكة قدرة تفوق قدرة الرجال . وشهدت السيدة عائشة موقعة الجل ، وخطبها في هذا المقام مدوية ومعروفة ، كما شهدت الخنساء موقعة القادسية ، وحديثها في هذه الموقعة لبنيها يأسر القلوب ويحرك الوجدان ، فسكانت تحضيهم على الجهاد والصبر والثبات ، بكلماتها الآسرة وعباراتها البليغة عماكان له الآثر الآكبر في إذكاء نار الجاسة في قلوب المجاهدين ، فهبوا يدافعون عن بيضة الإسلام ، في عزم وثاب ، ونفس متطلعة إلى النصر ، وحقق يدافعون عن بيضة الإسلام ، في عزم وثاب ، ونفس متطلعة إلى النصر ، وحقق الله أملهم ، ففازوا بالنصر المبين ، والظفر العظيم .

كما لا تنسى منتديات الآدب والشعر مجالس سكينة بنت الحسين فقدكان يفد إليها الآدباء والشعراء والنقاد فيحتكمون إليها فيها أنتجته عقولهم وأفكارهم من النظم والنثر ، وتناقشهم مناقشة أدبية جادة ، وتقنعهم بوجهة نظرها ،

فى غير حيف ولا شطط ، حتى شهد لها علماء الآدب برسوخ قدمها فى هذا الميدان .

وأفضل كلام نبدأ به نثر النساء ؛ حديث النسوة الذى رواه الشيخان البخارى ومسلم .

بلاغة النساء (كما رواها الشيخان)

﴿ حديث أم ذرع ﴾

فقد أخرج البخارى ومسلم (۱) والترمذى فى الشائل وأبو عبيد القاسم ابن سلام والهبثم بن عدى والحرث بن أبى أسامة والإسمعيلي وابن السكيت وابن الأنبادى وأبو يعلى والزبير بن بكار والطبراني وغيرهم ، واللفظ لمجموعهم .

عن عائشة رضى الله عنوا ، قالت :

جلست إحدى عشرة امرأة من أهل اليمن ، فتعاهد ن وتعاقد ن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً .

فقالت الأولى: زوجى لحم جمل غث ، على رأس جبل وعث ، لا سهل فيرتق ، ولا سمين فينتقل .

قالت الثانية : ذوجي لا أبث خبره، إنى أخاف أن لا أذره ، إن أذكره أذكره عُمرَه وبجرَه .

قالت الثالثة : نوجى العَـشـ: ـَق ، إن أنطق أطلـَق ، وإن أسكت أعلـَق ، [على حدُّ السِّـنان المذلـَق] .

قالت الرابعة : نوجىكليل تهامة ، لاحرَّ ولا قدَّرَّ ، ولاوخامة ولاسآمة ، [والغيث غيث غمامة] .

قالت الخامسة : زوجى إن دخل فهد ، وإن خرج أسد ، ولا يسأل عما عهد [ولا يرفع اليوم لغد] .

⁽۱) راجعنا هذا الحديث على صحيح مسلم ١٥: ٢١٢ والنجريد للزبيدى٢١٢:٢ وفيما بين الأقواس زيادة ليست في هذين الكتابين .

قالت السادسة : ذوجن إن أكل السَف (١١) ، وإن اضطجع النف الواخ اغتث] ولا يولج السكف ، ليعلم البث .

قالت السابمة : زوجى غياياء ، أو عياياء طباقاء ، كل دا. له داء ، شجك [أو بَجك] أو ذلك أو جمع كلا لك ِ .

قالت الثامنة : دوجىالمسُّ مَس أدنب ، والريح ديح ذَرَّ نب [و أنا أغلبُـه والناسَ يَغلِـب] .

قالت التاسعة: ذوجى دفيع العهاد، طويل النَّـجاد، عظيم (٢) الرماد، قريب البيت من الناد [لا يشبع ليلة يُسطاف، ولا ينام ليلة يخاف] .

قالت العاشرة : زوجى ما إك ، وما كملك (٢) مالك خير من ذلك ، له إبل قايلات المسادح ، كثيرات المبادك ، إذا سمعن صوت الميدوهر أيقن أنهن هو الك ، [وهو إمام القوم في المهالك] .

قالت الحادية عشرة: زوجى أبو ذرع، وما أبو ذرع ؟ أناس من حلي ادنى [وفرعي] وملا من شحم عضدى ، وبح تحنى فبجحت نفسى إلى (٤) ، وجدنى فى أهل غنيمة بشق ، فجعلى فى أهل صهيل وأطيط ودارس ومشنق ، فعنده أقول فلا أنبس ، وأرقد فأ تصبر ، وأشرب فأ تقنح ، وآكل فأ تمنس . أم أبى ذرع ؟ عكومها رداح ، وبيتها فساح .

⁽١) فى رواية البخارى ومسلم: لف.

⁽٢) فى رواية البخارى ومسلم : رفيع .

⁽٣) فى رواية البخارى ومسلم : وما مالك .

⁽٤) فى رواية البخارى ومسلم : فنحجت إلى نفسى .

ابن أبى زرع : فما ابن أبى زرع ؟ كمسل شطئبة ، وتشبعه ذراع الجفرة ، وترويه فيقة اليعشرة ، ويميس في حلق النثرة] .

بنت أبى ذَرَع : فما بنت أبى ذرع ؟ طوع أبيها ، وطوع أمها [وزين أهلها ونسائها] وعقر (١) جارتها [قباء أهلها ونسائها] وعقر (١) جارتها أقباء مصنيمة الحشا ، جائلة الوشاح ، عكناء ، فعماء ، نجلاء ، دعجاء ، رَجَساء ، وجَساء ، قنواء ، مؤنقة منشفقة ، بَرُود الظل ، وفي الآل ، كريمة الخسِل] .

جارية أبى زرع : فما جارية أبى زرع ؟ لا تبُستٌ حديثنا تبشئيثاً ، ولا تنقيُّت ميرتنا تنقيثاً ، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً .

[ضيف أبي ذكرع : فما ضيف أبي ذرع ؟ في شبع وريى ور تع (٢٠] .

[طهاة أبى زرع : فما طهاة أبى ذرع ؟ لا تفتر ولاتمرى ، تقدح وتنصب أخرى ، فتلحق الآخرة بالأولى] .

[مال أبي زرع : فا مال أبي ذرع ؟ على الجم ممكوس ، وعلى العفاة عبوس] .

قالت: خرج أبو ذرع من عندى والأوطاب تمخض ، فاتى امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فنكحها فأعجبته (١) فلم تول به حتى طلقنى [فاستبدات وكل بَدَل أعود] فنكحت بعده رجلا

⁽۱) قال ابن الآثير: صفر ردائها ومل كسائها؛ أى أنها ضامرة البطن، فكأن رداءها صفر، أى خال، والرداء ينهى إلى البطن فيقع عليه ·

⁽٢) وعقر جارتها ، أى هلاكها من الحسد والغيظ ، ورواية البخارى ومسلم : وغيظ جارتها .

⁽٣) الرتع: التنم .

⁽٤) عبارة البخارى ومسلم: يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلقى و تكحما ، فنكحت بعده رجلا سريا ، وركب شريا .

⁽ ٧ -- أدب النماء)

سریاً ، شریاً ، رکب و اخذ خطیا ، و اراح علی نعماً ثریا ، و اعطانی من کل رائحة زوجاً ، وقال : کلی ام زدع ، ومیری اهلك .

قالت : فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زدع.

قالت عائشة: فقال لى رسول الله عَيَّالِيَّةِ: «كنت لك كأبى زرع لأم زدع، إلا أنه طلقها ، وإنى لا أطلقك ، ، فقالت عائشة : بأبى أنت وأمى 1 لانت خير لى من أبى زدع لام " ذرع .

[الغث : الهزيل . والوَّءث : الصعب المرتقى . وينتقى أى ايس له إنقى يستخرج ، والندِّق ؛ المنح . وأرادت بمجره وبجره عيو به الظاهرة والباطنة . والمشنَّق: السيم الحلق، والمذلق: المحدد . والرخامة: الثَّهُل . وفهرِد وأسد: فعل فِعل الفهود من اللَّهِين وقلة الشر ، و فعل الأسود من الشهامة والصرامة بين الناس . واقتف : جمع واستوعب . واشتف : استقصى . وغيايا. (بالمجمة) المنهمك في الشر. وعيالاً (بالمهملة) الذي تعييه مباضعة النساء. وطباقاء: قيل: الاحمق، وقيل: الثقيل الصدر عند الجماع. وشجَّك: جرح رأسك. وبجَّـك: طعنك. وفلمَّك: جرح جسدك. والأدنب: دُويبَــة لينة الملس ناعمة الوبر . والزَّر نب : نبت طيب الربح . والنِّيجاد : حماثل السيف . والِمازهر: آلة من آلات اللهو . وأناس: أثقل . وفرعيٌّ : يديُّ . وبجحني : عظمني. وغنيمة : تصغير غنم ، وشق (بالكسر) جهد من العيش . وأهل صهيل؛ أى خيل، وأطيط: أى إبل. ودائس: أى زرع. ومندق" (بضم الميم وكسر النون وتشديد القاف) أى أهل نقيق ، وهو أصوات المواشى ، وقيل الدجاج. وأتصبح: أنام الصُّبحة. وأتقنح: لا أجد مساغا. وأتماتيح أطعم غيري . والعكوم : الأعدال . ورداح : ملأى . وفساح : واسع . والشطبة : سعفة النخل أى أنه مهفهف خفيف اللحم ويؤخذ منه استحباب حسن المعاشرة للأهل وجواز الإخبار عن الأمم الخَّالية والتنافس في اختيار الازواج].

السيدة عائشة ترثى أباها

فالت عائشة في دثا. أبيها:

ونظر (۱) الله وجهك يا أبت ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كفت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولتن كار أبحل الحوادث بعد رسول الله ويتلي وزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعسد بحسن الصبر فيك حسن العوض منك ، وأنا أستنجز موعود الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه (۲) بالاستغفاد لله ، أما لأن قاموا بأمر الدنيا ، لقد قمت بأمر الدين ، لما وهي شعبه (۳) وتفاقم صدعه (۱) ، ورخفت (۵) ، حوانبه ، فعليك سيلم الله ، توديع غير قالية (۱) لحياتك ، ولا زادية (۷) على القضاء فيك ، (۸) .

و نلاحظ من قراءتنا للنص أن السيدة عائشة موفقة في اختياد الفاظها ، وعباراتها المنتقاة تعطى من المعانى ما لا يعطى غيرها فقد بدأت الموضوع باختيار موفق (نضر الله وجهك يا أبت) فجاء لفظ نظر براعة استهلال للكلمة ، وقد عبرت عن فجيعتها بكلمات موجزة بليغة ، أعطت لنا المعانى الكثيرة « الشجن و الحنين و اللوجد ، و الإكبار و الإجلال بأسها وقرة عينها ، والبر و الوفاء لمن صنعها على عينه و رباها في رحابه ، و هو الحب غرسته عينها ، والبر و الوفاء لمن صنعها على عينه و رباها في رحابه ، و هو الحب غرسته

⁽١) نضر : حسن . من النضارة والنضرة ، وهي الحسن .

 ⁽۲) أستقضيه : أطلب قضاءه وما عنده · (۳) وهى شعبه : ضعف جمعه .

⁽٤) تفاقم إصدعه: زاد تشققه. (٥) رجفت: اضطربت.

⁽r) قالية "إكارمة . (v) ذارية : عائبة والأعة .

١٥٧ | البيان والتبيين ٢ / ٢٤٠ . نهاية الأرب ٥ / ١٥٧ .

فى مفارسه من الجوائح يد الرحن ، فما يستطيع أى إنسان أن ينتزعه ، وهو حب رسخت أصوله وذهبت فروعه فى السهاء فهو خالد على الآيام ومر الآءوام (١)

العاطفة الحزينة الجياشة

وقد عبرت السيدة عائشة عن العاطفة الحزينة الجياشة ، أصدق تدبير والنساء في هذا الميدان كما قده نما تجدهن يستنبطن في هذا الباب أساليب بديعة لم يتنبه لحما الفحول ، لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع في المصائب وصدق الحس ، فيبرزن عواطفهن الحزينة في بيان سلس ملتاع ، وكلام حزين أخاذ ، وهن أكثر من الرجال ذكراً للوعة ، وأكثر حديثاً عن البكاء والدموع والوجيعة ، لأرب ضعفهن وأنو ثنهن وسرعة انفعالهن كل أو لئك يتجلى في قصويرهن للنرح بالحديث عن البكاء ومخاطبة العيون والدموع ، والنساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدها على هالك لما دكب الله في طبعهن من الخور وضعف العربية وشدة الجزع ودواعي الرثاء (٢).

والعاطفة الحزينة المشبوبة تمليها الخطوب وتشعلها الحوادث والمواقف العنيفة، تجد المجال أمامها فسيحاً في صدور النساء والولدان، فتترك فيها أعمق الآثاد، وتدفعها في طريق الانفعال، فإذا أخذ هذا الانفعال صورة الخطابة أو الشعر أو المقال، فهذاكالادب الرفيع، والشعر الرائع، والخطابة الباهرة، والسحر الحلال، فالعاطفة القوية هي التي تمنح الادب الحياة، وتهبه فيضاً من الحرارة والقوة.

وهذا هو ما تترجم عنه الخطبة ، وتعرضه في كل كلمة من كلماتها ، كما تلمح

⁽١) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥.

⁽٢) كتاب المددة ٢ / ١٢٣ .

من خلالها شخصية السيدة عائشة الحربنة المشغوفة ، البادة الوفية ، المثنية المكبرة المؤمنة الصابرة ، الذاكرة الشاكرة .

وهذا الحزن القوى، وتلك العاطفة المشبوبة طبعا الأسلوب بطابعهما، وقد استمر هذا الفيض من قوة الشعود والعاطفة ، وقوة التعبير ماثلا في الخطبة كلها، فاحتفظ بمسترى واحد من بدتها إلى نهايتها ، وأعتقد أنها لو أطالت لبق كلامها كله على هذا النمط الرفيع الذى هو أليق الأنماط بالرثاء من لفظ شجى إلى عاطفة حرسى، ومن صدق التعبير إلى وضوح المعانى، ومن سهولة الأسلوب إلى استيفاء الغرض، ومن شيوع الطبعية فى السكلام إلى الأخذ بقدد من جمال السنعة ، فى السجع والطباق والمقابلة والازدواج وتساوى الفواصل، وحسن التأليف الموسيق بين الالفاظ، المعانى والموسيق والنغم وجمال الإيقاع (١٠).

خطبة السيدة عائشة في الفخر بأبها

ذكروا أنه جاء عائشة أن قرماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت إلى جماعة من الناس ، فلما حضروا أسدات أستارها ، ثم قالت :

د أبي وما أبيسه ا أبي والله لا تعطوه (۲) الآيدى ، ذلك طود منيف (۲) ، وفرع مديد (٤) ، هيمات ، كذبت الظنون ، أنجح (۵) إذ أكديتم (۲) ، وسبق إذ ونيتم ، سبق الجواد إذا استولى على الآمد (۷) ، فتى قريش ناشتاً ، وكهفها

⁽١) الخطاية في صدر الإسلام ج ١: ٣٩٥ .

 ⁽٣) تعطوه: ثناله.
 (٣) طرد منيف: جبل مشرف .

⁽٤) فرع : الفرع أعلى الشيء ، والشريف من القوم .

⁽٥) أنجح: نجح . (٦) أكدى: لم يعط خيراً .

 ⁽٧) الأمد: الغاية والهاية .

كهلا، يفك عانيها، ويريش مملقها (۱)، ويرأب شعبها (۲) ويلم شعثها، حتى حليتُه (۲) قلوبها، ثم استشرى (٤) فى دين الله، فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل (٥)، حتى اتخذ بفنائه مسجداً، يحيى فيه ما أمات المبطلون.

فأكبرت ذلك رجالات من قريش ، فحبت قسيها وفو"فت سهامها (١) ، وامتثلوه غرضاً ، فما فلوا له صفاة (٧) ، ولاقصفوا له قناه ، ومرعلي سيسائه (٨) .

وهذا اللاحظ أن النص يسير على نسق آخر مخالف لنسق بكائها على أبيها فلكل مقام مقال كما قال أرباب البلاغة ، والسيدة عائشة كما لا يخنى نابغة فى الذكاء والفصاحة والبلاغة فاختارت لكل موضع مايناسبه من الألفاظ والعبارات ؛ فإن مقام الافتخار يتطلب الألفاظ الصخمة ، والعبارات الفخمة الرنانة : استمع إلى قولها تصف أباها بالطود المنيف والجبل الآشم والفرع المديد وأنه سباق بلغ الفاية ، وأربى على النباية تجد بلاغة النبوة تشع من لهاتها ، وسحر البيان ينبع من ثناياها ثم أسبغت عليه من الصفات الاجتماعية أنبلها ، ومن أفعال المروءات أشرفها وأبحدها (يفك العانى ، ويغنى الفقير ، ويلم الشعث ، ويرأب الصدع) .

والسيدة عائشة هنا غاضبة فخورة مدافعة محتجة ، فالعوامل على التفخيم والنهويل منظاهرة، من أجل ذلك حشدت فى خطبتها ما ينبغى لهذا الموقف من عدة ، وشاكلت بهناللمظ والمعنى فى الشرف والجودة والنقاء ، وعنيت بالفواصل

⁽١) يريش المملق: يعين الفقير .

⁽٢) رأب الشعب: أصلح الشق والكسر.

 ⁽٣) حليته القلوب: وجدته حلواً .
 (٤) استشرى : غضب و تعمق .

⁽٥) الشكيمة : الآنفة والإباء .

⁽٦) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع السهم .

⁽۷) الصفاة: الحجر الصلد . (۸) سيسانه: أي شدته .

وتقصير الجمل، وترادف التأكيد، والتأليف ببن الألفاظ تأليفاً يوفر لهما الإيقاع والوزن وجمال المقاطع، ومنحت قولها من صدق الإيمان وحرارة الانفعال قوة ووقعاً وتأثيراً، والحق أن السر الاكبر فيها لهذه الخطبة من سلطان في النفوس راجع إلى تخير الالفاظ المشاكلة للغرض، وحسن مواهقتها للمعانى، الفاظلها من فخامتها وجرالتها وقوتها جلال في القلوب، وسلطان على النفوس، إلى ما انضم لذلك من مزايا الاسلوب، التي أشرنا إليها (١).

وتمضى السيدة عائشة في مفاخر أبيها فتقول :

«فلما قبض الله نبيه وتشكيلي ضرب الشيطان رواقه (٢) ، و مد طفه به (٢) ، و فصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله (٤) ، واضطرب حبل الاسلام ، و مرج عهده (٥) ، و ماج أهله ، و بغى الغوائل ، فظنت رجال أر قد أكثبت أطهاء به (٢) ، ولات حين الذي يرجون ، وأنسى والصديق بين أظهرهم ؛ فقام حاسرا مشمراً ، فجمع حاشيتيه (٧) ، و دفع قسطريه (٨) ، فرذ رسن (١) الإسلام على غرابه (١٠) ، و لم شعشه بطربسه (١١) ، وانتاش (١٢) الدين فنعشه ،

⁽١) الخطابة في صدر الإسلام جو ١: ٣٩٨.

⁽٢) الرواق: الخيمة والفسطاط.

⁽٣) الطنب : الحيل أو الوتد تشد به الخيمة .

⁽٤) أجلب: صاح. الخيل هنا راكب الخيل. والرجل اسم جمع راجل أي ماش. (٥) مرج: اختلط واضطرب وقلق وفسد.

⁽٦) أكثبت: قربت. (٧) الحاشية الجانب والطرف.

 ⁽A) القطر : الناحية .
 (P) الرسن : الحبل .

⁽١٠) الغرب: حد الشيء . والمراد هنا الظهر .

⁽١١) الشعث : المتفرق . (١٢) انتاش : انتشل نعشه ، وأنعشه : رفعه .

فلما أداح (۱) الحقّ على أهله ، وقرر الرءوس على كواهلما ، وحقن الدماء في أهمه به أقته منيته ، فسد تُهمته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة والممدلة ، ذلك ابن الخطاب ، فدلله در (۳) أمّ حملت به ، ودر ت عليه ، لقد أو حدت به (٤) ، ففتخ (٥) الكفرة وديّـخما (١) ، وشرد الشرك شدر مدر (٧) و بَعج (٨) الآرض و بَخمها (٩) ، فقاءت (١) أكلما ، ولفظت خبئاها ، تر أمه (١١) ويصد ف عنها ، وقصد عنها ، وقصد كا صحبها .

فأدونى ماذا ترتئون؟ وأى يومى أبى تنقمون؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم، أم يوم ظمنه إذ نظر الـكم؟ (١٢) أقول قولى هذا وأستغفر الله لى والـكم، .

ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت : «أنشدكم الله ، هل أنكرتم ما قلت شيئاً ؟ قالوا : اللهم لا ، (١٣) .

وقد جاءت خطبتها فريدة فى نوغها وأتت لها البلاغة منقادة طائعة ، كيفلا وقد تربت فى مدرستها ، ورضعت من لبانها ، وقد صورت جهاد أبيها فى محاربة المرتدين والوقوف أمامهم أدق تصوير وأبلغه : ما أدوع الاستعارات

 ⁽۱) أراح الحق : رده .
 (۲) الأهب : جمع إهاب وهو الجلد .

⁽٣) الدر : اللبن والنفس والعمل. والمراد التعجب ، كأن ذلك لعظمته منسوب (لله) . (٤) أوحدت به : جاءت به واحداً لا نظير له.

⁽٥) فنخ : أذل وقهر . (٦) ديخ : دوخ : قهر وأذل .

⁽٧) شذر مذر: في كل اتجاه . (٨) بعج الأرض: شقها .

⁽٩) بخع: قهرها واستخرج ما فيها من الكنوز .

⁽١٠) قاءت أكلما: أخرجت خيراتها . والأكل ما يؤكل .

⁽١١) رأمه: تعطف عليه . (١١) نظر الم : عطف عليكم .

⁽١٢) صبح الأعشى: ١ / ٢٤٨ . العقد الفريد ٢ / ٢٠٦ نها ية الأرب ٧ / ٢٣٠

فى قواماً ، ضرب الشيطان رواقه ومد طنبه ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله ، واضطرب حبل الإسلام ، ثم بينت كيف أن الصديق حينها رأى ذلك قام حاسراً مشمراً يدافع عن بيضة الدين ، ويردكيد المعتدين فى عزم وثاب ، وهمة متطلعة إلى النصر ، وقد حقق الله له أمله ، فولى المرتدون مذؤومين مدحورين وأضحت كلمة الله هى العلما وكلمة الذين كفروا السفلى منت كيف أنه حق الدماء وردرسن الإسلام على غربه ، ولم الشعث ورأب الصدع .

و إلا أن ماينبغي أن يلاحظهنا هو أن أم المؤمنين قد حشدت في هذه الخطبة حشداً من العبادات الفوية الرفانة ، والألفاظ الضخمة ، والسكايات التي لم يو لف مثلها عند الذي عَلَيْكُتُر ؛ ولا الخلفاء من بعده ؛ ولم تجنح هي إلى استعمالها فى رثائها لابها ، حُتىصارت الخطبة كاما نسيجاً واحداً ، وهيكلا صلباً متهاسكا . وليس العلم باللغة ومفرداتها ، صعبها وسهلها بمستغرب منها ؛ ولكن الذي نريد أن نذهب إليه هو أن السيدة عائشة قد تعمدت تعمداً أن تسوق خطبتها هذا المساق ، وأن تخرجها على هذه الصورة من الشدة والصلاية والأسر ، لنسترعى المتباه الساممين ، وتقرع أسماعهم وبصائرهم بهذه القسددة الباهرة فى القول ، والبلاغة الظاهرة في الخطابة ؛ ورغبة في مفاجأتهم بما يهرهم من الإحسان ؛ والعلو عليهم بما يقهرهم من الحجة ؛ وركوبهم بما يشدههممن الفصاحة ، ورميهم كا شاءت بصدتم الجنادل ، فتضيف بذلك إلى شخصيتها عاملا آخر ؛ يضاعف مكانها من نفوسهم ؛ ويبسط سلطانها عليهم ، فتصل إلى ما أرادت من طريق قريب ؛ وعلى أحسن وجه ، فما لا شك فيه أرب قوة الشخصية والمقدرة الخطأبية تتفاعلان وتتعاونان ، وقد ساعدها على النجاح فيما قصدت إليه بحشد هذا الحشد من العبادات والتشبيهات والاستعادات والتمثيل والصور ، دويَّـة أتبيحت لها ، وإعداد واتتها فرصته ، حينها بلغها ما بلغها ، فأدادت هذه المعانى

فى نفسها ، واختارت لها من الالفاظ أشباهها ، واستحضرت فى دُهنها من الصور والتشبيه والاستعادة مايلاتمها ، حتى إذا دعت من دعت فلبوا دعوتها ، خرجت عليهم بتلك الخطبة التى أعدتها فى نفسها رزوً رتها ، (١).

ولام المؤمنين خطب وأفوال أخرى أثرت عنها ليس فيها مثل هذا الإيغال في الاستعارات والعبارات النازحة غير المألوفة ، ولا قريب منه ، فالميل إلى السهولة والطبعية والبعد عن التسكلف كان السمة الغالبة على خطب العصر وأفواله وقد نشأت رضى الله عنها أسمح نشأة ، في حمى كهفين للفصاحة ، ومنبعين للبلاغة وفي ظل مدرسة تنشر في الحافقين لواء الإسلام ، ونجعل القرآن إماماً في هديه ومثلا في سماحة أسلوبه ، وقدوة في نهج بلاغته ، وما نزعت في خطبتها هذا المنزع إلا وقد ترجّم عندها اختيار الاسلوب المشاكل لذلك الموقف ، لما هي فيه من غضب ودفاع واحتجاج وفخر .

وكتبت إلى معاوية : أما بعد فإنه من عمل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً .

وقالت: من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أرضى الناس بإسخاط الله وكله الله إلى الناس . وقالت : سلوا دبكم حت الشسع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر ، وقالت : يا بنى لا تطلبوا ما عند الله من عند غير الله يما يسخط الله .

وقالت: مكادم الآخلاف عشر تكون فى العبد دون سيده، وفى الخامل دون المذكور، وفى المساود دون السيد: صدق الحديث وأداء الأمانة والصدق والصبر فى البأس والتذمم للصاحب والتذمم للجاد، والإعطاء فى النائبة، وإطعام المسكين، والرفق بالمملوك، وبر الوالدين.

⁽١) نفس المصدر ص ٤٠١ .

وقالت: كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به ، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به . وقالت : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها و بغض من أساء إليها وقالت : إن لله خلفاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معما فأف للجبناء فأف للجبناء فأف للجبناء . وقيل لعائشة : إن قوماً يشتمون أصحاب محمد ويتيانية فقالت : قطع الله عنهم الاجر .

وقيل لها : أى النساء أفضل؟ فقالت : التي لاتمرف عيب المقال ولا تهتدى لمكر الرجال ، فارغة القلب إلامن الزينة لبعلها ، والإبقاء في الصيانة على أهلها .

وقالت: إنمـا النـكاح رق فلينظر امرؤ من يرق كريمته .

وقالت : المفزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله .

ورأت عائشة فى بيت امراة أثر المغرل فقالت لها: أبشرى بما لك عند الله عز جل، لو رأيتم بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لما أقررتم ليسلا ولا نهاراً ، ما مر امرأة غزلت لزوجها ولنفسها واصبيانها إلا أعطاها الله عز وجل بكل طاقة نوراً حتى ملات مغزلها ، فإذا ملات مغزلها أعطاها الله عز وجل بيتاً فى الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب ولها بكل ثوب مائة ألف وعشرين ألف مدينة ، وما على ظهر الارض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير بخرج من مغزل النساء حتى يذنهى إلى العرش له دوى كدوى النحل ويعدل عند الله عز وجل بمنزلة قول لا إله إلا الله عز وجل . بلغوا عنى النساء ما أقول : ما من امرأة غزلت حتى كسبت نفسها إلا استغفر لها سبع النساء ما أقول : ما من المرأة غزلت حتى كسبت نفسها إلا استغفر لها سبع مالكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولنسكن وخدمتكن لأولادكن أنتم مالكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولنسكن وخدمتكن لأولادكن أنتم المسا كين فى الدنيا والسابقون إلى الجنة مع أدواح الانبياء يغفر الله لمكن كل ذنب عملتين ما خلا الكبائر .

وقالت: التمسوا الرزق في خبايا الأرض . ورأت عائشة رجلا متمارتاً

فقالت: ما هذا ؟ فقالوا: زاهد ، قالت: قدكان عمر بن الخطاب زاهدا وكان إذا قال أسمع وإذا مشي أسرع وإذا ضرب في ذات الله أوجع .

ووهبت مالا كثيراً ثم أمرت بثوب لها أن يرقع وتمثلت بهذا المثل ، لا يعجز مسك السوء عن عرف السوء (١) .

وقال أبو سلمة : أنا أفقه من بال فقال ابن عباس : أجل فى المباول . وكان أبو سلمة ينازع ابن عباس فى المسائل ويماديه فبلغ ذلك عائشة فقالت : إنما مثلك يا أبا سلمة مثل الفروج سمع الديكة تصيح فصاح معها ، تعنى أنك لم تبلغ ابن عباس وأنت تماديه .

وقالت : علموا أولادكم الشعر تعذب السنتهم .

ولما مات عبد الرحمن بن أبى بكر بالحُــُبَــيش^(۲) وقفت عائشة على قبره فقالت :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا فلما تفرقنا كأنى ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة مما أما والله لو حضرتك لدفنتك حيث مت ولو شهدت لزرتك.

وقالت رحم الله لبيداً كان يقول:

قض اللبانة لا ألم لك واذهب والحق بأسرتك السكرام الغيب ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فسكيف لو أدرك زماننا هذا: ثم قالت: إنى الاروى ألف بيت له وإنه أفل ما أدوى لغيره .

وسمع النبي ﷺ وهي تنشد شمر زهير بن حباب :

⁽١) يضرب هذا المثل في الذي يكتم اؤمه وهو يظهر .

⁽٢) الحبيش : جبل بأسفل مكة .

ادفع ضعیفك لا بحل بك ضعفه یرمآ فتدرکه عواقب ما جنی بحریك أو یثنی علیك فیإن من آنی علیك بما فعلت كمن جری

فقال الذي عَلَيْكِيْنَةِ: صدق يا عائشة لا شكر الله من لا يشكر الناس. ورأت عائشة بنات طارق اللواتي يقلن :

نحرب بنات طارق أنهى على النمادة فقالت: أخطأ من يقول الخيل أحسن من النساد.

و بعثت عائشة عبد الرحمن بن الحادث بن هشام إلى معاوية بن أبي سفيان في حجر بن عدى وأصحابه . فقدم عليه وقد قتلهم فقال له : أين غاب عنك حلم أبي سفيان ؟ فقال : حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى وحملى ابن سمية فاحتملت وكانت عائشة تقول ؛ لولا أنّا لم نفير شيئاً قط إلا آلت بنا الآمور إلى أشد مما كنا فيه لفير نا قتل حجر ، أما والله إن كان ما علمت لمسلماً حجّما جا معتمراً . ولما حج معاوية من على عائشة فاستأذن عليها فأذنت له فلما قمد قالت له ؛ يامعاوية أين كان حلمك عن حجر ؟ فقال لها : ياأم المؤمنين لم يحضرنى رشيد . فقالت له : أمنت أن أخبأ لك من يقتلك ؟ قال : بيت الآمن دخلت ، قالت : يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه ؟ قال : لست أنا قتلتهم قالم من شهد عليهم .

وقدم معاوية المدينة فدخل عليها فذكرت له شيئاً فقال: إن ذلك لا يصلح فقالت: الذي لا يصلح ادعاؤك زياداً ، فقال: شهدت الشهود . فقالت : ما شهدت ولسكن ركبت الصليعاء . أي السومة أو الفجرة البادزة المكشوفة .

ولما أراد معاوية البيعة ليزيد ولده كتب إلى مروان بن الحسكم وهو عامله على المدينة فقر أكتابه وقال: إن أمير المؤمنين قدكبر سنه ودق عظمه وقد خاف أن يأتيه أمر الله قعالى فيدع الناس كالغنم لا راعى لها وقد أحب أن يعلم

علماً ويقيم إماماً ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ليفعل . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك الايكون ذلك ، لا تحدثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام هرقل . فقال مروان : خدره : فدخل في بيت عائشة فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه د والذي قال لوالديه أف لـ كما أتعداني ، فقالت عائشة من وداد حجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى .

ثم كتب بذلك مروان إلى معاوية . فأقبل معاوية و معه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة ومي بالمدينة فاستأذن عليها بعد أن بايع أهل الشام لابنه يزيد فأذنت له وحده ولم يدخل عليها معه أحد وعندها مولاها ذكوان فقالت عائشة : يا معاوية أكنت تأمن أن أفعد لك رجلا فأقتلك كما قتات أخى محمد بن أبي بكر ؟ فقال معاوية : ما كنت لتفعلين ذلك . قالت : لم ؟ قال : لأنى في بيت آمن، بيت رسول الله وَيُعَلِينُهُ ، ثم قامت عائشة خمدت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله ﷺ وذكرت أبا بكر وعمر وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما ثم صمتت، وأما معاوية فلم يخطب وخاف أن لا يبالغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالًا ، ثم قال أنت و الله يا أم المؤمنين العالمة بالله و برسول الله دللننا على الحق وحضضتنا على حظ أنفسنا وأنتأهل لأن يطاع أمرك ويسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكدالناس بيعتهم في أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم ، أفترى أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ، فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضي على أمره فقالت : أما ما ذكرت من عهود ومواثيق فاتق الله في هؤلاء الرهط ولا تمجل فيهم فلملهم لا يصنمون إلا ما أحببت ... ثم خرج ومعه ذكوان فانكأ على يدذكو ان وهو يمشي ويقول تالله إرب رأيت كاليوم قط خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله .

وسأل مرة بن الى عثمان مولى عبد الرحمن بن ابى بكر الصديق السيدة عائشة أن تكتب له إلى زياد و تبدأ به فى عنوان كتابها . فسكتبت له إليه بالوصاة به وعنو نته إلى زياد بن أبى سفيان من عائشة أم المؤمنين . فاما دأى زياد أنها قد كاتبته و نسبته إلى أبى سفيان سر بذلك وأكرم مرة وألطفه وقال للناس : هذا كتاب أم المؤمنين إلى فيه وعرضه إليهم ليقرؤا عنوانه ثم أقطعه مائة جريب على نهر الأم بلة (١) وأمره فحفر لها نهرا فنسب إليه .

* * *

وهذه هى الخنساء بنت عمرو السلمى ، لم تخرج كما خرجت هند بنت عتبة مبادرة إلى أحد ، تثأد لقومها ، وتشنى غيظ صدرها ، وتحاد الله ورسوله ، والحكم خرجت تحارب الشرك ، وتذود عن الإسلام ، وتدافع عن العقيدة وتجاهد فى سبيل الله ، وقالت لاولادها والحرب تبرق والاسنة تلمع :

ديا آبنى إنكم أسلم طائعين ، وهاجرتم مخنادين ، ووالله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كا أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجة نت حسبكم (٢) ، ولا غبسرت نسبكم (٢) ، وقد تعلموا تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين ، واعلموا أن الداد الباقية ، خير من الداد الفانية ، يقول الله عز وجل : «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، وانقوا الله اعلم تفلحون ، . فإذا أصبحتم غداً فاغدرا إلى قنال عدوكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنصرين .

⁽١) الآبلة : بلدة على شاطىء دجلة ، البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة .

⁽٢) هجنت حسبكم: خلطت إيمفاخركم ما يضع منها .

⁽٣) غرت لسبكم : لطخته بعار وغبار .

فلما أن أضاء لهم الصبح باكروا مواقعهم فى حومة الوغى، فتقدموا إلى الشهادة وهم ينشدون الأراجيز، وسعوا إلى لقاء دبهم مستبشرين (١٠).

وأنشأ أولهم يقول :

يا إخوتى إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البادحة مقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحربالضروسالكالحة وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان المكلاب النابحة قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة صالحة أو ميتة تورث مخنها رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل، ثم حمل الثاني وهو يقول:

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأونق والرأى المسد قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرآ بالولد فباكروا الحرب حماة فى المدد إما لفوز بادد على السكبد أو ميتة تورثكم عز الأبد فى جنة الفردوس والهيش الرغد

فقاتل حتى استشهد ثم حمل الثالث وهو يقول :

والله لا ندص العجوز حرفا قدد أمرتنا حدباً وعطفاً نصحاً وراً صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب الضروس ذحفاً حتى تلقوا آل كسرى لها أو يكشفوكم عن حماكم كشفا إذا نرى التقصير منكم ضعفاً والفتل فيدكم نجدة وزلني

⁽٣) خرانة الأدب ١ / ٣٩٥ .

فقائل حتى استشهد، ثم حمل الرابع وهو يقول :

لست لخنساء ولا للآخرم ولا اممرو ذى السناء الآفدم السناء الآفدم المنت لم أزد في الجيش جيش الاعجم

ماضى على الحسول خضم حضرم الما لفسود عاجسل ومغنم أو لوفاة فى السبيل الاكرم فقاتل حتى قتل، فبلغها الحبر فقالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من دبى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته.

وهى تصور لنا فى خطبتها الصبر والثبات فى عبارات قوية مؤثرة تزين لبذيها ما أعد الله للمسلمين من الثواب فى الآخرة، والنهيم فى الجنة، مهونة فى نظرهم شأن الدنيا معلية شأن الآخرة، ونلاحظ أنها فى أسلوبها تقتبس بعض تنات من القرآن الكريم للاستشهاد بها ، وما أجمل اقتباسها فى هذه النخطبة بآيات الصبر والمرابطة فى آل عمران ديأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا .

ولقد كانت الخنساء صادقة في عقيدتها ، مؤمنة بدعوتها ؛ فلذلك ترى لكلامها حلاوة الطبع ، وجمال الوقع ، وحسن اللفظ ، وقرب المعنى ، والبعد من الاستكراه ، والنوفيق في الاداء ، والقدرة على الإثارة ، إلى ما فيه من بلاغة الإيجاذ ، والاستغناء بالقليل عن الكثير من الكلام ، فقد ذكرتهم بالإسلام ، والحجرة ، ونقاء النسب ، وثواب المجاهدين وجزاء الصابرين ، ثم دعتهم بعد هذا القتال .

وكأن الجاحظ قد عنى هذا الكلام وأمثاله بقوله : دوأحسن الكلام ماكان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكأن الله عز وجل قدالبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، علىحسب نية صاحبه ، وتقوى

قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه . ومنزهاً عن الاختلال . ومصوناً من التكلف ، صنع في الفلب صنيع الغيث في التربة السكر بمة ، ومتى فصلت السكامة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من الترفيق ، ومنحها من التأييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة ، (١) .

وتلمح دقة أسلوبها ، وجريانه على ما تقتضيه الفنون البلاغية في إعطائها الكلام فصل تأكيد ، عند ما تقرر مبنوستهم لرجل واحد ، لأن هـذا الأمر هو الذي يجوز أن يتشكك فيه متشكك ، فجاءت بلام التوكيد مع إن في قولها : د إنسكم لبنو رجل واحد ، ولكنها استغنت عنها عندما قردت بنوتهم لامرأة واحدة ، ؛ لأن ذلك بما لا يتشكك فيه الناس عادة ، فقالت : «كما أنسكم بنو امرأة واحدة ، ، إلى آخر خطبتها البليفة الموجزة .

وقد آثرت الإبجاز هنا لأن المقام يقتضى ذلك فالمقام مقام حرب ودفاع، والسكلمة حينئذ للسيف والرمح، وليست للقرطاس والقلم، وكلماتها تعطى من للمانى ما لا يعطى غيرها، فكلمة ووقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب السكافرين، تعطى معانى كثيرة فلو أنها ذكرت تفصيل ذلك لطال الآمد، والوقت كما قلنا وقت مبادزة حربية لا مبادزة كلامية، وقولها وإن الدار الباقية خير من الدار الفانية، ينطوى تحتها الجنة ونعيمها وما فيها من متع يضيق الحصر عن عدها، كما ينطوى تحتها حقادة شأن الدنيا وما فيها من متاع الفرود وزخارف الحياة ما لو ذكرت ذلك أيضاً لما السع وما فيها من متاع الفرود وزخارف الحياة ما لو ذكرت ذلك أيضاً لما السع

« وإن كان يبدو من الأوفق - في رأبي ـــ لو أنها قالت : « ولا هجنت

⁽١) البيان والتبيين ١ / ٨٣، والخطابة ج ١ ص ٤٠٤ .

نسبكم ، ولا غبرت حسبكم ، مكان قولها : « ولا هجنت حسبكم ، ولا غبرت نسبكم ، و دلك لان الهجنة والنهجين في القول والفعل وغيرهما تجيء بمعني العيب والنعييب ، والقبح والتقبيح ، وهي في الحسب ما يضع منه ، ولسكنها في النسب النقص الذي يأتى من قبل الآم ، فالهجين اللئيم ، والعربي ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه (1) .

والنسب هو ذلك الجانب المقدس عند العرب ، كانوا يتفاخرون بصراحته ، ويتهاجون بهجنته ، والحنساء تحدث أبناءها بما حفظنه عليهم من المفاخر فى نسبهم ، وما أعلت به من قدرهم بين الناس ، فذكرها الشرف الذى جلبته لهم ، ونفيها عن نفسها وعنهم تهمة النقص الذى كار جائزا أن يلحقهما من قبلها دون غيرها ، وهو هجنة النسب أليق بهذا المقام ، وأبلغ فى المقال . وإضافتها الهجنة إلى النسب تحقق معنى لا تحققه إضافة التغبير إليه .

ويبق للحسب بعد ذلك شرفه الذى أدادته ، ويريده الناس لانفسهم ، حين تذكر نصاعته و تنتى التغبير والثدنيس عنه بقولها ، ولا غبرت حسبكم ، .

ولن ينقص قولها قدراً بهـذا النقد ، لأنهـا لم "تروّ فيه، ولم تعمد إلى تحبير .

بل قالت ذلك ارتجالا دون إعداد سابق(٢) .

⁽١) انظر القاموس المحيط ، مادة « هجن » .

⁽٢) وانظر الخطابة في صدر الإسلام ص ٥٠٠ .

نموذج رائع لحفيدة رسول الله تخاطب أهل الكوفة حدّث ابن أبي طاهر عن خِذام الاسدى ، قال:

قدمت الكوفة سنة إحدى وستين – وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن على علىهما السلام – فرأيت نساء الكوفة قياماً يَلتد من (١) ورأيت على بن الحسين عليهما السلام وهو يقول بصوت ضئيل قد نحل من المرض : يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فن قنلنا غيركم ؟ وسمعت أم كاثوم (٢) بنت على عليهما السلام وهى تقول – فلم أد خف رق والله أنطق منها ، كأنما تنزع عليهما السلام وهى تقول – فلم أد خف رق والله أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين على عليه السلام ، وأشارت إلى الناس أن امسكوا ،

⁽١) التدمت المرأة ضربت صدرها حزناً ونوحاً .

⁽٢) أم كلثوم: هي خطيبة قريش وقصيحتها أم كلثوم بنت على بن أبي طالب عليه السلام. وأمها سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله يراقيها ولدت في أخريات العهد النبوى وتزوجها عمر في خلافته وهي حدثة دون البلوغ وما أراد إلا أن يصل نسيه وسببه برسول الله ، وكان رضى الله عنه قد كلم علياً عليه السلام في أمرها ، فقال على : إنما حبست بناتي على بني جعفر ، فقال عمر : زوجنها يا على فوالله ما على ظهر الأرض رجل برصد من حسن صيتها ما أرصد ، فقال على : قد فعلت ، ثم غدا على بيته وأمر ببرد فطواه ، وقال لأم كاثوم : انطاقي بهذا إلى أمير المؤمنين فقولى له : أرسلني أبي يقرئك السلام ، ويقول : إن رضيت البرد فأمسكه ، وإن سخطته فرده ، فلما أنت عمر قال : بارك الله فيك وفي أبيك قد رضينا ، قالوا : فرجعت إلى أبيها فقالت : ما نشر البرد ولا نظر إلا إلى " ، فروجها إماه فأقامت عنده حتى قتل عنها وولدت منه زيداً ورقية ، ثم خلفته على ابن عمها عوف بن جعفر فات عنها عوف بن جعفر بن أبي طالب فات عنها ثم أعقبته على أخيه محد بن جعفر فات عنها غلفته على أخيه عبد الله بن جعفر فات عنها غلفته على أخيه عبد الله بن جعفر فات عنها عنده . وكان موتها هي وابنها زيد في يوم واحد رضي الله عنهما .

فسكنت الأنفاس وهدأت، فقالت: آلحد لله رب العالمين، والصلاة على جدى سيد المرسلين . أما بعد :

إنما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً نتخذون أيمانسكم دخلا ببنكم . ألا وهل فيكم إلا الصلف والشنف (۱) وملق الإماء ، وغيز الاعداء وهل أنتم إلاكر عن على دمنة (۲) ؟ وكفضة على ملحودة (۲) ؟ ألا ساء ما قد مت انفسكم أن مخيط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون ، أنبكون؟ إى والله فابكر ا وإنكم والله أحرياء بالبسكاء ، فابكوا كشيراً ، واضحكوا قليلا ، فلقد فرتم بعارها وشنارها ، بالبسكاء ، فابكوا كشيراً ، واضحكوا قليلا ، فلقد فرتم بعارها وشنارها ، ولن تر حضوه بفسل بعدها أبداً (٤) وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ، ومناد محجتكم و مدره حكمتكم (٥) و ثمضر خنازلنكم ، فتعساً ونكساً القد خاب السعى ، وحسرت الصفقة ، وبوتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ، لقد جئتم شيئاً إدا ، وبيك السموات يتفطر ن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا . أندرون ألى كيد لرسول الله فريتم ؟ وأى كريمة له أبرزتم ؟ وأى دم له سفكتم ؟ أن كيد لرسول الله فريتم ؟ وأى كريمة له أبرزتم ؟ وأى دم له سفكتم ؟ القد جئتم بها شوهاء خرقاء ، شرهما طلا ع الارض والسماء ، أفعجبتم أن القد جئتم بها شوهاء خرقاء ، شرهما طلا ع الأدض والسماء ، أفعجبتم أن

⁽١) الصلف الكبر والخيلاء والشنف المنكر عمن تمرقه .

⁽٢) الدمنة أثر الديار أو فضلاتها ينبت عليها مرعى أنيق الشكل مر المذاق وقد شبهوا بها كل شيء بموه لا خير فيه ·

⁽٣) الملحودة القبر ومثل الفضة على الملحودة كمثل مرعى الدمن وهما جيماً مثل الرجل المنافق.

⁽٥) المدرم المقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال .

قطرت السهاء دماً ا ولعذاب الآخرة أخرى وهم لا ينصرون ، فلا يستخفنكم المهل و فإنه لا تضفره المبادرة (١) ولا يخاف عليه فوت الثار . كلا إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد ، ثم ولت عنهم . قال فرأيت الناس حيارى قد ردوا أيديهم إلى أفواههم . ورأيت شيخا كبيراً من بني جعنى ، وقد أخصلت لحيشه من دموع عينيه ، وهو يقول :

كهولهم خير الكهول ونسلهم إذا عد نسل لا يبور ولايخزى(٢)

⁽١) حفزه : أعجله وأزعجه .

⁽٢) بلاغات النساء ج ٢٧ ــ ٢٩ .

خطب المناظرة

تكثر خطب المناظرة حين تنقسم السكلمة وتشستد الفرقة وتتسع دائرة الحلاف بين طائفة وطائفة، أو حزب وآخر، أو بين فردين كل منهما له وجهلة خاصة — فى موضوع ما — والمناظرة قد تشتمل على لون من المنافرات والمفاخرات استطراداً، فقد يستطرد أحد الفريقين بذكر فضائله أو فضائل قومه إذا عنت له فرصة أثناء المناظرة، وقد اتسعت المناظرة وامتدت أطرافها حينها اشتد النزاع بين على ومعاوية، وبين العراقيين والشاميين، ومن أبلغ خطب المناظرات تلك الخطبة الرائمة التي رواها الرواة للإمام على قالها حين كان الخوادج يخاصمون ابن عباس فقال له الإمام: دانته عن كلامهم ألم أبهك رحمك الله، ثم حمد الله وأثني عليه وقال:

اللهم إن هذا مقام من أفلج (۱) فيه كان أولى بالعلج يوم الفيامة ، ومن نطق فيه وأوعث (۱) فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم سألهم عن زعيمهم قالوا الله وابن الكوا ، قال على : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفية بن ، قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حينها رفعوا المصاحف فقاتم : نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم : إنى أعلم بالفوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنى عجبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ، امضوا على حقسكم وصدقكم ، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديمة وإدهاناً ومكيدة (۱) .

⁽١) أفلج: فاز وصير. (٢) أوعث: سار في الوعث، وهو الصعب،

⁽٣) الطيرى ٦: ٧٧ .

ومثل هذه الخطب داخلة فى الخطابة الدينية والسياسية معاً لأنها تعتمد على أصول دينية وتتفرع عن مسائل مذهبية ، وتفرعت منها الحلافات حول المسائل السياسية .

وإذا رأى بعضهم أن هذا اللون داخل فى نطاف الخطابة الاستدلالية التى تعتمد على المدح أو الذم ، وتتجه إلى الحسن والقبح أر الفضيلة والرزبلة فإنها بشيء من النحوير تتحول إلى خطابة استثارة سياسية (١) .

ومن النصفة الأدب العربي وللمرأة العربية ألا نففل في هذا المقام ذكر بعض النساء الآديبات في هذا العصر اللاتي أثر عنهن من المواقف ما لم يضن التاريخ الآدبي بتسجيله ، ولقد كان للحركة الشيعية فضل في إظهار بعض الشخصيات النسوية المحاربة الموالية لعلى — دضي الله عنه — ولأهل البيت ، وقد امتاز هؤلاء الآديبات الشيعيات فوق جرأتهن و بلائهن في سبيل العقيدة بمقددة خطابية لعلها كانت تمرة ضرودية من تمار ذلك العهد المقاتل المتنازع بمقددة على قوة السيف من ناحية أخرى .

ولقد كانت الحرب بين على ومعاوية أو بين أهل الشام وأهل العراق ، ميداناً فسيحاً لمواهب المحادبين والخطباء حتى لقد كانت امرأة مثل و عكرشة بنت الاطرش متقلدة حمائل السيف فى موقعة صفين المشهورة وهى واففة بين الصفوف تحض على قنال معاوية فى فصاحة و بلاغة وقوة عادضة ربما لم نرها لبعض البلغاء: وأيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى أن تقول دامضوا على بصير تسكم واصبروا على عزيمتكم ، الله عباد الله فى دين الله ،

⁽١) الخطابة في صدر الإسلام ١ / ٣٨٤٠

إلى الإمام العادل على توحيداً للسكامة ، ورأباً لصدع المسلمين ، وكأنى بها وهى على جمل أدمل كلون الرماد وبيدها سوط قد انتشرت ضفائره وهى تهدر كالفحل من الإبل يهدر فى شقشقته ؛ ديايها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظم ، .

وكان للزرقاء بنت عدى الهمدانية موقف لايقل روعة عن موقف أم الخير في الحث على قتال معاوية حتى أنه لم ينس خطبتها وهي راكبة الجمل الآحر ، وحين استقدمها من الكوفة بعد أن صارت إليه الخلافة ذكرها بخطبتها الى تقول فيها : دأيها الناس ، ارعووا وارجعوا إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجادت بكم عن قصد المحجة ، (1) .

ولعلنا اللاحظ أرب أسلومهن في الخطابة اهتدى بنور القرآن سسلاسة ووضوح قصد وسمراً في الفرض ، وإصابة للحقائق واطراداً للاحكام وعدوبة في اللفظ ، ودماثة في الاساليب وتما ألها بين العبادات ، وتباعداً عن الوحشي النافر والسوقي المبتدل ، واللفظ الغريب والسجع المفتعل ، وإيجازاً مع الخاصة وإطالة مع العامة وإيماء للعربي وتصريحاً الاعجمي حتى أنك الري الآية للمقتبسة من القرآن تدخل في الاسلوب فتعمه نوراً وتفرعه جمالا ، وتكسوه وعة وجلالا ، مع قرب المعاني وصدقها وابتداعها وابتكارها ، وارتياح النفوس إليها في أحكام (٢) مسلمة وحجج باهرة ، وبراهين قاطعسة ، وتشاييه دائعة .

ونسوق فيها يأتى بعض ما قالته أم الخير البادقية والرذقاء بنت عدى ، وبكادة الهلالية .

⁽١) الخطب والمواعظ : محمد عبد النني حسن ٣٦ ، ٣٧ .

⁽٢) الخطابة في صدر الإسلام ١: ٨٤٤ .

أم الخير بنت الحريش البارقية ؛ ترد على معاوية

كتب معاوية إلى واليمه بالكوفة : أن أوفد على أم الخير بنت الحريش ابن سراقة البارقية، رحملة محمودة الصحبة ، غير مذمومة العاقبة ، واعلم أني بجازيك بقواها فيك ، بالخير خيراً ، بالشر شراً . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها إيام ، فقالت أما أنا فغير زائفة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب . ولقد كنت أحب لها. أمير المؤمنين لأمود تختلج في صدرى ، وتجرى بحرى النفس يغلي بها غلى المرجل بحب البُلسُن (١) يوقد بجدل السمُر (٢). فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، إن معاوية قد ضمن لى عليــه أن يقبل بقولك في : بالخيرخير أ ، و بالشر شرآ ، فانظري كيف تـكونين ؟ قالت : يا هذا لا يُطعمك والله برك بي في تزويق الباطل ، ولا تؤيسك معرفتك إياى أن أقول فيك غير الحق ، فسادت خير مسير . فلما قدمت معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثاً ، مم أذن لها في اليوم الرابع وجمع لها الناس ، فدخلت عليه ، فقالت : السلام عايك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعو تني بهذا الاسم! فقالت مه يا هذا ! فإن بديهة السلطان ممد حصة لما يجب علمه (٣) . فقال صدقت ياخالة ، وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت لم أزل الله في عافية وسلامة حتى أو فدت إلى مملك جزل وعطاء بذل . فأنا في عيش أنيق، عند ملك دفيق ، فقال معاوية : بحسن نيتي ظفرت بكم وأعنت عليكم ، قالت : مه يا هذا ! لك والله من دحض المقال ما تشر دى عاقبته ؛ قال ليس لهذا أردناك .

⁽١) البلسن: المدس .

⁽٢) الجذل : أصل الشجرة بعد ذماب الفرع ، والسمر شجر من أشجار البادية .

⁽٣) البديهة : المفاجأة ومدحضة مبطلة .

قالت : إنما أجرى في ميدانك ، إذا أجريت شيئاً أجريته فاسأل عما بدا لك . قال : كيف كان كلامك يوم قتل عماد بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله روَّيته قبل ولا زورته بعد(١) وإنما كانت كلمات نفثهن اساني حين الصدمة. فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه فقال: أيكم حفظ كلام أمالخير؟ فقال رجل من القوم: أنا أحفظه باأمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد، قال هائه ! قال نعم ، كأنى مها ، يا أمير المؤمنين ، وعليها مرد زَ بيدِي شَكْ كثيف الحاشية ، وهي على جمل أرمك ^{٣)}وقد أحيط حولها حوام^(٣) و بيدها سوط ممنتشرُ الصَّافش ، وهي كالفحل يَهُـدرِ • في شِقشيـقته (٤) تقول : ديا أيها الناسُ انقوا دبكم إن زلزلة الساعةِ شي من عظيم ، إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل . ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدَعكم في عمياً. مبهمة ، ولا سوداً، تُمَدُّ لهمَّـة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من المؤمنين ؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَنْبِلُونَــكُمْ حَتَّى نَعْلُمُ المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ، ثم رفعت رأسها إلى السها. وهي تقول : اللهم قد عيلَ الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يارب أَذِيمًـ ة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصي (٥) الوفى ، والصُّديق الآكبر

⁽١) رويت في الآمر: فكرت فيه ، وزورت الكلام زينته .

 ⁽۲) الأرمك : الرمادى .
 (۳) الحواء ما يتخذ كالوسادة على الرحل .

⁽٤) الشقشقة: شيء كالرثة يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

⁽ه) إنما سمى على عليه السلام بالوصى لقول رسول الله يُطَلِّحُ له : , أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا ني بعدى ، فهو بذلك كقول الشيعة ـــ وقد أوصاء بالمسلمين و استخلفه عليهم .

إنها إكث بدرية (١) وأحقاد جاهلية ، وضغائن أُحُـد ية ، وثب بها معاوية حين الففلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس . ثم قالت: قا تِلوا أنمة الكفر إنهم لاأيمان لهم لعلم ينتهون . صبراً معشر الانصاد والمهاجرين . قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . وكأن بكم غداً الهد لقيتم أهل الشام كَـَحُــُمُــر مستنفرة لا تدرى أبن يسلك بها من فجاج الارض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الصلالة بالهدى وباعرا البصيرة بالعمى ، عما قليل اليُدَي صيب حُدن الدمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة . إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل الناد، أيها الناس إن الاكياس استقصرواً عمر الدنيا فرفضوها، واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه. فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته ، خلق من طينته ، و أنفرع من نَبْرُحُمْ تِرِهِ ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته . وعَمَلُم المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعونته، ويمضى على سَــَن استقامته لا يعرج لراحته الدَّأب . ها هو مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، إذ صلى والنَّاس مشركون ، وأطاع والنَّاسِ مرتابور... ، فسلم يزل كذلك حتى قنــل مباددى بدر ، وأنى أهل أحد، وفرق جمع هوازن ، فيالها من وقائع ذرعت في قلوب قوم نفاقاً ، ورِدّة وشقاقاً . قد أجتهدت في القول وبالغت في النصيحة ، وبالله النوفيق ، وعليسكم السلام ورحمة الله وبركاته .

⁽۱) الإحن : جمع أحنة ــ الاحقاد ــ وبدرية نسبة إلى بدر وهى أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين تريد أن معاوية بإثارته الحرب على على إنما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر .

فقال معاوية : والله يا أم الحير ما أردت بهذا السكلام إلا قتلى ! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك . قالت : والله ما يسوه في يا ابن هند أرب يجرى الله ذلك على يدى من يسعدنى الله بشقائه . قال : هيهات يا كثيرة الفضول : ما تقولين في عثمان بن عفان ؟ قالت : وما عسبت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقنلوه وهم له كارهون . فقال معاوية : إيها يا أم الحير ! هذا والله أصلك الذي تبنين عليه (۱) قالت : لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائمة يشهدون وكني بالله شهيداً . ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسبافاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة ، قال : فما تقولين في طلحة بن عبيد الله (۲) قالت وما عسى أن أقول في طلحة ؟ اغتيل في مأمنه في طلحة بن عبيد الله (۲) قالت وما عسى أن أقول في طلحة ؟ اغتيل في مأمنه وأتي من حيث لم يحذد ، وقد وعده رسول الله ويتياني الجنة . قال فيا تقولين في الربير (۳) ؟ قالت يا هذا لا تدعني كرجيع الصبيغ م يعدرك في المركن (۱) قال

⁽١) يريد أن سوء رايها في عثمان هو الذي دفعها إلى مناصرة على .

⁽٢) طَلَحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين والأبطال المملين وعاشر عشرة بشرهم رسول الله بالجنة وسادس سنة أختارهم عمر رضى الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعاه، وأول صحابى بايع علياً عليه السلام ثم استحال رأيه فخرج عليه وانضم إلى جند عائشة رضى ألله عنها يوم الجل وهنالك أصيب بسهم أودى به رضى الله عنه .

⁽٣) كان أمر الوبير حيال على شبيها بأمر طلحة ، وكان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة فأرسل إليه على يذكره بقول رسول الله له , لتقاتلنه _ يريد تقاتل هلياً _ وأنت ظالم له ، فانثنى عن الموقعة فراراً من الباطل وعوداً إلى الحق ، فلما انتهى إلى واد يقال له وادى السباع أخذه النوم فاغتاله رجل مر بجاشع يقال له عمرو بن جرموز .

⁽٤) الصبيغ : الثوب المصبوغ ، والعرك الدلك والحك ، والمركن الآنية أى لا تتركنى كالثوب المصبوغ .

حمّاً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك قالت وما عسيت أن أقول فى الربير ابن عمة رسول الله على الله على الربير ابن عمة رسول الله على الحنة . ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة فى الإسلام ، وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فإن قريشاً تحدث أنك أحلمها ، وأسألك بأن تسمى بفضل حلك ، وأن تعفيني من هذه المسائل ، وخذ فيما شئت من غيرها . قال نعم وكرامة ، قد أعفيتك ، وردها مكر مة إلى بلدها .

بلاغة الزرقاء بنت عدى

سهر معاوية ليدلة فذكر الزرقاء بنت عدى من غالب بن قيس ــ امرأة كانت من أهل السكوفة ، وكانت عن يعين علياً عليه السلام يوم صفين ؛ فقال لأصحابه أيكم يحفظ كلام الزرقا. ؟ فقال القوم كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال فما تشيرون على فيها ؟ قالوا نشير عليك بقتلها ، قال بئس ما أشرتم على به ا أيحسن بمثلي أن يتحدث الناس أنى قتلت امرأة بعد ما ملكت وصار الامر لى ؟ ثم دعا كاتبه في الليل فكتب إلى عامله في الكوفة أن أوفد إلى الزرقاء ابنة عدى في ثقة من محادمها ، وعدة من فرسان قومها ، ومهدها وطاء اينا ، واســـترها بستر حصيف (١) . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طائعة . وإنكان أمير المؤمنين جعل المشيئة إلى ﴿ لم أدرِم (٢) من بلدى هذا ، وإن كان حكم الآمر فالطاعة له أولى بي ، فحملها في هودج وجعل غشاءه حبراً مبطناً بعصب الين ، ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلا خير مقدم قدم وافد . كيف حالك ياخالة ؟ وكيف رأيت مسيرك؟ قالت خير مسير ، كأنيكنت ربيبة بيت أوطفلا بمهداً . قال : بذلك أمرتهم فهل تعلمين لِم بعثت إليك ؟ قالت سبحان الله أنى لِي بعلم ما لم أعلم؟ وهل يعلم ما في القلوب إلا الله؟ قال بمثت إليك أن أسألك : ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين بين الصفين ، توقدين الحرب وتحضين على

⁽¹⁾ الوطاء: الفراش اللين ، والحصيف: المحكم النسج ، (٢) لم أرم: أي لم أتمعرك.

القتال؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس ومبتر الذنب والدهر ذر غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر، قال لها : صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت : ما أحفظه . قال والكني والله أحفظه ا لله أبوك. لقـد سمعتك تقولين: أيهــا الناس ا إنـكم فى فتنة غشته كم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها من فتنة عمياء صماء، يسمع لقائلها ولا ينظر لسامعها ، أيها الناس ا إن المصباح لا يضيء في الشمس ، وإن الكوكب لا ينفذ في الفخر وإن البغل لا يسبق الفرس ، وإرب الزِّف لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها . فصبرا يامعشر المهاجرين والأنصار ؛ فكأن قد اندمل شعث الشتات ، والىأمت كلمة العدل، وغلب الحق باطله، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنسَّى إيةضيَّ الله أمراً كان مفعولًا . ألا إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء، ووالصد خـــير في الأمور عواقباً ، إنها إلى الحرب فُـدُما غير نا كصين فهذا يومله ما بعده ، ثم قال معاوية والله يازرقاء لقد شركت عاياً عليه السلام في كل دم سفكه . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه ، قال لها وقد سرك ذلك ؟ قالت نعم لقد سرنى قولك. فأندى بتصديق الفعل؟ قال معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أحب إلى من حبكم له في حياته . أذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين إنى قد آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً ١٠٠٠. ومثلك أعطى عن غير مسألة وجاد عن غير طلب. قال صدقت ، فأقطعها ضيعة أغلَّتها في أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن صفدها ، وردها والذين مىها مكرمين .

⁽١) الزف: انظر جمهرة خطب العرب ، الجزء الأول والثاني .

استأذنت بكارة الهلالية على معاوية فأذن لها . فدخلت وكانت امرأة أسنت وعشى بصرها ، وضعفت قوتها ، فهى ترعش بين خاده بن لها ، فسلمت ثم جلست ، فقال معاوية كيف أنت ياخالة ؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين . قالت غيرك الدهر ! قالت كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر . وكان هنالك مروان بن الحمكم وعمرو بن العاص ، فابتدأ مروان فقال : ألا تعرف هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن هى ؟ قال : هى التي كانت تعين علينا يوم صفين وهى القائلة :

يا ذيد دونك فاستثر من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفينا قد كان مذخوراً لـكل عظيمة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال عمرو بن العاص : وهي القائلة يا أمير المؤمنين :

أثرى ابن هند للخلافة مالكا هيهـات ذاك وما أداد بعيد منتك نفسك فى الحلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد فارجع بأنكد طائر بنحوسها لاقت علياً أسعد وسعــود

فقال سعيد : يا أمير المؤمنين وهي القائلة :

قد كنت آمل أن أموت و لا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا فالله أخّــر مدتى فتطاولت حتى دأيت من الزمان عجائبا فى كل يوم لا يزال خطيبهم وسط الجموع لآل أحمد عاتبا ثم سكت القوم، فقالت بكارة نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتنى فقصر بحسجتنى (١) وكثر عجبى، وعشى بصرى، وأنا والله قائلة ما فالوا، لا أدفع ذلك بتسكذبب، فامض لشأنك، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين فقال معاوية: إنه لا يضعك شى. فاذكرى حاجتك تقض . فقضى حوانجها وردها إلى بلدها.

وهناك خطيبات كثيرات مثل عكرشة بنت الاطرش وجروة بنت غالب فقد حدث ابن أبي طاهر عن الشافعي، قال :

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية وبيدها عكاذ فى أسفله زبر المسق ، فسلوت عليه بالخلافة وجلست ؛ فقال لها معاوية : ياعكرشة الآن صرت أمير المؤمنين ا قالت نعم إذ لاعلى حى ، قال ألست صاحبة الكور (٣) المسدول والوسط المشدود ، والمتقلدة بحماءل السيف ، وأنت واقفة بين الصفين يوم تقولين ويا أيها التاس عليكم أنفسكم لا يضركم من صل إذا اهتديتم . إن الجنة دار لايرحل عنها منقطنها ، ولا يحزن من سكنها ، فابتاعوها بدار لايدوم نعيمها ولا تنصرم همومها ، كونوا قوماً مستبصرين . إن معاوية دلف الديكم بعسجم مغلف القلوب (٣) لا يفقهون الإيان ، ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجاب واستدعاهم إلى الباطل فلبون م . فالله الله عباد الله فى دين الله ! وإياكم والتواكل واستدعاهم إلى الباطل فلبون م . فالله الله عباد الله فى دين الله ! وإياكم والتواكل فإن فى ذلك نقض عروة الإسلام ، وإطفاء نور الإيمان ، وذهاب السشنة فإن فى ذلك نقض عروة الإسلام ، وإطفاء نور الإيمان ، وذهاب السشنة

⁽١) اعتورتني : أي تناربتني من كل جانب ، والمحجن : العصا .

⁽٢) الزج: الحديدة في أسفل الريح أو نحوه و يطعن به . (٣) الحكور الرحل

⁽٤) غلف : جمع أغلف رالقلب الأغلف الذي كأنما غشى غلافاً فهو لا يمي .

⁽ ٩ - أدب النساء)

وإظهار الباطل، هذه بدر الصغرى، والعقبة الآخرى. قاتلوا يامعشر الانصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأنى بكرغدا قد لقيتم أهل الشام كالحر النهاقة والبغال الشبخاجة. تصقع صقع البعير، وتروث روث العناق ثم قال معاوية: فوالله لولا قدر الله وما أحب أن يجعسل لنا هذا الأمر لقد انكفأ العسكران، فاحملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إن البيب إذا كره أمراً لم يحب إعادته. قال: صدقت، اذكرى حاجتك، قالت: يا أمير المؤمنين إن قد رد صدقاتنا علينا، ورد أموالنا فينا إلا بحقها. وإنا قد فقدنا ذلك فا أعطى فقير، ولا يجبر لنا كسير فإنكان ذلك عن رأيك فا مثلك من استعان بالخونة واستعمل الظالمين، قال معاوية: يا هذه إنه تنوبنا أمور هي أولى بنا منكم، من بحور تنبثق وثفوو تتفتق. قالت: يا سبحان الله المور هي أولى بنا منكم، من بحور تنبثق وثفوو تتفتق. قالت: يا سبحان الله المور هي أولى بنا منكم، من بحور تنبثق وثفوو تتفتق. قالت: يا سبحان الله المور هي أولى بنا منكم، من بحور تنبثق وثفوو تتفتق. قالت: يا هذه إنه تنوبنا ما خمله لنا وهو علام المورب ، قال معاوية هيهات يا أهل العراق فقد فقهكم ابن أبي طالب فلن تطاقوا، ثم أمر لها برد صدقتها وإنصافها وردها مكرمة.

جروة بنت غالب

احتجم معاوية بمسكة ، فلما أمسى أرق أدقاً شديداً ، فأدسل إلى جروة بنت غالب التميمية – وكانت مجاودة لمسكة ، وهى من بنى أسد بن عمرو ابن تميم – فلما دخلت قال لها : مرحباً باجروة ، أدعناك ؟ قالت : إى والله يا أمير المؤمنين ، لقد طرقت في ساعة لا يطرق فيها الطير في وكره ، فأرعت قلمي ، وربع صبيانى ، وأفرعت عشيرتى ، وتركت بعضهم يموج في بعض ، يراجعون القول ويديرون السكلم خشية منك وشفقة على . فقال لها : ليسكن دوعك ، ولتطب نفسك ، فإن الأمر على خلاف ما ظننت ، إنى احتجمت دوعك ، ولتطب نفسك ، فإن الأمر على خلاف ما ظننت ، إنى احتجمت فأعقى ذلك أرقاً ، فأرسلت إليك تخديني عن قومك .

قالتِ : عن أي قومي تسألني ؟ قال : عن بني تميم . قالت : يا أمير

المؤمنين هم أكثر الناس عدداً ، وأوسمه بلداً وأبعده أمداً . هم الذهب الأحمر ، والحسب الآفخر قال : فنزَّ ليهم لي ، قالت : يا أمير المؤمنين أما بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشدة ، لا يتخاذلون عن اللقاء ، ولا يطمع فيهم الأعداء ، سلمهم فيهم ، وسيفهم على عدوهم . قال : صدقت ، و نعم القول لأنفسهم، قالت : وأما بنو سعد بن زيد مناة فني العدد الأكثرون، وفى النسب الأطيبون. يضرون إن غضبوا ويدركون إن طلبوا، أصحاب سيوف وحجمَف (١) ونزال وزَّ لف (٢) ، على أن بأسهم فيهم ، وسيفهم عليهم وأما حنظلة فالبيت الرفيع ، والحسب البديع والعز المنيع المكرمون للجاد ، والطالبون بالثار، والناقضون للأوتار. قال: إن حنظلة شجر تفرع، قالت: صدقت يا أمير المؤمنين . وأما البراجم فأصابع مجتمعة ، وكف ممتنعة ، وأما طهية فقوم مموج و قِرن ﴿ لجَـَوجٍ . وأما بنو دبيعة فصخرة صماء ، وحية رقشاء يغزون لغيرهم ، ويفخرون بقومهم ، وأما بنو يربوع ففرسان الرماح ، وأسود الصباح يعتنقون الأفران ، ويقتلون الفرسان . وأما بنو مالك ، فجمع غير مفلول . وعز غير مجهول ، ليوث هر"ارة ، وخيول كرارة ، وأما بنو دارم ، فكرم لا يداني ، وشرف لا يسامى ، وعر لا يوازي ، قال : أنت أعلم الناس بتميم . فكيف علمك بقيس ؟ قالت : كملمى بنفسى . قال : فخبريني عنهم ، قالتُ : أما غطفان ، فأكثر سادة ، وأمنع قادة . وأما فزارة ، فيبتها المشهور وحسبها المذكور. وأما ذبيان، فخطباء شعراء أعزة أقوياء. وأما عيس، فجمرة لا تطفأ، وعقبة لا تعلى، وحية لا ترقى، وأما هوازن فحلم ظاهر ، وعز قاهر . وأما مسلم ، ففرسان الملاحم ، وأسود ضراغم . وأما نمير ، فشوكة مسمومة ، وهامة مذمومة ، وداية ملمومة ، وأما هلال ،

⁽١) الحجف ـ جمع حجفة ـ التروس من جلد بلا خشب.

⁽٢) الرلف : الإقدام .

فاسم فحم ، وعز ضخم ، وأما بنو كلاب ، فعدد كثير ، وفحر أثير قال :
له أنت إفا قولك فى قريش؟ قالت : يا أمير المؤمنين هم ذروة السسنام ،
وسادة الآنام ، والحسب القمقام قال : فما قولك فى على حد عليه السلام —
قالت : حاز والله فى الشرف حداً لا بوصف ، وغاية لا تعرف ، وبالله أسأل
أمير المؤمنين إعفائى بما أتخوف . قال : قد فعلت ، وأمر بضيعة غلما
عشرة آلاف دره .

و الاحظ أن أسلوب الخطيبات هو الاسلوب الذي يساوق الطبع ويوائم السليقة ، ولا يعتسف في لفظ أو فكر أو خيال ، قبو لين هادي. أو ثائر عاصف على حسب المقتضيات ووفقا الاحوال ، مع وضوح اللفظ ، وسهولة في الاسلوب ، والانسجام التام في بناء الـكامات ، وترك السجع المرذول وهجر الوحشى والبعد عن التكلف ، والإيجاز في موضوع الإيجاز والإطناب فيما يستدعى الإطناب والإكار (١) .

كا نلاحظ أن الخطيبات وبخاصة الشيعيات كانت خطبهن تقوم على الإفناع والتأثير في النفوس مدعمات خطبهن بأدلة عقلية ونقلية ، فيستشهدن بالقرآن الكريم وأحيانا بالشعر ومأثور السكلام من حكمة ومثل ، كا في خطبة عكرشة بنت الأطرش ، فإننا نرى الآيات القرآنية تشع في جوانبها وتنلألا في ثناياها دعليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم » ، ديا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عي أشياء إن تبد لسكم تسؤكم ، وقد بدأت خطبتها بالنداء : يا أيها الناس لتحرك عي أشياء إن تبد لسكم تسؤكم ، وقد بدأت خطبتها بالنداء : يا أيها الناس لتحرك الأذهان الفافلة وتنبه العقول النائمة كما تشعرهم بالعبء الثقيل الملق على كاهامم وأنفسهم فتدفعهم دفعاً إلى إصلاح أخطائهم ، والإفاقة من الصلال و فالله الله عباد الله في دين الله » ، ثم تزين لهم أجر الجهاد وهو الجنة في أسلوب

⁽١) الحياة الآدبية في عصر صدر الإسلام ، مؤسسة ومكبتبة خدمة العلم ـ الرياض

التوكيد لتحفزهم إلى التضحية بأدواحهم وأموالهم وإن الجنة لا يرحل من أوطنها ، ولا يهرم من سكنها ولا يموت من دخلها فابتاعوها بداد لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها .

كا تحدرهم من التواكل في استعارات جميلة: د إياكم والتواكل ، فإن ذلك ينقض عرا الإسلام ، ويطني ، نور الحق ، كا تسوق التشبيهات الرائعة ، فتشبه موقعة د صفين ، بموقعة من زعموا أن هذه الموقعة التي يخوضها أفصاد على ، في موقعة صفين تشبه أيضاً بيعة العقبة حين بايع المسلمون الأولون من الأفصار النبي عَلَيْكَ ، وعاهدوه أن ينصروه بأموالهم وأنفسهم ، أي أن هده الموقعة دفاع عن الإسلام ونصرة له كتلك .

ثم تعرج فى آخر خطبتها إلى النداء كذلك فى أسلوب إنشائى خلا ًب تعقيه تشبيهات مثيرة لتوبيج حميتهم وتشعل حماسهم ضد معاوية : « يا معشر المهاجرين والأفصار المضوا على بصيرته كم واصبروا على عزيمته م فكانى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالجمر الناهفة تصقع صقع البقر .

كما نلاحظ أن وأم الحير بنت الحريش ، تبدأ خطبتها بالأمثال الحكيمة والحسكم السائدة لتشعر معاوية بأرب حكمها عليه ، حكم صحيح مسلم لا يقبل النقض والإبرام وإن بديهة السلطان مدحضة وواسكل أجل كتاب ، .

وضمنت خطبتها استشهادات من القرآن الكريم كسائر الخطيبات الشيعيات التقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، دولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو إخباركم ، دقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، دوإن هذا الموقف الرهيب بين يدى حاكم قوى كمعاوية لم يحل بينها وبين قول الحق ، والجهر بالرأى القويم ، وإصابة سواء المفصل وإقناع معاوية بالحجة والبرهان ، كما نستنبط من حديثها مع معاوية أنها خطيبة قد أوتيت من

أوة العارضة و بلاغة المنطق والتلاعب بالألفاظ ما لم تؤته خطيبة أخرى فهى تستطيع بقوتها الخطابية أن تجعل الحق باطلا والباطل حقاً ، وأن تخلب ببلاغتها أمة بأسرها ، يدل على هذا ما قالته لمعاوية حينها عنفها على قولها خطبتها التي أيدت فيها الإمام على و إنها كلمات نفثها لساني عند الصدمة فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ، وهذا يدل على قدرتها الخطابية الخارقة المحبية .

وحينها ننتقل إلى خطبة الزرقاء بنت عدى برى فيها من سمو النعبير، وعظمة التأثير، مايهز القلوب، ويملك على عقل الإنسان كل مناهذه وأبوابه، في منطق منسق وحجج متدافعة متدفقة كما نجدها تضمن نثرها وخطبها آيات من القرآن السكريم وأمثلة وحكما تتألق من خلال أقوالها تألق الدرد، في اتساق عجيب، ونسق بهيج لقولها: د والدهر ذو غير، من تفسكر انصدر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، والصبر خير في الأمور عواقبا، وما أدوع استعاداتها في قولها: د إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وجادت بكم عن قصد المحجة، فيالها فتنة عمياء صماء بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تنساق لقائدها، وفي قولها إن المصباح لا يضيء في الشمس، ولا تنير السكواكب مع القمر تشبيه ضمني السيدنا على بالشمس والقمر وقد أخذهما أبو العلاء المدى فقال:

يؤجج في شعاع الشمس ناراً ويقـــدح في تلهيما زناداً

وفوق ذلك كله تنميز خطبهن بصحة الألفاظ واستقامة الأساليب وبلاغتها، وقوة المنطق وصدق الحجة إلى ترتيب الأفكار وتنسيق الحجج، وإلى إصابة المحز وبلوغ الهدف ، كل ذلك يعد من خصائص بلاغة هؤلاء الخطيبات ، وروح نثرهن والجو الذي يسيطر عليه والتأثرات المختلفة فيه ترشد إلى أثر الإسلام والقرآن في بلاغة النساء (١) كما قدمنا ذلك فيما سبق،

⁽١) الحياة الأدبية: ٢٠

يفسر علماء اللغة المحاورة بأنها مراجعة السكلام، يقال حاورته أى راجعته السكلام، وتحاور القوم أو الجماعة راجعوا السكلام بينهم فمادة المحاورة تدور حول الرجوع، ويفرق علماء اللغة بين المحاورة والمجادلة، إذ المجادلة تنطلب اللدد في الحصومة، وما يكون في نحو من ذلك، ولكنها في كل صورها تدور حول التخاصم بالسكلام.

وأما المحاورة فهى مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين ولا تلزم فيه صور الحصومة ، وإنما تغلب عليها صور الكلام المتبادل بين الطرفين في أسلوب لا تقصد به الخصومة في حد ذاتها أو لا يراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة.

وهذه النفرقة بين المدلولين إنما استقاها اللغويون بطبيعة الحال من تتبع الاستعمال العربي، وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم في استعماله للفظين نجد فيه هذه النفرقة، وذلك في قوله تعالى: وقد سمع الله قول التي تجادلك في ذوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما، (١).

فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة ، ولذلك كان التعبير بالمجادلة ، ولـكن حديثها مع النبى صلى الله عليه وسلم كان مراجعة للـكلام ، ولذلك كان تعبيره المحاورة (٢٠) .

و الاحظ أن المحاورة التي وردت بين معاوية والخطيبات الشيعيات أنصار على كانت من قبيل المحاورة لأنه كان مراجعة في السكلام والفرض منه الوصول إلى الحق الذي يعتقده كل طرف .

⁽١) أول سورة الجادلة .

⁽٢) أسلوب المحاودة ، دكتور عبد الحليم حفى ص١١ ، ١٢

والحوار من ألوار. الخطابة، ويعد أعلى مراتب الـكلام، وأوعر مسالك القول فالفضل فيه مذكور لصاحبه ، والإحسان شاهد لربه ولذلك يقل فيه أثر الصنعة ويكون الاعتباد فيه على الطبع والدربة والحوار يكشف عن طاقة بلاغية ومقدرة خطابية ، ويديهة وارتجال، لأن الجانبين كليهما يقولان فيها لم يعدا له ، ويفاجىء كل منهما صاحبه بما لم يعلمه ، ومن كان عند البديهة والارتجال قادراً على الإجادة والإحسان فهو عند الروية والسعة أكثر قدرة وأرفع في الفصاحة قمة ، وقد قوى فن الخطابة وازدهر بالحوار والجدل ومحاولة الإفناع في الدين والسياسة والخصومات المختلفة ، وكان أن اتبع الخطباء في هذا سبل القرآن وحاكرا أساليبه في إيراد الحجج الخطابية وسوق الأدلة المقنعه وعرض القضايا المنطقية السليمة . وقد أصبح هذا اللون قسما ضخماً من أفسام الخطابة الإسلامية يمكن أن ينسب إليه جانب كبير من النهضة الخطابية ، وهذا ما مهد لقيام الخطابة الاستشارية السياسية ، ولم تسكن معروفة قبل الإســـلام بمفهومها الواضح الصحيح ، وماكان قربباً منها في بعض مناذعات الجاهليين فإنه لم يكن شيئاً يذكر لأنهكان يتمثل في صورة غامضة من القول في الخصومات البدوية تتراءى في ثوب المماخرة والمناظرة المصطنعة بالعصبية الفبلية من غير ملامح واضحة أو كيان متميز يميزه كأسلوب المحاورة والمناظرة التي ظهرت فيها بعد في لون متميز .

ومن صفات المحاور أن يكون لبقاً مرناً ذاكياسة وذكا. وحذق يدعم رأيه بالأهلة الساطعة والبراهين القاطعة ، وأن يكون ذا أسلوب رقيق سلس يستولى به على قلوب محاوريه ، وينتزع منهم إقناعهم وإعجابهم ، وكذلك كان شأر النساء المحاورات مع معاوية ، كسودة بنت عمارة الهمدانية ، وأم سنان بنت خيثمة ، وبكارة الهلالية ، وأروى بنت الحارث وأم البراء بنت صفوان والحجونية كما يظهر في أدبهن الاعتداد بالرأى ، والاعتزاز

بالنفس ، والجسراة فى الحق مهما كلفهن ذلك من ثمن ، نرى ذلك و المحلم و الاحظه فى رد سودة بنت عمارة على معاوية معللة خروجها ضده بحب الإمام على وآل بيته ، حينها قال لها ما حملك على ذلك ؟ قالت : وحب على عليه السلام و اتباع الحق ، .

وكثيراً ما تدعم المحاورات محاررتهن بالاستشهاد بالشعر كفولها متمثلة بقول الخنساء في موقف الدفاع عن أخبها :

وإنَّ صخراً لنأتم الهداه به كأنه عـــــلم في رأسه نار

ثم أخذت تشكو إلى معاوية ظلم بسر بن أدطأة وأنه أعمل في قومها الظلم والفسوة ، فحصدهم حصاد السنابل وداس على أجسامهم دوس البقر واستولى على أموالهم ، وقد للمام علياً على أموالهم ، وقد للمام علياً بأبيات ساقنها :

صلى الإله على جسم تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً قد حالف الحق لايبغى به بدلا فصار بالحق والإيمار مقروناً وفي آخر المحاررة تصف رقة قلب الإمام على وبكامه من أجل نصرة المظلومين والتفانى في سبيل رد الحق إليهم

وسودة فى محاورتها كسائر الشيعيات المحاورات تمثل نزعة جديدة قوية ، وجرأة خارقة فى سبيل نصرة الحق والمبدأ والعقيدة فى ألفاظ رصينة وعبارات قوية جزلة تمثل شجاعة الفلب ومضاء العزيمة تتدافع وتتدفق ، تجللها حرارة الإيمان وتسيطر عليها دوح الحب للإمام على رضى الله عنه .

وفى محاورة أم سنان نرى استشهادها بالشعر ما بين الفينة والفينة كطبيعة أسلوب محاورة الشيعيات في هـذه الفترة ، وتتلأ في نحاورتها صود من

من الاستمارات والتشبيهات والكنايات التى تملك شفاف القلوب وتأسر المشاعر، فهي تصور الإمام عليا وقد أحاط به أصحابه من كل جانب، كالهلال تحيط به النجوم من كل ناحية وهكذا فى كل صورة من صورها البيانية بالا ترى إلا سحر بيان وإبداع صوغ وتحليق خيال، كما يظهر فى المحاورة أثر الثقافة الإسلامية وما تطبعه فى نفس الفرد من قيم عظيمة يدافع عنها بدافع من دينه وعقيدته، فقد تصدت لمروان لأنه لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة ويتتبع عورات المسلمين ويكشف سوءات المؤمنين فى دفاع مربر وإصرار عنيد وتلك هى سمة المتشيعات لآل على: تراهن يصدعن بالحق دون خوف من حاكم أو خشية من آمر تسيطر، عليهن دوح الحماسة التى تفضى فى النهاية إلى خرضها من الاستجابة والانقياد.

كا رأينا بكادة الهلالية شجاعة جريئة تدخل على معاوية وتحاوده فى رماطة جأش وثبات قلب تنطق بالحسكمة السائرة والدهر ذو غير، من عاش كبر، ومن كبر قبر،

كما قدمت لنا صوراً مختلفة من ألوار البيان الرائمة ، نبحتني كلابك المؤمنين واعتورتني ، ، د فقصر محجني ، وكثر عجي ، وعشى بصرى ، .

كا تمثلت باستشهادات شهدية مختلفة مما زاد الحوار جمالا وتأثيراً، كا تبدو فيها حلاوة الازدواج والموازنة بين الألفاظ والجمل في عبارات سهلة وأساليب مختارة برئت من كل صنعة وزخرف وتدكلف، وقصدت إلى غايتها من أفرب طريق في تنوع يضفى عليها حلاوة الجدة ويكسبها مزبداً من التشويق والتأثير ما جعل معاوية يتأثر بأسهاوبها ويبعثها مكرمة بجازاة إلى بادها.

ومحاورة أدوى بنت الحارث تتسنم ذروة البلاغة بما قبست في خطبتها من أضواء الْقُرآن الكريم ، وأخذت من سنانه ورشفت من رحيقه والذي

يطالع خطبتها يحس الآثر الواضح للبيان القرآنى والاقتباسات المضيئة من آياته فيتجلى ذلك فى قولها : • وكانت كلمتنا هى العليا ، ورد الحق إلى أهله ولوكره المشركون » .

كا استشهدت بأبيات شعرية فى غير موضع من الخطبة كمادة الخطببات الشيعيات ، واشتملت الخطبة على تعنيف معاوية لانتزاعه السلطة من يد الإمام على ، وأخذه غير حقه من غير جدادة واستحقاق ، ثم أخذت تمدح الإمام وتضفى عليه هالات المدح والسناء ، وأنه بعد النبي عليه وظلية عارون من موسى وفرقت بين غابنى على ومعاوية ، وأن غاية الإمام الجنة وغاية معاوية الغاد ، ولقد بلغت بها جرأتها النادرة ، وشجاعتها الفدة أن شتمت معاوية ولم ترهب سطوة السلطان ، وهيبة الحسكم لرباطة جأشها ، ولذلك جاءت خطبتها ولم ترهب سطوة السلطان ، وهيبة الحسكم لرباطة جأشها ، ولذلك جاءت خطبتها أنه في البلاغة لأن آلة البلاغة كما يقول أبو هلال العسكرى دباطة الجأش فان الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر وهما سبب الارتاج والإجبال(١) ولذا فان معاوية رغم شتائمها ، قد سحرته بلاغتها ، وقوة منطقها ، ووفرة ولذا فان معاوية رغم شتائمها ، قد سحرته بلاغتها ، وقوة منطقها ، ووفرة التضمين من القرآن السكر بم والشعر العربي الجيد ، وأمر لها بستة آلاف دبناد .

وفي هذا المجال تبرز أيضاً شجاعة أم البراء بنت صفوان تحاور معاوية في شجاعة خادقة وبلاغة نادرة رغم ضعفها ومرضها حتى شهد لها معاوية ببلاغة منطقها ، وقوة حجها حيث قال لها عقب خطبها له : « قاتلك الله ما تركت مقالة لقائل ، وسر بلاغها يرجع كا قدمنا إلى اقتباسها من القرآن واستدلالها بآيات منه في معرض اعتذارها أمام معاوية كقولها : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، واستشهادها بالشعر العربي الجيد في معرض الحاسسة والتهييبج كقولها :

⁽١) الصناعتان ١٤، ١٥

يا ليتني أصبحت غير قميدة فأذب عنه عساكر الفجار وكقولها في بكاء الإمام على :

الشمس كاسفة لموت إمامنا خير الحلائق والإمام العادل

وعماً يمتاز به أسلوب الخطبة ذلك الوضوح الذي يكشف عن قصدها في غير تعمية ولا تضليل، وتلك الصراحة الشجاعة في غير مواربة أو نفاق.

وما أحسن محاورة دارمية الجحونية حيث تعلل لحبها للإمام على بن أبى طالب تعليلا لطيفاً يقوم على الحجة والبرهان والمنطق د لمدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ولحبه المساكين، وإعظامه لأمر الدين .

كما عللت كراهيتها لمعاوية . وأرجعت ذلك سـ فى نظرها ــ إلى سف كه للدماء وشق عصا الطاعة ، والجور فى القضاء والحسكم بالهوى . وأسلوبها يجنح إلى السجع المحبب أحياناً وإلى الازدراج والموازنة تارة أخرى ، كما يشيع فى محاورتها ضرب الامشـال الحسكيمة د ما لا ولا كصداء ، ، دومر عى ولا كالسعدان ، وهذا ما يميز اسلوب الخطيبات الشيعيات بوجه خاص كما بينا فيما تقدم .

المتحاورات مع معاوية

﴿ محاورة سودة بنت عمارة ﴾

وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية ، على معاوية بن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها . كيف أنت يابنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائلة لآحيك يوم صفين :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمادة يوم الطعان وملتق الاقرارف وانصر عليها والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوارف إرف الإيمان الإمام أخو النبي محمد علم الهدى ومنسادة الإيمان فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدها بأبيض صادم وسنان(١)

قالت: إى والله، ما مثلى من رغب عن الحق، أو اعتذر بالكذب، قال لها: فياحملك على ذلك؟ قالت . حب على عابه السلام، واتباع الحق، قال: فوالله ماأدى عليك من أثر على شيئاً، قالت: أنشدك الله يا أميرااؤميين وإعادة ما مضى، وتذكار ما قد نسى، قال: هيهات المامثل مقام أخيك مينسى، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك، قالت: صدقت والله يا أمير المؤمنين، وماكان أخى خنى المقام، ذليل المسكان، ولسكن كما قالت الخنساء:

وإن صخراً لنام الهداة به كأنه عـــــلم في رأسه تار (٢)

⁽١) القدم: الشجاع؛ وفي بلاغات النساء: , فقد الحتوف وسر أمام لوائه. .

⁽٢) العلم : الجبل .

قال: صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس و بتر الذنب ، و بالله أسأل أمير المؤمنين إعفائى بما استعفيت منه ، قال : قد فعلت ، فقولى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للفاس سيدا ، ولأمورهم متقلدا ، والله سائلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا توال تقدم علينا من ينهض بعزك ، و ببسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السذبل ، و يدوسنا دياس (۱) البقر ، و يسومنا (۲) الحسيسة ، و يسلبنا الجليلة ، هذا ابن أرطأف (۳) قدم بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لسكان فينا عز ومنعة ، فيما عزلته عنا فشكر قاك ، وإما لا ، فعرفناك ، فقال معاوية : إباى تهددين فيما عزلته عنا فشد هممت أن أحملك على قتب (٤) أشرس فأردك إليه ، ينفذ بقومك ؟ والله لقد هممت أن أحملك على قتب (٤) أشرس فأردك إليه ، ينفذ فيك حكمه ، فأطرقت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

يا من أحس بني اللذين هما كالدر آين تشظى عنهما الصدف يا من أحس بني اللذين هما سمعى وقلبى ؛ فقلبي اليوم عنطف يا من أحس بني اللذين هما خ العظام ، فخى اليوم مزدهف يا من أحس بني اللذين هما خ العظام ، فخى اليوم مزدهف (٤) القتب : الإكاف الصغير على الرسنام البعير .

⁽١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل .

⁽٢) يسومنا: أي يذيقنا الحسيسة .

⁽٣) هو بسر بن أرطاة ، وقيل ابن أبي أرطاة ، وكان معاوية في أيام على سيره إلى الحجاز والين ليفتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة، ففعل بها أفعالا شنيعة ، وساد إلى الهين ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ، فهرب عبيد الله فنزلها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقئم ابنى عبيد الله وهما صغيران بين يدى أمهما عائشة بنت عبد المدان ؛ فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تةول :

قال: ومن ذلك؟ قالت: على بن أبي طالب، دحمه الله تعالى، قال: وما صنع بك حتى صاد عندك كذلك؟ قالت: أنيته يوماً فى رجل و "لاه صدقاننا، فسكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائماً يصلى، فانفتل من الصلاة، ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنك أنت الشاهد على وعليهم، إنى لم تمره بظلم خلقك، ولا تركي حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها:

« بسم الله الرحمن الرجيم : «قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط (١) ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا (٢) في الأرض مفسدين ، بقية الله خير المكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، إن أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا ، حتى يأتى من يقبضه منك والسلام ، .

فأخذته منه والله ما خزمه بخزام ، ولا ختمه بختام (٢) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألى خاصة ، أم لقومى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله إذن الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يسمى ما يسع قومى ، قال : هبهات المسطلة مم إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يسمى ما يسع قومى ، قال : هبهات المسطلة مم إن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تفطعون ، وغركم قوله :

⁽١) القسط: المدل. (٢) عثا يعثو عثوا: أفسد.

⁽٣) الحزام: جمع خزامة بالكسر، وهي في الأصل: حلقة تجعل في أحد جانبي منخرى البعير، وخزامة النعل: سير رقيق يخرم بين الشراكين، الحتام: العاين يختم به على الشيء، (والحاتم: ما يوضع على الطينة).

⁽٤) النامط: التذوق، وأن يحرك الإنسان لسانه فى فه بعد الأكل، يثتبع به بقية من الطعام بين أسنانه، ويخرجه فيمسح به شفتيه، واسم علم ما بق فى الفم اللماظة بالضم، ويقال: لمظ فلاناً (بالتشديد) لماظة: أى شيئاً يتلظه، ولمظه من حقه.

فلو كنت بو"اباً على باب جنة وقوله :

ومثل همدار سنى فتحة الباب وجه جميـل وقلب غير وجاب نادیت همدان والآبواب مغلقة کالهندوانی لم تفلل مضــــاربه آکتبوالحـا ولقومها(۱) .

محاورة أم سنان بن خيشمة

-بس مروان بن الحسكم، وهو والى المدينة ، فى خلافة معاوية ، غلاماً من بنى ليث فى جناية جناها ، فأتته جدة الفلام ، وهى أم سنان بنت خيثمه (٢) المدحجية ، فكامته فى الفلام فأغلظ لها مروان ، فحرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مرحباً بك يابنة خيشمة ، ما أفدمك أرضنا ، وقد عهدتك تشتميننا (٣) وتحضين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، ولا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهون بعد علم ، ولا يسفهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس إنباع ما سن آباؤه لانت ، قال : صدقت ، نحن كذلك فكيف قولك :

عرب الرقاد، فقلتي لا ترقدُ والليل يصدر بالهموم ويورد⁽¹⁾ يا آل مذحج، لا مقام، فشمروا إرني العدو لآل أحمد يقصد

⁽١) العقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٥٠٠ .

⁽٢) في صبح الأعشى و جشمية ، ﴿ وَهُو تَحْرَيْفَ ؛ وَتُحْرَيْرُهُ ؛ مَاذَكُرُنَا .

⁽٣) وفي بالاغات النساء: ﴿ أَشَنْتُهُنَّ قُرِّى ﴾ أي تبغضين ﴿

⁽٤) عزب : بعد .

هذا على كالمسلال تحفه وسط السياء من الكواكب اسعد (١) خسير الخلائق وابن عم محمد إن يهدكم بالنور منسمه تهتدوا

ما ذال مذشهد الحروب مظفراً والنصر فوق لوائه ما يفقسد

قالت: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تبكون لنا خلقاً بعده ، فقال دجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل بالحق تعرف مادياً مهـــدياً فاذهب،عايك صلاة ربك مادعت فوق الفصوب حمامة قرياً (٢) قد كنت بمسدد محمد خلفاً كما ارضي إليك بنا ، فكنت وفياً

واليوم لاخلف يؤمل بعده هيمات نأمل بعسده إنسيا

قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، وائن تحقق فيك ما ظنناه ، لحظك الأوفر ، والله ما أورثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلا. ، فأدحض مقالتهم ، وأبمد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ، ومن المؤمنين حياً . قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله ما مثلك من مدسم بياطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضمير قلوبنا ، كان والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك ، قال: يمن ؟ قالت : من مروان بن الحسكم وسعيد بن العاص . قال: دوبم استحققت ذلك عندك؟ قالت بسعة حلمك ، وكريم عفوك ، قال : وإنهما يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأى على مثل ماكنت عليه لعثمان

⁽١) سعود النبيوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الآخبية ، وسعد المذابح ، وسعد السعود ، وهذه الآربعة من منازل القمر

⁽٢) القمرى: ضرب من الحام.

ابن عفان رحمه الله تعالى . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبنتك بالمدينة تبنشك من لا يريد منها البراح ، لا يحكم بعدل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عودات المؤمنين ، حبس ابن ابنى ، فأتبته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أخشن من الحجر ، وألعقته أمر من الصبر . ثم رجعت إلى نفسى بالسلائمة ، وقات : لم لاأصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه ، فأتبتك يا أمير المؤمنين لتسكون في أمرى ناظراً ، وعليه محمدياً ، قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبسه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا كما بإطلاقه . قالت : ياأمير المؤمنين ، وأنسى لى بالرجعة ، وقد نفيد زادى ، وكلت راحلتي ، فأمر لها براحلة موطأة ، وخمسة آلاف دره (۱) .

محاورة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب مع معاوية

دخلت أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية وهى عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلا ياعدة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : وياابن أخى ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الصدحة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آلاتك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد علي المناه ، فأنهس الله منكم الجدود (٢) ، وأضرع (٣) منكم الحسدود ، ورد الحق إلى أهله ، ولوكره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبينا علي هو المنصور ، فوليتم علينا

⁽١) المقد الفريد ١ : ١٢١ ، وصبح الأعشى ١ : ٧٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧

⁽٢) جمع جد : وهو الحظ .

⁽٣) أذل ، وفي بلاغات النساء . وأصغر ، .

من بعده – وتحتجون بقرابتكم من دسول الله وسلي ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر – فسكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل في آل فرعون ، وكان على بن أبي طالب دحمه الله بعد نبينا وسلي بن أبي طالب دحمه الله بعد نبينا وسلي بمنزلة هرون من موسى (١) ؛ فغايتنا الجنة ، وغايتكم الناد ، .

فقال لها عمرو بن العاص : كنى أيتها العجوز الصالة ، واقصرى من قولك ، وغصّى من طر وك ، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو ابن العاص ، قالت : يا ابن اللخناء (٢) النابغة تتكلم ، وأشك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وآخذ من لاجرة ا اد بع على ظلمك ، واعن بشأن نفسك ؛ فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك خمسة (٣) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أنانى ، فانظروا أشبهم به ، فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص ابن وائل ، فلحقت به ، ولقد رأيت أمك أيام منتي بمكة مع كل عبد عاهر (١٠) ، فأتم بهم فإنك بهم أشبة .

⁽۱) ورواية بلافات النساء: فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، ونصيباً وقدراً ، حتى قبض الله نبيه برائلتي ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً ، فصرنا أمل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون فساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا ينزلة هرون من حيث يقول: « ياابن أمم إن القوم استضعفوني وكادوا يقنلوني ، مخزلة هرون من حيث يقول: « ياابن أمم إن القوم استضعفوني وكادوا يقنلوني ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون : يا دن ، والحوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون : يا دن ، والحوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون : يا دن ، والحوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون : يا دن ،

⁽٣) رفى بلاغات النساء . ستة ، . (٤) فاجر .

فقال مروان : كني أيتها العجوز ، وأقصرى لما جنت له . ساخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً ياابن الزرقاء تنكلم ؟ فوالله لانت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنك اشبهك في زارقة عينيك ، وحمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته (١) ، ولقد رأيت الحكم مادَ (٢) القامة ، ظاهر الإمة (٢) ، سبنط (١) الشعر ، وما بينكا قرابة إلا كقرابة الفرس الصامر من الأنان المشقريب(٥)، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرًّا على " هؤلاً. غيرُك ، وإن أمك للقائلة يوم أحد في قتل حزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم بيــوم بدرر

والحرب بعد الحرب ذات مسمشر

ماكان عن عتبـة لى مِن صَبر أن وعشَّى وأخي وصهرى حتى ترم أعظمي في قيري

شفیت (وحشی) غلیل صدری شفیت انفسی وقضیت نذری فشکر' وحشي علیٌ دهری فأجبتها :

خزيت في بدر وغير بدر بالحــاشميين الطوال الزهر حزة ليثي ، وعلى صقرى

يا بنت جبار عظيم ِ الكفر صبُّحك الله قبيــــل الفجر بكل قطـاع حسام يفرى

⁽١) الدمامة : القبح . (٢) عند القامة ,

⁽٣) الإمة بالكسر ويضم : الشأن والنعمة والهيئة .

⁽٤) سبط الشعر : طويله .

⁽ه) الآتان : الحارة

فقال معاوية لمروان وعمرو : ويلسكما ا أنتها عرَّضتهاني لها ، وأسممتهاني ما أكره، ثم قال لها: يا عمَّة اقصدى قصد حاجتك ، ودعى عنكِ أساطيرً النساء ، قالت : تأمر لى بالني دينار . وألني ديناد ، وألني ديناد ، قال : ماتصنعين يا عمة ً بألني دينار ؟ قالت : أشترى بها عيناً خر طارة (١٦في أرض خو ارة (٢)، تكون لولد الحادث بن عبد المطلب ، قال : نِهم الموضعُ وضعتها ، فما تصنعين بَالْنِي دَيْنَادَ ؟ قالت : أَزُورُجُ بِهَا فَتَيَانَ عَبِدَ المَطلَبِ مِن أَكْفَاتُهُم ، قال : نَمْ الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألني ديناد؟ قالت : أستعين مها على عسر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام، قال: نعم الموضع وضعتها ، هي لك نعم وكرامة ، ثم قال : أما والله لوكان عمليٌّ ما أمر لك بها ، قالت : صدقت ، إن علياً أدى الآمانة ، وعمل بأمر الله ، وأخذ به ، وأنت ضيعت أمانتك ، وخنت الله في ماله ، فأعطيتَ مال الله من لايستحقه ، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها . وبيَّـنها ، فلم تأخذ بها ، ودعانا (أي عليٌّ) إلى أخذ حقنا الذي فرضَ الله لنا فشغل بحربات عن وضع الآمور مواضعها ، وما سألتك من مالك شيتًا فتمنَّ مه ، إنما سألنك من حقنا ، ولانرى أخذ شيء غير حقنا ، أتذكر علياً ؟ فضَّ الله بستة آلاف دينار ، وقال لها : يا عمة : أنفتي هذه فيها تحبين ، فإذا احتجت فاك.تي إلى ابن أخيك ميحسن صفدك^(٤) ومعونتك ، إن شاء الله^(٠) .

⁽١) أى تخر الماء ، (٢) خو"اره أى ضعيفة ،

⁽٣) تدعو عليه : أي نثر الله أسنانك .

⁽٤) الصفد: العطاء ،

⁽٥) العقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢

محاورة أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أمالبراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ؛ فدخلت عليه وعليها ثلاثة دروع (١) (مروذ) تسحبها ذراعاً ؛ قد لاثت (٢) على رأسها كورراً كالمنسف ، فسلمت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنت يا بنة صفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت : صفقت بعد تجلد ، وكسيسلت بعد نشاط ، قال : شتسان بينك اليوم وحين تقولين :

يا زيدُ دو نك صارماً ذا دو نق عضب المهرَّة ليس بالخسوار أسرج جوادك مسرعاً ومشمَّراً للحرب غير ممرَّد لفراد أجب الإمام وذب تحت لواته والق العدو بصارم بتاد يا ليتني أصبحتُ لست قعيدة فأذب عنه عساكر الفجار

قالت: قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : «عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدت ، ولكنه اخترم (٦) منك ، قالت : أجل ، والله إنى لعلى بيئة من ربى ، وهدى من أمرى قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أنسيته ؟ قال بعض جلسائه : هو حين تقول :

يا للرسِّجال المُصلم هو ل مصيبة قد َحت ، فليس مُصابها بالحائل (٤) الشمس كاسمه في الفقد إمامنا خرير الخلائق والإمام العادل

⁽١) درع المرأة: قيصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .

⁽٢) اللوث : عصب العامة ، والكور : لوث العامة .

 ⁽٣) اخترم : هلك .

يا خير من دكِب المطيّ ومن مثى فوق التراب لمحتف أو نامِل حاشا النبي لقد هددت قواءنا فالحق أصبح خاضماً للباطل (١٠)

فقال معاوية : قاتلك الله ا فما تركت مقالاً لقائل ، اذكرى حاجتك ، قالت أما الآن فلا ، وقامت فمثرت ، فقالت : تعيس شانى على (٢) ، فقال زعمت أن قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بحائزة . وقال : إذا ضبعت فن يحفظه ؟(٣)

محاورة دارمية الجحونية ومعاوية

وحج معادية سينة من سنيه ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت بالحجون (٤) ، يقال لها دادمية الحجونية . وكانت سوداه كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فجيء بها ، فقال : ما حالك يا بنة حام ؟ فقالت : لست لحام إن عبته إنما أنا امرأة من بنى كنانة ، ثمت من بنى أبيك ، قال : صدقت ، أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك : علام أحببت على وأبغضتنى ، وواليته وعاديتنى ؟ قالت : أو تعفينى يا أمير المؤمنين؟ قال : لا ، قالت : وأما إذا أبيت فإنى أحببت علياً على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، و طلبتك (٥) ماليس لك بحق ، وواليت علياً على ما عقد له رسول الله بالأمر ، و طلبتك (١) ، وعلى حبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك

⁽١) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواه بالمد للضرر .

⁽٢) أي مبغضه . (٣) صبح الأعشى ١ : ٢٦١ بالاغات النساء ص ٧٨

⁽٤) الحجون: جبل بمملاة مكة .

^(•) الطلبة: الطلب.

⁽٦) تشير إلى قوله: ﴿ اللهِم وال مِن والآه ، وعاد من عاداه » .

على سفكك الدماء، وشقك العصا، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى، .

قال: فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثدياك، وتربت عجيزتك، قالت: يا هذه بهند (۱)، والله كار يضرب المثل في ذلك لابي، قال معاوية: يا هذه اربعي (۲)، فإنا لم نقل إلا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظم ثدياها تروسي (۲) رضيماً وإذا عظمت عجيزتها رزن بجلسها، وإذا عظم ثدياها تروسي (۲) رضيماً وإذا عظمت عجيزتها رزن بجلسها، فرجعت وسكنت، فقال: ياهذه هل رأيت علماً ؟ قالت: إي والله لقد رأيته قال: فسكيف رأيته ؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم نشغه النعمة التي شغلتك، قال: فهل سممت كلامه؟ قالت: نعم والله فسكان يجلو النعمة التي شغلتك، قال: فهل سممت كلامه؟ قالت: نعم والله فسكان يجلو المقلوب من العسى، كا يجلو الزيت الطست من الصدأ، قال: صدقت. فهل المقلوب من العسى، كا يجلو الزيت الطست من الصدأ، قال: معليني مائة ناقة حراء فيها فحلها وراءيها، قال: قصنه بن بها ماذا؟ قالت: أغذو بألبانها الصفار وأستحيمها الكباد، وأكتسبها المكارم، وأصلح بها بين العشائر، قال: فإن واستحيمها الكباد، وأكتسبها المكارم، وأصلح بها بين العشائر، قال: فإن أعطيتكذلك؛ فهل أحل عندك على بن أبي طالب؟ قالت: ما ثاه ولا كصداً الهائلة والمستاك ألك به فهل أحل عندك على بن أبي طالب؟ قالت: ما ثاه ولا كسداً والمائلة والمناهدة أ

⁽۱) هي أمه هند بنت عتبة . (۲) ربع : وقف وانتظر وتحبس.

⁽۴) ارتوی .

⁽٤) صداء: عين لم يكن عندهم ماء أعذب من ماثها. ويروى عن ابنة هاتىء ابن قبيصة : أنه لما قتل لفيط بن زرارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فسكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لفيط؟ قالت : كل أموره حسن ، ولحكن أحداك أنه خرج إلى الصيد مرة ، وقد ابتنى بى فرجع إلى وبقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فه ، فضعنى ضمة ، وشمنى شمة . فليتنى مت ثمة .

ففعل زوجها مثل ذلك ، ثم ضمها وقال لها : أين أنا مرب لقيط؟ قالت : هاه ولا كصداء .

ومرُعى ولا كالسعدار في الله أو دونه به الله أو دونه به فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحسلم منى عليكم فن ذا الذى بعدى أيؤملُ للحلم مخذبها هنيئاً، واذكرى فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم ثم قال : أما والله لوكان على حياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا ولا و برة واحدة من مال المسلمين (٢) .

(۱) السعدان: نبت ذو شوك، وهو من أفضل مراعى الإبل، ولا تحسن على نبت حسنها عليه، وأول من قال ذلك الحنساء بنت عمرو بن الشريد، وذلك أنها أقبلت من الموسم؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة؛ ففرجت عنها وهى تنشدهم مرائى فى أهل بيتها؛ فلما دنت منها قالت: على من تبكين؟ قالت: أبكى سادة مصوا؛ قالت: فأنشدينى بعض ما قلت؛ فأنشدتها، فقالت الحنساء: مرعى ولا كالسعدان، ثم أنشدتها ما رثت به أخاها صخرا، وقبل إن المثل لامرأة من طى.

[(٢) العقد الفريد ١ : ١٣٢ وصبح الأعشى ١ : ١٥٩ و بلاغات النساء ص ٢٧

الأديبات في العصر العباسي والأندلسي

الآدب الحرب في ذلك العصر خصب إلى أبعد حسدود الخصوبة ؛ ولقسد بلغ الأدب شأواً عظما ، ومكانة عالية لم يحلم بها من قبل ، ويرجع السبب في ذلك - كما آسلفنا - إلى حب الخلفاء والولاة للأدب وبذلهم النفيس الأدباء والشعراء وهذا ما دفع الآدباء إلى أن يحسنوا إنتاجهم ويتقنوا أدبهم كي يفوزوا بالجوائز النمينة فضلا عما يحظون به من القربي للحلفاء والآمراء إذا صادف أدبهم قبولا لديهم أ، فظهر جيل عظيم من الآدباء الأفذاذ ، كابن الزيات ، وابن المقفع ، والجاحظ ، وعرو بن مسعدة ، والمأمون وغيره ، وفي الآنداس أبو عامر بنشهيد ، وابن زيدون ، وابن جيتر ، وابن عبد ربه وغيره ، وقد نبغ في هذه العقرة من النساء أدببات شهد لهن التاريخ عبد ربه وغيره ، وقد نبغ في هذه العقرة من النساء أدببات شهد لهن التاريخ بالقدرة العائقة في الآدب ، وكن أمثلة تحتذي في الآدب والنقد ، يتلاعبن بالفصاحة ويتصرفن في فنون القول وينقاد لهم عصى المعني وليداً جديداً في البيان واللسار والجال والحسن والإبداع والتصوير والروعة والآلاقة البيان واللسار والموسيق ، ومن هؤلاء : أم جعفر وقد كانت أديبة ناقدة ، وذات ذرق مرهف في قول الآدب و نقده .

يقول صاحب كتاب الأغاني :

لما جلس الامين في الحلافة أنشده أبو العتاهية :

ما اين هم النبي خير البرية إنما أنت رحمة للرعية ما إمام الهدى الأمين المصنى بلباب الخيلافة الهاشمية لك نفس أمادة لك بالخيسيد وكف بالمكرمات نديه إن نفس تحملت منك ماحمليست للمسلين نفس قوية

مم خرج إلى دار أم جمفر فقالت له أنشدنى ما أنشدت أمير المؤمنين فأنشدها فقالت أين هذا من مدائحك فى المهدى والرشيد فغضب وقال: إنما أنشدت أمير المؤمنين ما يستملح وأنا القائل فيه:

يا عمود الإسكام خير عمود والذي صيغ من حياء وجود والذي فيه ما يسكى ذوى أحزان عن كل هالك مفقود والأمين المسلب الهسائم سي القرم محض الآباء محض الجدود إن يوماً أراك فيسه ليوم طلعت شمسه بشمس السعود

فقالت له: الآن وفيت المديح حقه وأمرت له بعشرة آلاف درهم (۱) وكما كانت أم جعفر أديبة ناقدة كانت علية بنت المهدى كذلك فقد قال عنها الحصرى: دكانت علية تعدل بكثير من أفاضل الرجال فى فضل العقل وحسن المقال لها نثر رائق وغناء دائم وشعر ذائم (۲).

نشأت وعلية ، أميرة تستقبل خلافة بعد خلافة . فن خلافة الآب والجد ، إلى خلافة الآخ واب الآخ . فشبت زهرة يانعة مدللة ، بين مقاصير الذهب وبسط الحرير . وتمقفت بما هو جدير بأمثالها . تقول الشعر الجيل ، وتصوغه لحنا أجل ، وتؤديه بأعذب صوت وأبرع أداء . ولحا إلى جانب ذلك ملاحة طبع ، وإيناس روح ، وجمال دعابة .

⁽١) الأغان ٢٠ ص ١١ .

⁽۲) كانت أمها د مكنونة ، المغنية ، أنضر جوارى المدينة وجها ، وأسمحهن منظرا وقد اشتراها المهدى فى حياة أبيه المنصور (۷۷۵ — ۷۸۵ م) بمائه ألف درهم . وقد وهيها من قلبه أكثر من هذا المال وشغف بها . وكان قد آخنى أمرها حتى وفاة المنصور ، فولدت له , علمية . .

فنانة ومتعبدة :

مم فضل الأديبة الشاعرة ، فلقدكانت على بعد مرامها فى الشعر بعيدة العاية فى النثر ، وبما قاله إبراهيم بن المهدى فيها : كانت نضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطاباً وأفصحهم كلاماً ، وأبلغهم فى مخاطبة ، وأثبتهم فى محاورة ،

وقد جمعت علية ، بين شخصية الفنانة البارعة ، وصفات المتعبدة المصلية . في نسكاد تنال نصيبها من الغناء ، حتى تنصرف إلى تلاوة القرآن وقراءة الكتب وإنك لتعجب إذا علمت أرب هذه الموعظة الجميلة القصيرة قد صدرت عن هذه الموسيقارة الشاعرة المبدعة حيث قالت : وما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل منه عوضاً ، فبأى شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته ، . وكان إيمانها بطهارة تاريخها ينطفها بهذا الاعتزاز والفخر إذ تقول : ولا غفر الله لى فاحشة ارتسكبتها قط ، .

مُعَلَيِّـةً وأخوها إبراهيم :

وقد كتب التاريخ الكشير عن أنباء أخيها إبراهيم بن المهدى ومكافته من الغناء ، ثلك المسكافة التي سامى بها إسحق وأباء إبراهيم الموصلى ، وما كان له من براعة الابتداع والإنشاء في هذا الفن . وها نحن أولاء نرى المؤرخين يقومون وعلية ، على أخيها فيقولون : «ما اجتمع في الإسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته علية ، وكانت تقدم عليه ، وإنما غلبت شهرة إبراهيم عليها ، لأنه كان أكثر ظهوراً في المجلس والمناظرات ، ويستطيع التنقل في حرية وانطلاق ، بينما هي محصنة لا تغني إلا حين يطلب إليها الحليفة . وهي كثيرة التعبد ، وانطلاق ، بينما هي محصنة لا تغني إلا حين يطلب إليها الحليفة . وهي كثيرة التعبد ، غنية عن الشهرة ، وليست بحاجة إلى أن يعرف الناس عنها تلك المسكانة في الفناء .

غنى و البنان ۽ المغنى المشهور لحناً بديماً فى حضرة الممتصم (١٨٢ ـــ ١٨٤٩ م) فابتسم أحد أقطاب الفن بمن شهدوا ذلك المجاس . وسأل الممتصم عن بواعث ابتسامه فأجاب : إن سبب اجتماع الشرف من ثلاث جهات على هذا الشعر : فى قائله وملحنه ومستمعه ، أما قائله فالرشيد ، وأما ملحنه فعليه ، وأما مستمعه فأنت يا أ.بر المؤمنين . وهسسنده القصة القصيرة تضع أيدينا على المستوى الذى ارتفعت إليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الآدبية وصيتها الآدن الذائع عليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الآدبية وصيتها الآدن الذائع عليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الآدبية وصيتها الآدن الذائع عليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الآدبية وصيتها الآدن الذائع عليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الآدبية وصيتها الآدن الذائع عليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة عليه الآدبية وصيتها الآدن الذائع عليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الآدبية وصيتها الآدن الذائع عليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الآدبية وصيتها الآدن الذائع عليه عليه الموسيق فى ذلك العصر الزاهر ، و تقفنا عند مكانة علية الآدبية و عليه الموسيق فى ذلك الموسية فى دينا عليه الموسيق فى ذلك الموسيق فى ذلك الموسيق فى ذلك الموسيق فى دينا علية عليه الموسية فى دينا علية الموسيق فى دينا علية في الموسيق فى دينا عليه في الموسيق فى دينا علية في الموسيق فى دينا عليه في الموسيق فى دينا عليه في في الموسيق فى دينا عليه في الموسيق في دينا عليه في الموسيق في دينا عليه في في دينا عليه في موسيق في دينا عليه في موسيق في موسيق في موسيق في موسيق في موسيق في الموسيق في موسيق في موسيق في موسيق في موسيق في موسيق في موسيق في الموسيق في موسيق في في موسيق في موسيق في موسيق في موسيق في موسيق ف

ومنهن نزهون الغرناطية فلقـدكانت أديبة فضلا عنكونها شاعرة دقيقة ، وكانت سريمة الحاضرة ، حلوة النادرة .

ومن أو ادرها أن ابن قرمان الشاعر جاء ليناظرها ، وكان يلبس غفادة صفراء على ذى الفقهاء ، فلما رأته قالت إنك اليوم كبقرة بنى إسرائيل صفراء فافع لونها ، ولسكن لا نسر الناظرين ، فضحك الحضور ، وثماد ابن قرمان واندفع يسب ، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه فى بركة أمام البستان الذى احتفل المجلس به ، وحديث الآدب فى هذا العصر حديث شيق ، وإذا قلت لك إن هناك أستاذات من النساء كن يدارسن بنات الآسر الشريفة ، ويروينهن الشعر فلا تظن هؤلاء على قدر محدود فيما أخسدن فيه من درس وتحصيل ، ولكنهن كن مع أعلام هذا العصر وأقدار رجاله على سدواء واحد من العلم والآدب والفهم والتخريج (1) . وأول أستاذة الآدب فى هذا العصر ولادة بنت المستكنى ، فلقد كان قصرها مبيطاً رحباً ، ومنتدى خصيباً يأوى إليه كل ميدع والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الآدب ، ومن هؤلاء الوزراء والآمراء والعلماء والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الآدب ، ويتناولون النقد ، وولادة بمثابة الحد كم ، ويخضع الشعراء ، لوجهة نظره ودأيه .

عد وقد عاشت علية في صون حجابها ، على معهود عصرها ، مغنية عازفة شاعرة ملحنة مبتكرة ، معلمة متعلمة . كما عاشت ناسكة في صومعة فنها ، وخلوة عبادتها . فقد صامت وحجت ورتلت القرآن ، ثم قالت الشعر الرقيق السهل الممتنع ، وأرسلت الفناء الساحر الذي إن لم نسمعه ، فقد سمعنا عنه ما يكني .

وقضت وعلية ، سنة عشر وما تتين من الهجرة (٢٨٥ م) ، ولم تتجاوز الحسين دبيعا ... حياة كلها صبا وشباب ، عاصرت فيها الرشيد وقاطعت بعده الغناء ودواعيه حزناً عليه ، ثم ألح عليها الامين في خلافته فتسكلفت ، وبعد أن قتل الامين وانتصر المامون ، عادت أيضاً إلى الغناء في قلة ، حتى ما تت بين پديه ، وصلى عليها بنفسه . (انظر مجلة ودائرة المعرفة ، مؤسسة الاهرام) ,

⁽١) المرأة العربية ج ٣: ١٣٦

طبيعة أدب المولدين

إن الأدب الذي ساد هذه الحقبة يسمى الأدب المولد لأن معظم الأدباء في تلك الفترة كانو مولدين، أو يدعونه بالأدب المحدث أى أنه حدث ووجد بعد العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام و بني أمية .

فالآدب من المعنى دقيقاً ، والأسلوب جميلا والحيال رائعاً خلاباً ، إذ أن هذا الأدب وليد حضارة عظيمة تعتمد على ثقافة علية وآدبية لقحت العقل العربى ، الأدب وليد حضارة عظيمة تعتمد على ثقافة علية وآدبية لقحت العقل العربى ، ووسعت آفاق المتأدبين بما تعج به من خيالات بارعة ، وتصورات پديمة ، هذا إلى ما جادت به طبيعة بلادهم من مناظر ذات بهجة ، وجنان ذات بهاء ورواء فأضفت على أسلوب أدباء بغداد وقرطبة رقة وسحراً وجمالا ، وقد تلفت أدباء قرطبة و بغداد فوجدوا منابع على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصنى من الزلال ، ولذلك جروا في ميدانه ، وطاروا في سمائه إلى مدى بعيد ، أنتج ألواناً مبدعة في الأدب والشعر ما جاء فتنة للناظرين كا نلاحظ (١) أن الأدب في هذه الفترة صار أدباً مرن الأسلوب .

و نظرة و احدة نلقيها على هذا التراث الأدبى نرى أن البيئة العباسية هى التى أعطت اللغة العربية مرونة الأساليب، وأداء المعانى الدقيقة وهى التى وضعت بماذج النعبير العباسى البلبغ فقد كانت تنفى الألفاظ المنوعرة الوحشية عن كلامها كما كانت تنفى الساقط السوقى فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخادج السهلة، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيق يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتى البديع.

⁽١) الأدب العربي في العصر العباسي: ١٥ د / محمد بدر

وكان كباد الأدباء في القرن الثاني للهجرة يتخذون هذا الأساوب الوسط إمامهم ومثلهم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دنيقة بين طرافة المداني وإثارة الجمال في نفس القادى، والسامع والكن بدوري كد ومجاهدة ، فهم لا يبالغون في تكلفهم ولا يستدعون الالفاظ من بعيد (١).

ونلاحظ أن أدب الرأة فى هذه الفترة كان يميل أحياناً إلى السجم وتارة إلى الازدواج والمواذنة ، وللتواذن طلاوة ورونق ، وسببه الاعتدال لأنه مطلوب فى جميع الأشياء ، وإن كانت مقاطع الـكلام معتدلة ، وقعت من النفس موقع الاستحسان(٢٠) .

ويظهر لنامن مطالعة ما جادت به أقلام الآديبات في ذلك العهد أن التو اذن كان الطابع لنثر ذلك العهد ، ولا يعنى ذلك أننا لا نجد فيه شيئاً من السجع أو البديع فيه . ولسكنهما لم يكونا منهجاً عاماً يتقيد به الأدباء ، وذلك ما نلاحظه في كلام و نثر المحدثين ، كما نشاهده في مثل المحاورة التي جرت بين الرشسيد وأم جعفر ، فأحياناً نجد فيها سجعاً ، وتارة أخرى نجد ازدواجاً وتوازناً ، وهذا ما يعنيه قول ابن أبي الاصبع .

دولا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه الكلفة ، وتبين فيه أثر المشقة ، ويتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل ، وربما استدعيت كلمة للقطع ، رغبة فى السجع . فجاءت نافرة من أخواتها ، قلقة فى مكانها ، بل اصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ ، وصحة المعانى ، واجهد فى تقويم المبانى ، فإن جاء الكلام عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسبكان ، وإن عر ذلك فانركه وإن اختلفت أسجاعه ، (٣) .

⁽١) الفن ومذاهبه فى النَّبر العربي ١٣٣٠ . (٧) المثل السائر: ١٦٩.

⁽٣) صبح الأعشى ٢: ٢٣٦٠

وهذا ما جرى عليه المحدثور ، وسارت على ضوئه الأديبات المحدثات ، وحديث الأدب النسوى في هذه الفترة حديث شيق أليف ، وخصوصاً إذا تكلمنا عن أستاذات الآدب والشعر في هذه الفترة كعلية ، والعباسة ، وأسماء ، ولبابة بنات المهدى ، وفاطمة أم جعفر والآديبة العروضية إحدى فتيات و بانسيه ، فقد فافت علماء عصرها ، وكانت تحفظ كتاب الكامل للمبرد والآمالي للقالي وتشرحهما شرحاً مبيناً ، ولقد يمتد بنا الطريق إذا استوفينا رسائل تمثل حب الآدب ببافات من رياضه .

نماذج للنش النسائى في هذا العصر

(وصية السيدة زبيدة لعلى بن عيسى بن ماهان) : نمى الشر بين الآخوين (الأمين والمأمون) واستطار شرره و بعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة على بن عيسى ابن ماهان لحرب المأمون، وأعد المأمون للفائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين؛ فلما أداد على الشخوص إلى خراسان، ركب إلى باب السيدة زبيدة والدة الأمين فو دعما فقالت: «يا على، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى، إليه تناهت شفقتى وعليه تكامل حذرى، فإنى على عبد الله منه علفة مشففة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ابنى ملك نافس أغاه فى سلطانه وغاراه على ما فى يده، والمكريم يؤكل لحمه، ويميته غيره، فاعرف لعبد الله حق والده، والخوته، ولا تجبه (٢٠ يؤكل لحمه، ويميته غيره، فاعرف لعبد الله حق والده، والخوته، ولا تجبه (٢٠ بالسكلام، فإنك لست فظيره، ولا تقتسره اقتسار (٣) العبيد، ولا ترهنه (٣) بقيد ولا غل، ولا تمنع منه جارية ولا غادماً، ولا تمنف عليه فى السير ولا تساوره فى المسبر، ولا تركب قبله، ولا تستقل على دا بتك حتى تأخذ بركابه، وإن سفه عليك فلا تراده.

ثم دفعت إليه قيداً من فضة ، وقالت : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد ؛ فقال لها : سأقبل أمرك واعمل في ذلك طاءتك .

وهى وصية عظيمة مر. امرأة عظيمة ملت عطفاً وحدباً على أبنائها لذا تراها فى وصيتها صادئة العاطفة، ولـكلامها حلاوة الطبع، وجمال الوقع وحسن اللهظ وقرب المعنى والبعد عن الاستكراه والتوفيق فى الآداه، إلى

⁽١) نجمبه بالـكلام: أن نلقاه بما يكره (٧) قسره واڤتسره: قهره

⁽٣) لا ترهنه أي لا تضعفه ؛ والغل : القيد

ما فيه من بلاغة الإيجاز فقد ذكرته بحق الأبوة والأخوة وأن يتلطف فى ما ملته ولايقسو عليه بقيد أو غل ولا يركب قبله ، ولايستقل دا بته حتى يأخذ بركابه ويحتنى به ، ثم أعطته درساً فى الصبر وقوة الاحتمال ، إن شتمك فاحتمل منه وإن سفه عليك فلا ترده ، .

وقد وفقت زبيدة في أداء المعنى ، وكانت حساسة جـداً في استخدام الألفاظ ورسمت الطريق الأمثل في معاملة الآخوة إذا حزبهم أمر أو جد بينهم مكروه ونسوق نماذج أخرى تمثل قبساً لأديبات هذا العصر .

إن من البيارن لسحراً

كانت أم جعفر بن يحيى ـ وهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطية أرضعت الرشيد مع جعفر . لأنه كان ربى فى حجرها ، وغذى برساها ، لأن أمه ماتت عن عهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها ، والترك برأيها . وكان آلى وهوفى كفالتها أن لا يحجبها ، ولا استشفعته لاحد إلا شفت عما ، وآلت أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شفعت لاحد مقنرف ذنبا ، قال سهل بن هارون : فكم أسسير فكت ، ومهم عنده فرجت ، ومستخلق فتحت .

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر ، وقذف بزوجها و بقية أسرتها فى غياهب السبجن بعد إيقاعه بالبرامكة ... طلبت الإذن عليه فى دار البانوقة ، ومتت بوسائلها إليه فلم يأذن لها ، ولا أمر بشىء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها ، محتفية فى مشيها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظثر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شمانة الحاسد إلى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : وبحك يا عبد الملك أوساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وحافية ! قال : أدخلها يا عبد الملك ،

فرب كبد عَذتها ، وكربة فرجتها ، وعودة سسترتها ، قال سهل : فلما شككت يومند في النجاه بطلابها ، وإسعافها بحاجتها ، فدخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس ، وأكب على تقييل رأسها ، ومواضع ثديبها ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير الومنين ا أيعدو علينا الزمان ، ويحفو نا خوفا لك الأعوان ويحردك بنا البهتان ، وقد دبينك في حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فآيسني من رأهته تركه لكنيتها آخر ما أطمعني من بره بها أولا ، قالت : ظئرك بحيى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه باكثر عما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه ، وقمرضه للحتف في شأن موسى أخبه ، قال لها : يا أم الرشيد أمر سبق وقضاء محم ، وغضب من الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . قال صدقت ا فهذا ما لم يمحه الله . فقالت : الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل : فأطرق الرشيد ملياً ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفـــع

فقالت بغير دوية: ما أنا ايحيى بتميمة با أمير المؤمنين وقد قال الأول: وإذا افتقرت إلى الدعائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال

هذا بعد قول الله عز وجل: « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين فأطرق هارون ملياً ، ثم قال يا أم الرشيد أقول:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تـكد إليـه بوجــه آخر الدهر تقبـــلُّ

فقالت يا أمير المؤمنين وأنا أقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظرى أى كف تبدل

قال هرون : رضيت . قالت فهبه لي ، فقد قال رسول الله ﷺ : (من ترك شيئًا لله لم يوجده الله فقده). فأكب درون مليًا ، ثم رفع رأسه يقول: لله الأمر من قبل ومن بعد . قالت يا أمير المؤمنين : دو يومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللهِ ينصرُ من يشاءُ وهو َ العريزُ الرَّحيم ، ، واذكر يا أمير المؤمَّابن ألينك د ما استشفعت إلا شفعتني ، قال : واذكري يا أم الرشيد أليتك وأن لاشفعت لمقترف ذنباً ، ، قال سهل : فلما دأته صرح بمنعها ، ولاذع طلبها ، أخرجت حقاً من ذمردة خضراء فوضعته بين يديها . قال الرشيد : ما هذا ؟ نفتحت عنه قفلا من ذهب فأخرجت منه ذوائبه وثناياه قد غمست جميع ذلك في المسك، فقالت يا أمير ااؤمنين أستشفع إليك ، وأستمين إلله عليك ، وبمــا صاد معى من كريم جسدك، وطيب جوارحك، ليحيى عبدك فأخذ هارون ذلك فلثمه ثم استعبر و بكي بكاءً شديدًا ، و بكي أهل المجلس، ومر البشير إلى يحيي وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق وقال لها : لحسن ما حفظت الوديعة ، قالت : وأهل للكافأة أنت . فسكت وأقفل الحقودفعه إليها وقال : • إن الله يأمركمأن تؤدُّوا الامانات إلى أهلما. • قالت والله يقول: ﴿ وَإِذَا حَكُمْمُ بِينِ النَّاسُ أَنْ تَعَكُّمُ الْبَالْعَدُلُ ﴾ . ويقول: « وأوفوا بعهد الله إدا عاهدتم » . ثم قال : وما ذلك يا أم اارشيد ؟ قالت : ما أقسمت لى به أن لاتحجبني ولاتمتهنني . قال : يا أم الرشيد أتشريه محكمة فيه؟ قالت: أنصفت، وقد فعلت غير مستقيلة لك، ولا راجعة عنك. قال: إلم؟ قالت : برضاك عن لا يسخطك قال : يا أم الرشيد أما لى عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلي ا أنت أعر علي وهم أحب إلى . قال : فتحكمي في ثمنه بغيرهم . قالت : بلي قد و هبتـكه و جملتك في حل منه وقامت عنه ، و بق مبهو تأ ما يحير لفظة . قال سهل : وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها عبرة ، ولا سممت لهـا أنـَّه . هذى صورة من عاطفة الأمرمة الجياشة الصادقة فى ودها وعطفها وقله جاءت هذه المحاورة دون تكلف أو تصنع فى عبارات مليئة بالحدب والحنان وهى تصور قلب الواله الثاكل حين تاخذها على أبنائها الشفقة بهم والحوف عليهم ، من جراه مسئولية شاقه القيت عليه ، أو حمل ثقيل ناء به كاهله فى حالة حزينة بائسه تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد ، وشفقة أم الواحد . والمحاورة لوحة فنية مؤثرة استخدمت فيها الآديبة أم جمفركل أدوات البلاغة المؤثرة لعلها تنفذ بها إلى قلب الرشيد من استفهام بهر شفاف القلوب دأو يعدو علينا الزمان ، ويحفون خوفا لك الأعوان ويحردك (١) بنا البهتان ، إلى اقتباسات واستشهاد بالقرآن المكريم : د يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، كا تسرى فى جوانب المحاورة ، وبين ثناياها الاسستعارات والمكنايات والتشبهات اللطيفة :

وإذا المنيــة أنشبت أظهارها ألفيت كل تميمة لاتنفـــع وإذا افتقرت إلى الدخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وتظهر في المحاورة سمات الأدب في هذه الفترة من طابع ديني يسيطر على المحاورة والاستمانة بالفرآن الكريم اقتباساً وبالشعر المربي استشهاداً كا تبدو فيها السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها معجزالة في الأسلوب وقوة في الأداء ، ومن لسرى القول ورائعه ، وجيد القول وبليغه و بعد أو لئك الذين ارتضعوا أفاويق البلاغة ، وارتشفوا رحيق البيان وغذوا بلبان الأدب وتوارثوا عن آبائهم وأجدادهم ملكة أصيلة ، وذوقاً صحيحاً ، يجعلهم يتملكون ناصية اللغة و يحتلون منها المسكان العلى والذروة الرفيعة ، (٢).

⁽١) محردك أي يغضبك .

⁽٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول: ١٧٥ و المظر بلاغات النساء .

ألوان أخرى من أدب النساء

حدث الأصمى قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول : والله إن شربك لاشتفاف ، وإن ضجعتك لانعجاف ، وإن شملتك لالفتاف وإنك لنشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف ، فقال لها : والله إنك لـكرواء الساقين ، قعواء الفخذين مقاء الرفغين مفاضة الـكشحين ، ضيفكَ جائع ، وشرك شائع .

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المسأمون على أمه فو جدها تبكى فقال لها : أنا ابنك مكانه ، فقالت إن ا بنا ترك لى ابنا مثلك لجدير أن يبكى عليه .

وقال الأصمى: دفعت فى بعض تطوانى إلى امرأة من ولد ابن مَر مة (١) فسألتها القسرى، فقالت: إنى والله ممرملة مُسنته ما عندى شىء ، فقلت الما عندك تجزور؟ فقالت: والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بيضة ، فقلت أما ابن مَرمة أبوك؟ فقالت: بلى والله ، إنى لمن صميمهم ، قلمت : قاتل الله أبك ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجـــل (٢) إنى إذا ما البخيـــل آمنها باتت ضموراً منى على وجــــل ووليت فنادت : ادبع أيها الراكب ، فعله والله ذلك أقله عندنا (٣) ، فقلت : إلا تـكونى أوسعتنا قرى فقد أوسعتنا جواباً .

⁽١) أحد الشمراء الأجواد الفرسان.

⁽٢) العوذ من النياق الحديثات النتاج يقول إنه لا يبقيها حتى يعظم فصيلها وكلا شطرى البيت كناية عن تكرمه بذبح الإبل فلا يدتى منها شيئًا .

⁽٣) تقول هذا التسكرم أقل ما عنده من الطعام .

وحدث ابن السراج قال : أخبرنى بعض الإخران أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لمسة تجتمع ولا يفارق بعضنا بعضاً ، فضجرنا من المقام فى المناذل . فقال بعضنا : أو عرمتم فحرجنا إلى بعض البساتين ؛ فحرجنا إلى بستان قريب منا ، فبينا نحن فيه إذ سمعنا ضجة راعتنا ، فقلت البستانى : ما هذا ؟ قال هؤلا ، نسوة لهن قصة ، فقلت له أنا دين أصحابى : وما هى ؟ قال العيان أكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت الإصحابي أقسمت ألا يبرح أحد منكم حتى أعود ، فنهضت وحدى فصعدت إلى موضع أشرف عليهن وأداهن ولا يرينني ، فرأيت نسوة أد بما كأحسن ما يكون من النساء وأشكلمن ، وأداهن ولا يرينني ، فرأيت نسوة أد بما كأحسن ما يكون من النساء وأشكلمن ، ومعهن خدم لهن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمأن المجلس بهن جاء خادم لهن ومعه خمسة أجزا ، من القرآن فدفع إلى كل واحدة منهن جزءاً ووضع الجزء الخامس بينهن فقرأن أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن في الجزء ، ثم أخر جن صورة معهن في أوب دَيبق فبسطنها بينهن فبكين عليها ودعون لها ثم أخذن في الدوح فيالت الأولى :

خلس الزمان أعز مختلس بها بها أَتَت البشارة والنعيُّ بها

ثم قالت الثانية :

ذهب الزمان بأنس نفسی عنوة أودی بملك لو تفادی نفسها ظلت تكامنی كلاماً ممطمعاً حتى إذا فتر اللسان وأصبحت

ويد الزمان كثيرة الخلس ماكان أبعدها من الدنس يا قرب مأتمها من الكرس

و بقيت فردا ليس لى من مؤنس لفديتها يمن أعن بأنفس لفديتها يمن أعره بأنفس لم أست ترب فيمه بشيء هؤيس للموت قد ذبلت ذبول النرجس

وتسهلت منها محاسن وجهها جمل الرجاء مطامعي يأساً كما مم قالت الثالثة:

> جرت على عهدها الليالي فاعتضت باليأس منك صبرأ فلست أرجو ولست أخشى فليبلغ الدهـر في مساتي ثم قالت الرابعة :

خدن فيس من الدنيا فجمعت به ويمح المنايا أما تنفك أسهمها يبلى الجديدارس والأيام بالية ثم قمن فقلن بصوت واحد :

كنا من المساعدة نحيا بنفس واحدة فات نصف نفسى حين ثوى في الرمس فما بقائى بعــــدَهُ فهل سمعتم قبللى عاش بنصف راوس

قطع الرجاء صحيفة المتلس

> وأحدثت بعدها أمون فاعتبدل اليأس والسرور ما أحدثت بعدك الدهور ف عسى جرده يضير

أقضى إليه الردى في حومة القدر معلقات بصدر القوس والوتر والدهر تبشلي وتسليجدة الحجر

> وشطر نفسي عنده فيمن مضي عثلي في بدرن صحيه

ثم تذَّ حيان وقلن لبعض الخدم : كم عندك منهن ؟ قال : أدبعة ، قلن : ائت بهن ، فلم ألبث إلا قليلاحتي طلع بقفص فيه أدبعة غربان مكتفات فوضع القفص بين أيديهن فدعون بعيدان فأخذت كل واحدة منهن عوداً فغنت: لعمرى لقد صاح الغراب ببينهم فأوجع قلبى بالحديث الذى يبدى فقلت له أفصحت لا طرد بعدها بريش فهل للفلب ويحك من رد

ثم أخذن واحداً مى الغربان فنتفن ديشه حتى تركنه كأن لم يكن عليه ريش قط، ثم ضربنه بقضبان معهن لا أدرى ما هي حتى قتلنه، ثم غنت:

أشاقك والليل مما قى الجران غراب ينوح على غصن بان الحريث الجناح شديد الصياح يبكى بعينين ما تهملان وفي البان بين بعيد التدال

ثم آخذن الثانى فشددن فى رجليه خيطين و باعدن ببنهما وجملن يقل له: أتبكى بلا دمع وتفرق بين الآلاف! فن أحق بالقتل منك؟ ثم فعلن به

ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة :

الا يا غراب البين لونك شاحب وأنت بلوعات الفراق جدير فبسين لنا ما قلت حين تطير فبسين لنا ما قلت حين تطير فإن بكحقاً ما تقول فأصبحت هومك شتى والجناح كسير ولا زلت مكموراً عديماً لناصر كا ليس لى من ظالِمين في نصير

ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيبت ، ثم كسرت جناحيه ، وأمرت فَـَـفُــُـمِــل بِهِ ذَلْكُ ، ثم غنت الرابعة :

عشية مالى حيالة غير أنى بلقط الحصى والخطف الدار مولع أخط وأمحو كل ما قد خططته بدممي والغربان في الدار وقع

ثم قالت لأخوانها: أى قتلة أقتله ؟ فقلن لها علقيه برجليه وشدى فى رأسه شيئاً ثقيلاً حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعن عيدانهن ودعون بالغذاء فأكلن ، ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله وأخذن عيدانهن فغنين ، فغنت الأولى:

أبكى فراةـــكم عيني فأرَّقها لا زال يمدو عليهم ريب دهرهم ثم غنت الثانية:

> أما والذي أبكى وأضحك والذي لقدتركني أحسد الوحش أن أدى ثم غنت الثالثة:

سأبكى على مافات منك صيالة أحين دنا مَن كنت أرجو دنو"ه فأصبحت مرحوماً وكذت محسَّداً

ثم غنت الرابعة :

إن الحب على الأحباب بكــّا، حتى تفانوا وريب الدهر عدًّا.

أمات وأحيا والذي أمره الأمر أليفين منها لايروعهما الدهر

وأندب أيام الأمانى الذواهب رمتني عيون الناس من كل جانب ؟ فصبراً على مكروه مر الدرانب

سأفنى بك الآيام حتى يسرنى بك الدهرأوتفنى حياتى معالدهر عراء وصداً أسعداني على الهوى وأحمد ما جربت عاقبــة الصدر

ثم أخذت الصورة فعانقتها و بكت و بكين ثم شكون إليها جميع ماكن فيه ، ثم أمرن بالصورة فطريت ، نفرقت أن يتفرقن قبل أن أكلبهن ، فرفعت وأسى إليهن ، فقلت لقد ظلمتن الغربان ، فقلن لو قضيت حق السلام وجعلته سبباً للمكلام لأخبرناك بقصة الغربان، قال فقلت إنما أخبر تكن بالحق، قلن وما الحق في هذا ؟ وكيف ظلمناهن ؟ قلت إن الشاعر يقول:

نعب الغراب برؤبة الاحباب فلذاك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صحفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحياب فلذاك صرت عدو كل غراب ، فقلت لهن : فيالذي خصكن مهذا المجلس و محق صاحية الصورة لما خــ برتني بخبركن؟ قلن لولا أنك أقسمت عاينا بحق من يجب علينا حقه ما أخبر ناك 1 كنا صواحب مجتمعات على الآلفة ، لا تشرب منا واحدة البادد دون صاحبة افاختر مت صاحبة الصورة من بيننا ، فنحن نصنع فى كل موضع نجتمع فيه مصل الذى رأيت ، وأقسمنا أن نقتل فى كل يوم نجتمع فيه ما وجدنا من الفربان لعلة كانت ، قلت وما تلك العلة ؟ قلن فرق بينها وبين أنس كان لها ففارقت الحياة فكانت تذمهن عندنا ونأمر بقتلهن ، فأقل ما لها عندنا أن نمتثل ما أمرت به ، ولوكان فيك شىء من السواد لفعلنا بك فعلنا بالغربان ، ثم نهضن فضين ورجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بما رأيت ، ثم طلبتهن بعد ذلك فيا وقعت لهن على خ ، ولا رأيت لهن أثراً .

\$ \$ \$

وحدث التوزى عن عتبة الفلام قال: خرجت من البصرة والأبلة فإذا أنا بخباء أعراب قد ذرعوا، وإذا أنا بخيمة، وفى الحيمة جارية مجنونة عليها جبة صوف لا تباع ولا تشترى ، فدنوت فسلمت فلم تره على السلام، ثم وليت فسمعتها تقول:

زهد الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاءوا البطونا السهروا الأعين القريحة فيه فضى ليلهم وهم ساهرونا حسيرتهم محبة الله حتى علم النياس أن فبهم جنوناً هم ألبا ذوو عقول ولكن قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال فدفرت إليها فقلت لمن الزرع؟ فقالت: لنا إن سلم، فتركتها وأتيت بعض الآخبية فأرخت السهاء كأفواه القرب، فقلت لآتينها فأنظر قصتها في هذا للمطر، فإذا أنا بالزرع قد غرق وإذا هي قائمة نحوه وهي تقول: والذي أسكن قلي من طرف سحر بصني محبة اشتيادك إرب قلي ليوقن منك بالرضا، ثم النفتت إلى فقالت يا هذا إنه ذرعه فأنبته، وأقامه فسنبله ودكمه، وأرسل

عليه غيثاً فسقاه ، وطلع عليه فحفظه ، فلما دنا حصاده أهلمكه ، ثم رفعت رأسها نحو السماء ففالت : العباد عبادك وأرزاقهم عليك ، فاصنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك؟ فقالت : اسكت يا عتبة :

إن إلهى الهـنى حميـد لى كل يوم منه رزق جديد الحمــد لله الذى لم يول يفعـــل بى أكثر بمــا أريد وحدث النورزي أيضاً قال :

رأيت امرأة عند قبرين وهي تقول : بأبي لم تمتعك الدنيا من لدتها ، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى ، فأوفر تني كداً ، فصرت مطية للأحزان ، فليت شعرى كيف وجدت مقيلك ، وماذا قلت وقيل لك ، ثم قالت : استودعتك من وهبك لى ثم سلبني أسر" ما كنت بك . فقلت لها يا أمه ا ارضي بقضاء الله عز وجل وسلمي لأمره . فقالت : هاه ا نعم فجزاك الله خيراً ، لا حرمني الله أجرك ولا فتنني بفرافك فقلت لها من هذا ا فقالت : ابني وهذه ابنة عمه ، كان مسمى بها زفت إليه ثم أخذها وجع أتى على نفسها فقلت و فاتصد ع قلب ابني فلحقت روحه روحها ، فدفنتهما في ساعة واحدة ، فقلت فن كتب هذا على القبرين ؟ قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً فقالت فن حب هذا على القبرين ؟ قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً فقالت فزارية ، فلت ومن قالمهما ؟ قلت : كريم ابن كريم ، سخى ابن سخى ، شجاع فزارية ، فلت ومن قالمهما ؟ قلت : كريم ابن كريم ، سخى ابن سخى ، شجاع ابن بطل ، قلت من ؟ قالت : ما لمك بن أسماء بن خادجة يقولهما فى امرأته حبيبة ابن جندب الأنصارى ، ثم قالت وهو الذى يقول (۱) :

يا منزل الغيث بعد ما قنطوا ويا ولى النسما. والمنن يكون ما شئت أن يكون وما قددت ألا يكون لم يكن

⁽١) أنظر بلاغات النساء والمرأة العربية ج ٣: ١٢٦ .

قال فركتبتها ، ثم قامت مولية فقالت : شغلتني عما إليه قصدت لتسكين ما بي من الأحران .

وحدث الأصمى قال :

سمعت رجلا من تميم يقول: أضلات إبلا فخرجت في طلبهن ، فمرون بحارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك؟ قلت: إلى أضللها ، فها عندك شيء من علما ؟ قالت: أفلا أدلك على من عنده علمهن ؟ قلت بلى . قالت الذي أعطاكهن هو الذي أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من طريق الاختبار ، ثم تبسمت و تنفست الصعداء ، ثم بكت وأطالت البكاء وأشأت تقول :

إنى وإن عرضت أشياء تضحكنى إذا دجا الليــل أحيا لى تذكره وكيف ترقد عين صاد مؤنسها أبل الثرى وتراب الارض جنة نه أبكى عليه حنيناً حين أذكره أبكى على من حنت ظهرى مصابته والله لا أنس حيى الدهر ما سحت

لموجع القلب مطوى على الحزن والصبح يبعث أشجاناً على شجن بين التراب وبين القبر والكفن كأن صورته الحسناء لم تكن حنين والهة حنت إلى وطن وطير النوم عن عيني وأرقني حمامة أو بكي طير على فنن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزءها : هل اك من لا تذم خلائقه وتؤمن بوائقه ؟ فأطرقت ملياً ، ثم أنشأت تقول :

كنا كغصنين في أصل غذاؤهما فاجتث خيرهما من جنب صاحبه قدكان عاهدني إن خانني زمن وكنت عاهـــدته أيضاً فعاجله

ماء الجداول في روضات جنات دهر یکر بفرحات وترحات ألا يضاجع أنثى بعــد مثواتى ريب المنون قريباً مذ مُسنيات فاصرف عنانك عن ليس يردعه عن الوفاء خلاب في التحيات

وحدث النوزي أيضاً عن بعض الكناب قال: دخلت البصرة أنا وصديق لي فرأيت فناة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قمر . فقلت لصاحى : لو ملت بنا إليها فاستسقيناها ماء! ففعل ، فقلنا لها ، جعلنا الله فداءك! اسقينا ماء، فقالت: نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهي تقول : ألاحي شخصي قاصدين أراهما أقاما فما إن يمرفا مبتغاهما هما استسقيا ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ عن سقاهما

وحدث محمد بن سملام الجمحي يقول: سمعت رجلا من بني سلم يقول: هو يت امرأة من الحي ، فكنت أتبعها إذا خرجت إلى المسجد، فعرفت ذلك منى ، فقالت لى ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هي ؟ قلت مودّ تك ، قالت دع ذلك ليوم التغاين(١٠ . قال فأبكتني والله فما عدت إليها بعد ذلك .

ومن حديث أخرى : أن رجلا رأى أعرابية مكان خال ، والليل منسدل الستر فقال : أما من سبيل إليك ؟ فقالت : انظر هل يرانا من أحد ؟ قال ما يرانا إلا الـكواكب! قالت : وأن مكوكها ؟ فهت الرجل وانصرف ذاهلا ما يتكلم .

⁽١) يوم التغان : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن أمل الجنة يغبنون فيه أهل الناد.

نثر الجــواري

أثر عنهن قطع نثرية بمتازة تجارى أرقى وأحسن ما عرف للنثر فى هذه الفترة من ضرابط فنية وحسن تعبير وجزالة وسلامة أسارب وتدفق فى المعانى ، وكانت الفاظها نسمات أسحار فى أساليب لا تشبهها إلا قاتلاتهن فى خفة أرواحهن ، وصفاء أذواقهن .

ودار نثر الجوارى بمجمله حول الترتل، وأخذ صفة التوازن والازدواج وأحياناً نراه يميل إلى السجم الملتزم، ولسكنه سجم مقبول، أخذ صفاء البيئة وحسن روائها، وبعضه قصير الفقرات، وبعضه طويل غير مسرف في الطول، وموضوعاته تدور حول التعلمق على شعر نال إعجابهن أو العكس أو التعقيب على قول أو رأى سمعنه أثناء انعقاد مجالس الآدب، ومنتديات الشعر أو في مجالات أدبية أخرى كالتهنئة والاعتذار وغيرهما.

وفى شهادة سعيد بن حميد لبعض الجوارى بالإجادة ، خير دايل وبرهان على ما بلغته الجوارى من إتقان هذا الفن ، فقد قال لعبد الله بن المعتز _ وقد ظن أن سعيد بن حميد يكنب الرقاع لفضل فتنسبها لنفسها _ قال لابن المعتز : د ما أخيب ظنك ليتها تسلم منى لأخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخى لو أخذ أفاضل الكتاب وأمائلهم عنها لما استغنوا عن ذلك (١) .

وكان الجوارى يتأثرن بأساليب الكنتاب المشهورين فى هذه المترة من ذلك ما لاحظه ابن المعتز من أن عريبا أخذت نحو سعيد بن حميد فى المكلام و سلكت مسلكه (٢).

⁽١) الأغان ١٥/١٧ دار مكتبة الحياة ــ دار الفكر.

⁽٢) نفس المصدر

وما كانت الجوادى لتلتق بالنثر كتابة وتحبيراً، بل عرف لبعضهن آراء نقدية ، ونظرات صادقة في نقد الكنابة والنثر ، وسجل علما. الأدب لهن مواقف مشهورة نقدن فيها أحسن الأدباء والكتاب، وأدحبهن باعا وذراعاً في هذا المضهاد وفقد تسكلم ابن السهاك يرماً وجارية له تسمع كلامه فلما دخل إليها ، قال لها : كيف سعمت كلامى ؟ قالت : ما أحسته 11 إلا أنك تكثر ترداده اقال : أدده حتى يقهمه من لم يقهمه قالت : إلى أن تفهمه من لم يقهمه يكون قد مله من فهمه ().

وأدب عربب الجارية يقف مثالا حياً ورائماً على جودة نثر الجوارى وطول باعهن فيه، فقد عتب المأمون على عرب، فهجرها أياماً ثم اعتلت فعادها فقال لها: كيف وجدت طعم الهجر؟ فقالت: يا أمير الومنين لولا حلاوة الهجر ما عرفت حلارة الوصل، ومن ذم بدء الفضب، حمد عاقبة الرضا، قال: فحرج المأمون إلى جلسائه فحدثهم بالقضية ثم قال: أترى هذا لوكان من كلام النظام ألم يكن كبيراً ؟(٢).

وفى هذا يتبين قدر ما بلغه نثر الجوارى من النقدير والإكبار ، ولا سيما من رجل يقدر الادباء ويجل العلماء وهو المأمون .

وملاحظة أخرى أحب أن أضيفها كدلامة بميزة بين نثر الجوارى فى البيئة البدوية ونثرهن فى البيئة الحضرية، فنشرهن فى الأندلس مع ما بلغه من ظرف ورقة لم يبلغ نظيره الذى قيل فى البيئة البدوية لآن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية فى البادية، ولـكليهما منحى يستخف النه وس والأرواح، فالمرأة العربية البدوية كانت كأفضل النساء صفاء "فى الطبع، رنقا فى النهس، وسموآ

⁽١) العقد الفريد والأندية الأدبية : ٢٥٩ .

⁽٢) الآغا' ، ١٨ : ٣٤٤ مكتبة الحياة ببيروت .

فى الخاطر ، وجلالا فى الفرض وروعة فى الأسلوب^(۱) ، وكانت الجارية الأندلسية مثار الفتنة والسحر ، وأضفت فتننها وسحرها على درر أدبها لجاء مبهراً للمين ، ومستولياً على الوجدان ومسيطراً على القلوب ، ولو أن المرأة العربية المتحضرة ، اهتمت برواية الشعر والأدب من منبعها الصافى البادية لانعكس أثر ذلك على أدبها ، كا أنها لو أخذت تراث البادية ، وصقاته على غراد الحضارة وغذته بما، ، النعيم لات بأطيب الثمرات (۲) فى نشرها وشعرها

نماذج لنثر الجوارى

كتبت عريب:

د بنفسى أنت وسممى و بصرى ، وكل ذلك لك ، أصبح يومنا هذا طيباً، طيب الله عيشك قد احتجبت سماؤه ، ورق هراؤه ، و تكامل صفاؤه ، فكأنه أنت فى رقة شمائلك ، وطيب محضرك ، لا فقدت ذلك منك ، سرك الله وحفظك ، (٣) .

و نلاحظ أن رسالة عريب نحت منحى الإيجاز واتخذت طريق الازدواج والتوازن فى كتابتها شأن الكنابة فى هذه الفترة، وفى موسيقاها أثر من ٢ ثاد البيئة الأندلسية التى أكسبت الرسالة دقة وتهذيباً وجمالاً.

وكتبت ظريفة :

رجفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء ، وإنى لم أزل واثقة بإخائك ، راجية لحسن وفائك ، وتحقيق ظن مؤملك أولى بك من الوقوف على تجنبك ، (٤) .

⁽١) المرأة العربية ج ٣ (٢) نفس المصدر والصفحة .

⁽٣) الأندية الأدبية: ٢٥٩

⁽٤) الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس ص ٨٤

فهل هناك ألطف من هذه المعاقبة ، وأساس من هـذا الـكلام ، وأروع من هذا الأسلوب ، ويلاحظ أنها سلكت نفس الطريقة التي سلكتها صاحبتها عريب ، إيجاز ، وقصر فقرات ، وظهر فيها التواذن والازدواج .

وقد بلغت السكانبة غرضها دون تكلف ومعاناة فى دسالة قصيرة بليغة عرضت فيها مشكاتها وعاتبت وأملت ووبخت ، فسكان لها ما أرادت بالقول اللطيف والعبارة المهذبة ، والسكلمة المعبرة ، والعاطفة الدافقة الفياضة (١٠) .

وكتبت عريب للكاتب الكبير إبراهيم بن المدبر ، وقد بلغما أنه صام يوم عاشوراء :

د قبل الله صومك ، وتلقاه بتبليفك ما التمست ، كيف ترى نفسك نفسى فداؤك ، ولم كدرت جسمك فى آب أخرجه الله عنك فى عافية ، فإنه فظ غليظ وأنت محرود ، وإطعام عشرة مساكين أعظم لاجرك ، ولو علمت لصمت صومك مساعدة ، وكان الصواب فى حسناتى دونى ، لأن نيتى فى الصوم كاذبة (٢) .

وهى رسالة وجيزة بليغة ، وبلغ من بلاغتها أنذكرت أمام الكتاب فقال وما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر بن يحيى(٣) .

والتوازن والاندواج صورة بارزة فىالرسالة ، وجاءت فى عبارات سهلة ، وألفاظ واضحة لا تـكلف فيها ، ولا غموض ، ومعان سلسة سائغة ، ولـكنها أضعف لغة وأدنى أسلوباً من مثيلاتها الجاريات البدويات كما بينا ذلك آنفاً .

⁽١) انظر الأندية الأدبية: ٢٦٠

⁽٢) الأغان ١٥ : ٥٥٥ دار الفكر ببيروت

⁽٣) الأغاني ٨: ١٧٨ (مطبعة ساس)

المتكلمة بالقرآن

وتقدم لنا كتب النراث العربي هذه الصودة الطريفة للسيدة المؤمنة التي آلت على نفسها ألا تتكلم إلابالقرآن الكريم يرويها عبد الله بن المبارك (١) على أنها واقمة حقيقية حدثت له بعد انتهائه من الحج والزيادة . فيقول :

و خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيادة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينها أنا في بعض الطريق إذ أنا بسواد ، فتميزت ذاك فإذا هي مجوز علبها درع من صوف وخمار من صوف .

فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فقالت : سلام قولا من رب رحم .

فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان ؟

قالت: و من يضلل الله فلا هادى له ، .

فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أين تريدين ؟

قالت: « سبحان الذي أسرى بعبده ليسلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس .

⁽۱) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء، التميمي المروزي أبو عبد الرحمن الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات، أنى عمره في الأسفار حاجاً و بجاهدا و تاجراً، وجمع الحديث والفقة، والمربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء، وهو من سكان خراسان ومات (بهيت)، (على الفرات) منصر فا من غزو الروم. له كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه، والرقائق مخطوط، توفى الروم. له كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه، والرقائق مخطوط، توفى الروم، له كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه، والرقائق مخطوط، توفى الروم، له كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه، والرقائق مخطوط،

فقلت لها : أنت مذكم في هذا الموضع؟

قالت: « ثلاث ليال سويا ، .

فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين ؟

قالت: «هو يطعمني ويسقين ، .

فقلت : فبأى شيء تتوضئين ؟ .

قالت : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجْدُوا مَاءُ فَتَيْمُمُوا صَعَيْدًا طَيْبًا ﴾ .

فقلت لها: إن معى طعاماً فهل لك في الأكل؟

قالت : دثم أنموا الصيام إلى الليل ، .

فأدركت أنها صائمة فقلت لها: ليس هذا شهر رمضان ا

قالت: دومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم،.

فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر .

قالت : دوأن تصوموا خير لــكم إن كنتم تعلمون ، .

ولما وجدتها لا تشكام إلا بالقرآن الكريم قلت لها : لم لا تكاميةني الما أكلك ؟

فقالت: دما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، .

فلت: دفن أي الناس أنت ؟

قالت : ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أوائك كان عنه مسئولا.

فقلت : قد أخطأت فاجعليني في حل .

قالت: ولا تثريب عليكم اليوم يغفر ألله لـكم. .

قلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فندركي القافلة ؟

قالت : « وما تفعلوا من خير بعلمه الله » .

يقول عبد الله بن المبارك فأنخت نافتي .

قالت: دقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم. .

فغضضت بصرى عنها وقلت لها ادكبى فلما أرادت أرب تركب قفرت الناقة فمزقت ثيابها.

فقالت: دوما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ، .

فقلت اما : اصبری حتی أعقلها .

قالت: د فقهمناها سلمان ، .

فعقلت الناقة وقلت لها : اركى .

فلما ركبت قالت: د سبحان الذى سـخر لنا هـذا وماكنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون .

فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح .

فقالت: د واقصد في مشيك واغضض من صوتك ..

فِعلت أمشى دويداً دويداً وأثرنم بالشعر .

فقالت : « فافر ءوا ما تيسر من القرآن ، .

فقلت لهـا : لقد أوتيت خيراً كثيراً .

قالت: دوما يذَّكر إلا أُولُو الْالباب، .

فلما مشيت بها قليلا قلت : ألك زوج ؟

قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لسكم تسؤكم . .

فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها: هذه هي القافلة فن لك فيها؟. فقالت : ﴿ المال والبِنُونَ زَيْنَةُ الْحَيَاةُ الدُّنيا عَ .

فملت أن لها أولاداً ، فقلت : وما شأنهم في الحج؟ .

قالت: د وعلامات و با لنجم هم يهندون ،

فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعادات فقلت: هذه القباب فن لك فيها ؟ .

قالت: «واتخذ الله إراهيم خليلا ، وكلم الله موسى تسكليما يا يحيى ، خدد السكتاب بقوة ، فناديت : يا إراهيم يا موسى يا يحيى ، فإذا أنا بشبان كأنهم الأقار قد أقبلوا ، فلما استقر بهم الجلوس قالت : .

، فابعثوا أحدكم بورقـكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتـكم برزق منه ، .

فمضى أحدهم فاشترى طعاماً ، فقدموه بين يدى .

فقالت : «كلوا واشربوا هنيتًا بما أسلفتم في الآيام الحالية ، .

فقلت: الآن طعامكم على حرام حتى تخبرونى بأمرها.

فقالوا : هذه أمنا وإن لها أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن . فسبحان القادر على ما يشاء .

فقلت : ذلك فضل الله بؤتيه من يشا. والله ذو الفضل العظم .

دراسية وتعقيب

وفى حديث المرأة الذى نقله لنا عبد الله بن المبارك يقدم لنا دليلا ملموساً على نبوغ المرأة العربية وقوة عادضتها ، وبلاغة منطقها ، ودقة تمثلها بالآيات الحكيمة ، والمثل القرآنى .

فقد أرتنا سمو القرآن، وعظمته الأدبية، وقوته البيانية بما يزخر من

قوة التصوير ودقته وإحكامه، فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى، وأشد مداخلة الإحساس وأبلغ إثارة للمشاعر من تصوير القرآن الكريم.

والمتسكلمة بالقرآن ، ساقت لنا عن طريق عبد الله بن المبارك دررآ غالية ، ولآلى ، ثمينة ، وأمثلة دائعة ، ولا تخفى على السامعين قيمة التأثير المثلى ، وأثر الآية الحسكيمة فى النفس وكيف يودعان فى النعبير من الجمال والاسرار ما يسمو بالمعنى ويصل إلى الغرض منه .

والأمثلة والحميم التي ساقتها المرأة المنكلمة بالقرآن كام أمثلة غير صريحة ، فقد جاءت أمثلة كامنة مطوية وهي تمثل الآيات القرآنية التي لم يصرح فيها بلفظ المثل ، وإنما يفهم من معناها ما يدل على أنها تضاهى منزمن الأمثلة المعروفة عند العرب (١) .

فقد حوت القطمة النثرية صوراً منظيمة من أمثلة القرآن : و ومن يضلل أنه فما له من هاد ، ، و لا تقف ما ليس لك به علم ، و ما يلفظ من قول إلالديه رقيب عتيد ، ، و واقصد في مشيك واغضض من صو تك ، ، و و ما يذكر إلا أولوا الألباب ، ، و با أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لك قسؤكم ، ، و المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، ، و و علامات و بالنجم هم يهندون ،

وهذه من أمثلة القرآن الرائعة التي تمثل فيضاً من أسلوب القرآن المعجز الذي تحدى العرب وهم قد تسنموا ذروة البلاغة ، وبلغوا في الفصاحة أرج السكمال.

وقد حوى القرآن أمثلة كثيرة ، بحيث إلى لا تجد فى الغالب والكثير مثلا أو حكمة عند المرب أو العجم إلا ولهما نظيرهما فى القرآن الكريم، وقد سئل أحد الحكاء :

⁽١) القرآن إعجازه وبلاغته ، المطبعة النموذجية : ٨٤ دكتور عبد القادر حسين

إنكم ترعمون أن القرآن تد حوى أمثال العرب والعجم ، فهل نجد في كتاب الله (انق شر من أحسنت إليه) فقال أجل ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ودسوله من فضله ،قال : دمن يعمل من فضله ،قال : دمن يعمل سوماً يجز به ، (النساء ١٢٣) .

قلت: فهل تجد فيه: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)؟ قال: «هل آمنكم عليه إلاكما أمنتكم على أخيه من قبل، (يوسف ١٤). قلت: فهل تجد (من أعان ظالماً سلط عليه).

قال : دكتب عليـه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير، (الحج ٤).

قلمت: فهل تجد فيه قولهم: (لا تلد الحية إلا الحية)؟ قال: «ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، (نوح ٢٧). قلمت: فهل تجد في القرآن قولهم: (للحيطان آذان)؟ قال: «وفيكم سماعون لهم» (التوبة ٤٧).

ومن ذلك أيضاً قول على رضى الله عنه (القتل أنني للقتل). وفي القرآن: «ولدكم في القصاص حياه » (البقرة ١٧٩) ومن ذلك قول العامة: (من حفر لاخيه بشراً وقع فيها) ، وفي القرآن: «ولا يحيق المسكر السيء إلا بأهله، (فاطر ٤٣) ، ومن ذلك (مصائب قوم عند قوم فوائد) وفي القرآن: «وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها، (آل همران ١٢٠) (١٠).

وهكذا نجسد أن المرأة المنكلمة أهدت لنا ياقة بلاغية وأمثلة عظيمة من القرآن الكريم .

وحبذا لو تمثل بذلك فتياتنا واقتبس تعبيراتهن ومثلهن من وحى القرآن، وافتدين بأسلوبه الحسكيم وآياته المعجزات.

⁽١) نفس المعدر السابق: ١٩.

حديث الجوارى الخس اللائي وصفن خيل آبائهن

قال القالى في أماليه (⁽⁾:

حدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثني عمى عن أبيه عن ابن السكلي عن أبيه قال : اجتمع خس جو اد من العرب ، فقلن : هلمُــمـُـن ننعتُ خيل آلاتنا .

فقالت الأولى: فرسُ أبى وردة ، وماوردة ؟ ذات كفل ممزحلق ، ومتن أخلق ، وجوف أخوق ، ونفس مروح ، وعين طروح ، ورجل خروح ، وبد سبوح ، مبداهتها إهدنداب ، وعقبها غلاب .

وقالت الثانية : فرس أبي الله مساب ، وما الله مساب ؟ غيبة تسحاب ، واضطرام غاب ، مُملاحك المحال ، فارسه واضطرام غاب ، مُملاحك المحال ، فارسه مجيد ، وصيده عتيد ، إن أقبل فظي مَمدًاج ، وإن أدبر فظليم هداج ، وإن أحضر فعليم هراج .

وقالت الثالثة : فرس أبي محدّمه ، وما حدّمه ؟ إن أقبلت فقناة مُمقوَّمه ، وإن أدبرت فأثفِيية ململمة ، وإن أعرضت فدّتبة مُمعجرمة ، أدساغها مُمترَّصه ، وفصوصها محتّصه ، جرمها انبرّراد ، وتقريبها انسكدار .

وقالت الرابعة : فرس أبى خيفق ، وما خيفق ؟ ذات ناهق تمعرق ، و شدّق أشدت ، ودسيع ممنف نَسُف ، و شدّق أشدف ، ودسيع ممنف نَسُف ، و تلكن مسيف ، و ثـّابه ذكوج . خيفانة دهوج . تقريبها إهماج ، وحُـضُ ما اد تيماج .

وقالت الخامسة : فرس أبي مُدُلُول ، وما هذُّلُول ؟ طريدُه محبول ، وطالبُه مشكول ؛ رقيق الملاعِم ، أمين المعاقم ، عبل المحرِّم ، يخد مِم جم ،

⁽١) ارجع إلى المزهر: ٣٨٥ جزء أول.

منيف الحارك ، أشم السنابك ، بجدول الخصائل ، سبط القلائل ؛ غوج التليل ، صلصال الصهيل ، أديمه صاف ، وسبيبه ضاف ، وعفوه كاف .

قال القالى: المَدْرَحلق: المملس والآخلن: الأملس. وأخوق: واسع. ومروح: كثيرة المرح. وطروح: بعيدة موقع النظر، وضروح: دفوع؛ تريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا عدت. وسبوح: كأنها تستبح في عدوها من سرعتها، وبداهتها: فجاءتها، والبداهة والبديهة واحد، والإهذاب: السرعة والعقب: جرى بعد جرى، وغلاب: مصدر غالبته، كأنها تغالب الجرى والعقب: جرى بعد جرى، وغلاب: مصدر غالبته، كأنها تغالب الجرى

والغبية: الدّفهة من المطر. والغاب : جمع غابة ، وهى الآجمة . ومترّص: عكم . وأشم: مرتفع . والقذال : معقد العذار . ومُـلاحك : ممداخل ؛ كأنه دُوخل بعضه في بمض ، والمحال : جمع محالة وهي فقاد الظهر . ومجيد : صاحب مجواد . وعنيد : حاضر ، ومعاج : مسرع في السير . وهدّاج : فعدال من الهدج وهو المشي الرّويد ؛ ويكون السريع . والعِلج : الحماد الغليظ ، وهرّاج : كثير الجرى .

وحُدَدَمة : فَدُمَدَلة من الحَدَم وهو السرعة ، وقيل القطع . وقولها قناه مقوَّمة ، تريد أنها دقيقة المقدّم ، وهو مدح في الإناث ، والإثفييسة : واحدة الأثافي . وممليلة : مجتمعة ، تريد أنها مدورة . وقولها معجرمة ، قال أبو بكر : العَدَدَمة : وثبة كوثبة الظبي ولا أعرف عن غيره في هذا الحرف تفسيراً . وعجمة : قليلة اللحم قليلة الشعر . وانثراد : انصيباب .

وخيفق: فيعل من الخفق وهو السرعة والناهقان: العظمان الشاخصان في خدَّى الفرس، ومُسمرة: قليل اللحم، وأشدق: واسع الشَّدة. وبمدَّق: ممال من والاشدَ في العظيم الشخص، والدسيع: مركب الفُنسُة في الحادك. ومنفنف: واسع، والتسليل: العنق، ومسيَّف: كأنه سيف، ورزكوج: سريعة. والخيفانة: الجرادة التي فيها نقط سود تخالف سائر لونها، وإنسا قيل للفرس:

عيفانة اسرعتها ، لأن الجرادة إذا ظهرت فيها تلك النقطكان أسرع لطيرانها . وركموج : كثيرة الرَّهج ، وهو الغبـار . والإهماج : المبالغة في العدو . والارتماج : كثرة البرق وتتابعه .

وغيبول: في حبالة ، ومشكول: في شكال والملاغم: الجحافل. والمعاقم: المفاصل. وعبل: غليظ والمحزم: موضع الحيزام. وعبد : يخد الآرض؛ أى يجعل فيها أخاديد أى شقوقاً ومرجم: يرجم الحجر بالحجر. ومنين مرتفع والحارك: منسج الفرس. والسنابك: أطراف الحوافر، واحدها سُنشبُك وبجدول: مفتول. والفليل: الشعر المجتمع، والفرج: اللين الميد المجتمع، والسنبيب: شعر الميده والسنبيب: شعر الماسة، وضاف: سابغ.

و لعل هذا الطرف الذي قدمناه في أدب الجواري يدل على مدى ما كان ابن من مو اهب أدبية خلاقة ، وأسهمن بإنتاجهن مساهمة كبيرة ظهر أثرها واضحاً في الأدب العربي كله ، كما أثرن في شخصيات الآخرين من رواد مجالسهن ، وأصحاب الأندية ومجالس الآدب تأثيراً عظيما برز فيما كان من هؤلاء من إنتاج أدبي دائع ، ما كان ليصدر عنهم لولا ما أثرنه فيهم من كو امن العاطفة ومشاعرهن المرهفة ، وما كان منهن من جميل القول ودرر النثر بما أثار إعجاب الخلفاء والامراء واستولى على لب الأدباء ، فحان من هؤلاء وأولسك ، أدب ساحر ، وتغن عذب ، تو دداً للجواري ومجاراة لهن في الميادين الأدبية المختلفة .

وما أثر عنهن من إنتاج لا يقل جودة وإتقانا عما أثر عن غيرهن من كتاب وأدباء، وبصرف النظر عما أحاط بهن من ظروف قاسية ، كانت تقسو عليهن إلى درجة تشويه سمعتهن ، وزعزعة مراكزهن ، وتقليص شخصياتهن ، والصاق كل ما هو شائن معيب بهن .

ومع ذلك فقد استطمن بما توفر لهن من ثقة بالنفس ومواهب أدبية وثقافية أن يثبتن فى حلبة الصراع، فإذا كن قد خسرن معركة الحرية الشخصية والدكر امة وفقدن كيانهن كنساء محترمات موقرات، فقد فجرن طاقتهن فيما أنبيح لهن من فرص، فربحن معارك الفن والأدب (١).

⁽١) الأندية الأدبية ص ٢٦٠ .

خـــا تمـــة

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن قبل أن نضع اللمسات الآخيرة لكتابنا (أدب النساء) في الجاهلية والإسلام . هذا السؤال هو : لماذا قل نثر النساء ونتاجهن الآدبي في فتراته المختلفة وبخاصة في العصر الجاهلي ـ باستثناء العصر الحديث الذي نهضت قيه المرأة كاتبة وشاعرة ومفكرة وقصصية ، وخطيبة ومحاورة ومناظرة .

ورداً على تلك التساؤلات نقول :

المناه المناه المناه المناه المناه المناه الإمكانات المتاحة التى تهيء اظهود هذا الفنالنسائى (النثر الفنى) فالرواة كان جل اهتهامهم منصباً على رواية الشعر وحفظه ، لحب العرب الشعر وتعظيما للشاعر ولأن العرب أمة شاعرة يعتزون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم والإشادة بفضائلهم فهو عندهم كالآثار المشيدة التى خلفتها بعض الآمم ، (١) وقد سارعوا إلى حفظه _ دون النثر _ لأنه أسير على الزمن وأبق على الدهر ، ولأنه أسرع فى الاستظهاد والحفظ من النثر ، إذ النفس إليه أميل والفؤاد به أشد علوقاً ، وأكثر رغبة لارتباطه بالموسيق والغناء لكونه منهما ، مخلاف النثر الذى تجرد مر هذا الارتباطه الموسيق والغناء لكونه منهما ، مخلاف النثر الذى تجرد مر هذا الارتباط الموسيق ، فهو معرض النسيان والترك ، فتراكيبه غير منفمة ولا تعطى رواته فرصة الترنم والتغنى به ، بما جعله لم يعمر طويلا ، أما الشعر فعمره أطول السهولة حفظه والتغنى به ،

٧ ــ وربما ترجع قلة النشر الفي النسائي إلى أن الرواة في عصر الجمع والتحصيل

⁽١) المرأة في الشعر الجاهلي: ٣٠٣

كانوا حراصاً على الغريب فسكانوا يأخذون عن الأعراب لانهم يقدرون فى الشعر قيمته اللغوية (١) ولم يحفلوا برواية نثر النساء دبما لقلة غريبه، أو لأن فيه ليناً وضعفاً فعدلوا عنه إلى الشعر ولم يعباوا به.

٣ - لم تمكن هناك الوسائل المكافية التى تشجع على تسجيل السكتابة النسائية ، أو النشر الفي النسائي ، فبالرغم من أن المكتابة كانت معروفة في العصر الجاهلي ولسكن الأدوات المكتابية كانت بدائية وغير بمكنة التداول وليست هناك من الوسائل الحديثة التي تساعد على انتشارها و تداولها و تتناقاها الأجيال تلو الأجيال ، وحتى لو وجدت هذه الوسائل فليس هناك كا قدمنا من يشجع النشر ، فالاهتمام كله بالشهر والشعراء لأن الشاعر لسان قبيلته يذيع عامدها ، ويهجو خصومها ، ولم تمكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل نشر النساء وكشر شعر الرجال ،

ع أنشر بصفة عامة كان قليلا جداً لأن العرب استخدموا السكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجادية ، واسكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة (٢) تتبيح أنا أرب نزعم أنه وجد هندهم نوع من العناية الفنية .

ويرى الجاحظ أنهم كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود (المهارق) (۲۶ .

ويقول الدكتور شوفى ضيف دبما لاشك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندعى بها أن الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية ، إنما الذى نستطيع أن ندعيه أن لهم حقاً عن طريق الوثائق الصحيحة ، هو الامثال ، فقد أكثروا من ضربها ، وقد سلمت لنا طائفة واسعة مرالامثال ترافلتها الرواة

⁽١) نفس المصدر ٥٠٦ (٢) الفن ومذاهيه في النثر الفني .

⁽٣) الحيوان ١ : ٢٩ .

جيلا بعد جيل بما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية ، ومعروف أن الامثال لا تتغير بل تظل طويلا على هيئنها التي صيغت عليها .

وأما الخطابة وسجع السكهان فضاعت نصوصهما إلا قليلا جداً ، إذ بقيت بعض قطع ، و بعض صيغ منثورة فى ثنايا السكتب التاريخية والادبية . (١)

وإذا كان النشر بصفة عامة قليلا جداً كما بينا ،كان النشر النسائى العنى بصفة خاصة أقل من ذلك بكثير فضلا عن العوامل الآخرى التي كانت سبباً في قلته وضآلته ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً .

و بعبران عنها ، وبواعث الغناء هي بواعث الشعر دوالموسسيق أساس ويعبران عنها ، وبواعث الغناء هي بواعث الشعر دوالموسسيق أساس الشعر فهما عنصرار أساسيان يكمل كل منهما الآخر ، والنساء أليق باحتراف الغناء من الرجال لأنهن في الغالب أندى صوتاً وأحلى ترجيعاً ، وأرق نغماً ، ولان لجمالهن وأنوثتهن أثراً في الطرب لهن ، وقد ذهب الجاحظ إلى أن د الغناء المطرب في شعر الغزل من حقوق النساء ، وينبغي أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نطقت تلك الاشعار ، وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله ، وبين فم تشتهي أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كا رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح ، وبعد فأيما أحسن وأملح وأشهى أن يغنيك فحل ماتف اللحية كث الدارضين ، أم شيخ منخلع الاسنان مغمض اوجه ؟ أم تغنيك جادية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها عاسمينة ، أو كأنها عالية نرجس ، أو كأنها عاسمينه ، أو كأنها عالية نرجس ، أو كأنها عالية كله بالدول كله بالمينه و الغيف كله بالمينه كله بالمينه كورون في المينه كله بالمينه كورون في المينه كورون في المينه كورون في كله بالمينه كورون في كله كورون في كله كورون في كورون كورون في كورون في كورون كور

⁽١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٠

⁽٢) رسالة العشق والنساء ١٦٥ نقلا عن المرأة في الشعر الجاهلي ٥٦ .

⁽٣) نفس المصدر السابق.

لذلك نجمه أن ميل النساء إلى الشعر والغناء أكثر من ميلين إلى النش وتدبيج الإنشاء وبالتالى فإن الرواة أحيوا روايتهما وترديدهما ، والراوية عربي يهزه تغريد الطيور ويأسره هديل الحائم ، وهذا هو السر الذي حفظ تراث الغناء والشعر وأهمل النشر النسائى ، حتى أن هناك كتباً كثيرة ألفت فى الغناء والشعر – وأهمها وأخلاها كتاب الآغاني لابي الفرج الاصفهاني .

٣ - الاحظ أر أشهار النساء التي نقاتها إلينا الرواة تصائد قصيرة بحملتها أو مقطوعات ، والظاهر أن طبيعة النساء لا تساعدهن عادة على إطالة القصائد ، حتى فى قصائد الرثاء الذى هو الفن الآقرب لآذواقهن ، فلا نجد لواحدة منهن قصيدة تضادع قصيدة أبى ذقيب الهذلى في طولها ومتانتها أو مرثية كعب بن سعيد الفنوى ، ولهذا نجد فى الكتب التي عنيت باختيار القطع القصاد لحاسة أبى تمام مقطوعات لهن (١) ، وهذا يدل على ضآلة القدرة الشعرية عند النساء ، وضيق نفسهن فى هذا الجال ، وإذا قصر باعهن فى الجال الشعرى كن فى النساء ، وضيق نفسهن فى هذا الجال ، وإذا قصر باعهن فى الجال الشعرى كن فى عجال النشر أشد قصوراً وأقل إنتاجاً .

٧ - وفى ظل الإسلام الحنيف ، نشطت المرأة نشاطاً ملحوظاً ، فروت الاحاديث وكانت عضواً فعالاً فى نشر رسالة الإسلام السمحاء وأحكام الدين ورفع منار السنة الفراء ، فروت الحديث عن النبي عَلَيْكَة كالسيدة عائشة رضى الله عنها ، فلقد كانت عاملا كبيراً ذا تأثير هميق فى نشر تعاليم الرسول علية والتفانى فى إعلاء كلمة الله لتخفق دايته على الحافقين .

وأمر خطير كهذا يتطلب استعداداً خطابياً وأديباً ، يؤهلهن لافتحام هذا الميدان الجديد .

ولا شك أنه كان لهن دوائع نثرية واستعدادات أدبية وتراث أدبي كبير

⁽١) الدكمتور على العاشمي : ٢٨٤ .

ولكن الظروف التي مرت بها الدولة الإسلامية ، وحروب التتر والمغول ربمـــا أضاعت هذا التراث .

فلا يعقل أن يكون للسيدة عائشة وهى وارثة البلاغة النبوية ، هذه الخطب المحدودة القليلة التى وردت إليناكما لا يعفل بأى حال أن تجىء خطب الشيعيات أنصار على قليلة وقصيرة ، ولا يخنى أن هذه الفترة التى عاصرت الشيعيات انسمت بالنشاط والازدهار ، وقوى فيها هذا اللون من الخطابة التى تقوم على الحوار والمناظرة ، وتفرق الحكام إلى مذاهب شتى وأحراب مختلفة ، كل يدافع عن مبدئه وعقيدته التى اؤمن بها .

۸ — من سمات الأدب الحرية والتنقل من مكان إلى مكان لحضور والصالونات الآدبية ، ومشاهدات المؤتمرات الشـمرية والمنتديات الفكرية ، والإسلام حينها جاء وضع المرأة في إطار شرعى ملتزم ، فهى محجبة ممنوعة من التحدث مع الرجال إلا من وداء حجاب ، كما أنها شغلت بأمور دينها ومناصرته ، وهذه العوامل تحد من نشاطها الأدبي وتقلل من إنتاجها النثرى .

وفى عهود للولدين والمحدثين وبخاصة فى الأندلس شاع الغناء والطرب والشعر ، ولا يخنى الارتباط الوثيق بين الشعر والغناء ، لأنهما مما يصدران عن الماطفة .

وكما بينا أن المرأة أميل للفناء ، وما الغناء إلا مقطوعات من الغول تنشد في قصود الخلفاء ، وتغنى في مقاصير الأمراء ، في سبيل نيل الحظوة والظفر بالاعطيات والأموال ، فشاهدنا تنافساً بين النساء وبخاصة القينات على إجادة هذين الفنين : الغناء والشعر وبخاصة شعر الغول ليبلغن بهما عند الخلفاء منزلة لا تسامى وحظوة لا ترام ، وزلني لا تنال ، وقد بلغ من تفوقهن في فن اللحن أنهن كن يعلمته أبناء د الفرنجة ، كل علىحسب لغته ، وصارت الاندلس معهداً أنهن كن يعلمته أبناء د الفرنجة ، كل علىحسب لغته ، وصارت الاندلس معهداً

للفناء والشعر ، يأتى إليه داغبو التعليم من كل فج عيق . إذا عرفنا هذا وصلنا إلى السر فى قلة نتاجهن الأدبى ،وكثرة إنتاجهن الغنائى والشعرى وبخاصة فى هذه المرحلة .

٩ — يضيف الدكتور الحوفى رحمه الله عاملا آخر يسوقه تعليلا آخر لقلة نتاج المرأة الأدبى، ويرجع ذلك إلى لون من التعصب؛ فقد ضرب المثل ببعض الشعراء فى إجادة فنون خاصة ولم يضرب بالحنساء فى إجادتها للرثاء، وإيثار ابن سلام لمتمم بن نويرة فى الرثاء مع وجود غيره من الشاعرات، ومثل هذا كثير فى كتب الأدب،.

- ﴿ تُم السَّمَتَابِ بِعَمْدُ اللَّهِ ﴾ القسم الأول والنَّر ، ﴾
- ﴿ ويليه بعون الله ــ القسم الثانى وأشمار النساء ، ﴾
 - ﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴾

أهم المصــادر والمراجع

١ _ القرآن الكريم ٢ ــ الحديث النبوى الشريف ٣ - الأغان – أبو الفرج الأصبهاني – هيئة الكتاب – مصر ع - تحت المصباح الأخضر - توفيق الحكيم - مكنبة الآداب - مصر - المرأة في الشعر الجاهلي - د / على الهاشمي - دمشق حدیوان طرفة - هیئة الکتاب - مصر ٧ ــ شمراء النصرانية ــ لويس شيخو ــ مكتبة الآداب ــ مصر ۸ - حضادة العرب - جوستاف لو بون ً - عیسی الحلی - مصر ٩ - الإصحاح - بيروت . ١ ـ المرأة في الشمر الجاهلي د / الحوفي ــ مطبعة نهضة مصر ١١ – تحزير المرأة – قاسم أمين – بيروت ١٢ - صبح الأعشى - هيئة الكتاب - مصر ١٢ _ قصة الحضارة _ زكى نجيب محمود _ لجنة التأليف والترجمة _ مصر ١٤ - المرأة العربية - عبد الله عفيني - داد الكتب المصرية - مصر ١٥ _ الحفظانة لأرسطو _ إحسان عباس _ بيروت ١٦ _ الخطاية في صدر الإسلام _ دار المعارف _ مصر ١٧ ـ الأدب الجاهلي ـ د / محمد بدر وزميله ـ مطبعة المناد إيالرياض ۱۸ ــ الوسيط ــ أحمد الاسكندري وآخرون ــ دار الكتب ــ مصر ١٩ ـ جمهرة خطب العرب ـ أحمد ذكى صفوت ـ مصطنى الحلبي ـ مصر ٠٠ _ العقد الفريد _ لابن عبد ربه _ لجنة التأليف والترجمة _ مصر ٢٦ _ بحمع الأمثال _ الميداني _ بيروت

۲۷ _ جميرة الأمثال _ للعسكرى - بيروت

٣٣ ــ البيان والتبيين ــ للجاحظ ــ الحانجي مصر

٢٤ ـ بلاغات النساء لابن طيفور _ بغداد

٢٥ - الأمالي - القالي - داد الكتب - مصر

٢٧ _ ذيل الأمالي _ القالي _ دار الكتب _ مصر

٢٧ ــ الـكامل ـ للمرد ــ بيروت

۲۸ ــ سرح العيون ــ لان نبانه ــ بيروت

٢٩ ــ إنسان الميون ــ للحلى ــ المطبعة المصرية ــ مصر

٣٠ ـ خرانة الادب للبغدادي ـ الخانجي ـ مصر

٣١ ــ الوصف في شعر المتنبي ــ متولى القاسم ــ مجلة دار العلوم ــ مصر

٣٢ - صور البديم - د / على الجندى - مكتبة الشباب - مصر

٣٣ ــ شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ــ بيروت

٣٤ – الحـكم والأمثال – دار المعارف – بمصر

٣٥ ــ الجديدُ في الأدب العربي ــ لجنة تربوية ــ بيروت

٣٦ ــ تطوير الاساليب النثرية ــ المقدسي ــ بيروت

٣٧ ـ النصوص المقررة ـ عبد الفتاح لاشين و آخرون ـ الأهرام ـ مصر

٣٨ ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ د/ شوقي ضيف ــ دار المعارف مصر

٢٩ - صحيح مسلم ، صحيح البخادى - مطبعة الشعب - مصر

٤٠ سبل السلام - للزبيدى - مطبعة الرياض

٤١ ــ نهاية الارب ــ النويرى ــ هيئة الكتاب ــ مصر

٤٧ ــ العمدة ــ لابن رشيق ــ بيروت

٢٤ ـ الخطب والمواعظ ـ محمد عبد الغني حسن ـ دار المعارف مصر

ع ع ــ الحياة الأدبية ــ د / خفاجي ــ مؤسسة ومكتبة خدمة العلم بالرياض

ه على - أساوب المحاورة - د معبد الحليم حفى - مصر

۲۶ – الصناعتان – لأبي هلال العسكري – ببروت

٤٧ ــ دائرة معارف مجلة المعرفة ــ مؤسسة الأهرام ــ مصر

٤٨ ــ الأدب العربي في العصر العباسي ــ د / محمد بدر ــ الأهرام ــ مصر

٤٩ - الحيوان - الجاحظ - عيسى الحلى مصر

هـ الأندية الادبية في العصر العباسي ـ الحاشمي ـ بيروت

٥١ – المزهر – جلال الدين السيوطي – عيسي الحلي – مصر

٢٥ ــ الظرفاء والشحاذون في بغداد وباديس ــ بيروت

٣٥ ــ الأعلام ــ للزركلي ــ بيروت

٤٥ ــ القرآن إعجازه وبلاغته د / عبد القادر حسين ــ مصر

٥٥ – لغتنا الجميلة – فاروق شوشه – مكتبة مدبولي مصر

٥٦ – القاموس المحيط – بيروث

٥٧ ــ تاج العروس في شرح القاموس ــ بيروت

٥٨ – مرائي شعرا. النضرانية – لويس شيحو – بيروت

٥٩ - أعلام النساء - لعمر رضا كالة - بيروت

٦٠ ــ الدر المنثور ــ زينيت فواز ــ بيروت

٦١ - شاعرات العرب - عبد البديع صقر - المكتب الإسلامي - قطر

المحتنسوي

ميفخة		,								الوضوع لقـــــدمة				
٣	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	سدمة		
4	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	يال	^	
													في المه	
17	•••	•••		•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	<u> </u>	الوصد	
**	•••	• • •	•••	•••	• • •	•••	•••	•••	•••	•••	•••	ر	الوصة	
													أدب ا	
c٩	•••	- • •	,	•••		•••	• • •	•••	•••	•••	إهن	الكو	خطب	
													Z_11	
94	•••	•••	•••	•••	•••	•••	ā,	ی ام	، وب	سلامح	ر الإ	م العص	النائر في	
111		•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	• • •	ارة	المناه	خطب	
100		•••	•••	•••	•••			•••		ات	حاور	ب المت	أسلوب	
													المتحاو	
											_		الأدي	
													نماذ	
													۔ نثر الج	
174	•••	•••		•••	•••	•••	•••	•••		•••	رآن	مة بالة	المناكم	
													حديث	
													خاتمــــ	
													أم الم	

كمتب للمؤلف

- الأدب في العصر الجاهلي الأهرام مصر
- الأدب في صدر الإسلام وبني أمية الأهرام مصر
 - _ الأدب في المصر العباسي _ الأهرام مصر
 - _ محاضرات في الأدب والنقد _ الأهرام مصر
 - _ البحث الآدي
 - ــ دراسات حول النصوص الأدبية ــ الأهرام مصر
 - _ نزهة الجلساء في أشعار النساء _ مطبعة الأمانة

تحت الطبع

- _ أشمار النساء في الجاهلية والإسلام
 - _ شعر المرأة في العصر الحديث
 - شعراء الأزهر في العصر الحديث
- دراسة تحليلية الكتاب فن الشمر الأرسطو
- ـ محد بن عبد الوهاب وأثره في الحياة الأدبية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٩٨ /١٩٨٣ الترقيم الدولي — ١SBN ٩٧٧

طببع بمطبعة مكثبة الآدابالمطبعة النموذجية